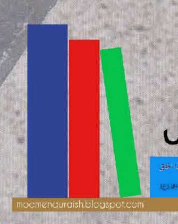


مذكرات تيمورلنك

مذكرات سلطان المغول تيمور

ترجمه إلى الإنكليزية: تشارلز ستيوارت

ترجمه إلى العربية: دينا الملاح



مذكرات تيمورلنك
(مذكرات سلطان المغول تيمور)

وضعت باللغة التركية الجغتائية

نقلها إلى الفارسية

أبو طالب الحسيني

ترجمها إلى الإنكليزية

تشارلز ستيوارت

ترجمه إلى العربية

دينا الملاّح

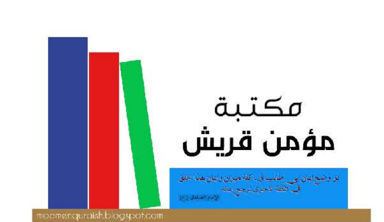
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS23 .T561312 2014
Timur,1336-1405.
مذكرات تيمورلنك: مذكرات سلطان المغول تيمور: وضعت باللغة التركية الجغتائية/ تيمور؛ نقلها إلى الفارسية: أبو طالب الحسيني؛ ترجمها إلى الإنكليزية: تشارلز ستيوارت؛ ترجمة دينا الملاح.- ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2014.
ص. ؛ سم.
ترجمة كتاب: Malfūẓāt
العنوان بالإنجليزية: The Mulfuzat Timury = or Autobiographical memoirs of the Moghul Emperor Timur

تدمك: 6 - 295 - 17 - 9948 - 978
1. Timur, 1336-1405. 2. الحروب الصليبية. 3. التاريخ الإسلامي.
4. أوروبا -- العلاقات الخارجية -- العالم العربي. 5. العالم العربي -- العلاقات الخارجية -- أوروبا.
أ. أبو طالب الحسيني، اشتهر 1637. أ. Stewart, Charles, 1764-1837. ب. ملاح، دينا.
ج. العنوان.







الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@tcaabdhabi.ae
www.tcaabdhabi.ae

مذكرات تيمورلنك

إلى

العقيد ديفي

تريسي بارك، سوميرسيت شاير

سيدي العزيز:

لمّا كان الجمهور يَدين بالفضل لوالدكم الراحل، ليس للترجمة الرصينة التي أنجزها لشرعة السلطان تيمور فحسب، بل ولتوليه بكثير من المثابرة ابتياع أول نسخة موثوق بها من شرعة ذلك العاهل وجلبها إلى أوروبا، وإنه لمن دواعي سروري البالغ أن أهديكم الترجمة التي أنجزتها لتلك الشرعة.

يحدوني الأمل في أن تكون إلى حدّ ما مفيدة في تعريف الأجيال القادمة بهذا الاسم العظيم الشأن الجدير بالثناء.

سيدي الكريم:

يشرفني أن أكون خادمكم المطيع والمتواضع..

تشارلز ستيوارت

باث: أيار/ مايو من عام 1830

المقدمة

لئن كان تيمور - الذي يعرف خطأ باسم تامرلان- معروفاً منذ عهد بعيد لدى بضعة أفراد في أوروبا، إلا أنه بلغ الجمهور على نطاق أوسع في عام 1722 بفضل الجهود التي بذلها المستشرق بيتي دو لا كروا الذي لا تفتر عزيمته، حين ترجم تاريخ ذلك العاهل عن الفارسية الموسوم بـ «ظفر نامه»، أو «كتاب النصر» الذي وضعه شرف الدين علي اليزدي.

وفي عام 1723 نقل النسخة الفرنسية إلى الإنكليزية السيد جون داربي، الذي أهدى عمله هذا إلى صاحب السمو الملكي فريدريك أمير ويلز. لكن هذا التاريخ لا يبدأ إلاّ في السنة الخامسة والعشرين من عمر تيمور، أما كتاب «عجائب المقدور في نوائب تيمور» الذي صنفه بالعربية ابن عربشاه، وعرض فيه لتاريخ تيمور، فقد ترجمه إلى اللاتينية غوليوس في عام 1636، ومن ثم مانجير في عامي 1767 و1772. بيد أنه لما كان أقرب إلى الهجاء الفظ منه إلى التاريخ الحقيقي فإنه لم يكن جديراً بالثناء، وبناء على ذلك فقد انحدرت سمعته.

وفي عام 1783 تولى البروفيسور وايت من جامعة أكسفورد الاعتناء بنشر طبعة فارسية من شرعة تيمور، مع ترجمة إنكليزية لها أنجزها الرائد وليام ديفي الذي كان يعمل لدى شركة الهند الشرقية الموقرة [1] استحق عليها الثناء. ولما كانت السبب وراء تقديم الشرعة التالية فلسوف أجيز لنفسي أن أضم جزءاً من مقدمتها.

وفي عام 1787 نشر الراحل لانغليه الذي كان يعمل أستاذاً في جامعة باريس ترجمة فرنسية لشرعة تيمور، تحت عنوان: «الشرعة السياسية والعسكرية لتيمور المدعو تامرلان، التي وضعت بالمغولية، ونُقلت إلى الفرنسية عن نسخة بالفارسية بقلم أبي طالب الحسيني، وفيها دعاء بطول العمر للفاتح، ...إلخ»

---

(1) انظر الهامش في نهاية هذه المقدمة.

ينبئنا المبجل وليم إرسكين في المقدمة التي وضعها لمذكرات بابُر المنشورة في عام 1826 (وهو عمل لا يستحق الكثير من التقريظ) أنه اطلع في بومباي على ترجمة فارسية كاملة لشرعة تيمور، أصلها موجود في مكتبة جعفر باشا حاكم اليمن، ويتضح من مجموعة رحلات آستلي أن شخصاً يحمل هذا الاسم كان باشا اليمن في عام 1610، وذلكم أمر خطير؛ إذ إنه يحدد تاريخ الترجمة الفارسية، ومما يؤكد ذلك إهداء هذا العمل إلى السلطان شاه جهان الذي كان يحكم بلاد هندوستان.

وبعدما أوردت هذا الاستهلال أواصل كلامي لأقدم وصفاً للمخطوط الذي جلبه الميجور ديفي من الهند، وترجمته: فهو بحجم قطع الثمن، ومكتوب بخط فارسي عادي، وبما أنه لم يكن مجلداً على الإطلاق فمن المحتمل أنه جرى نسخه لذلك الرجل النبيل في كلكتا، وهو ملفوف بغلاف قديم، كتب عليه بخط الميجور ديفي: «هذا المخطوط الذي هو جزء من مذكرات تيمور نفيس جداً، ولذلك ينبغي حفظه بعناية. ملحوظة: يجب أن يوضع في صندوق الكتابة الأسود الصغير».

يضم المخطوط بين دفتيه أربعمئة وسبعاً وخمسين صفحة، وبعد المقدمة التي وضعها المترجم الفارسي تبدأ المذكرات التي تُطابق النسخة المطبوعة تقريباً، تليها التدابير والمشروعات التي تحتوي عليها النسخة المطبوعة، ويتبع ذلك كتاب البشائر الذي تأتي على ذكره الصفحة الثامنة من تصدير الدكتور وايت، وهو الكتاب الذي كنت على الأرجح قد ضربت عنه صفحاً في ترجمتي، من دون أن أخشى على نفسي الملامة لأنني لم أنجز جزءاً من هذا العمل [1].

ويبدأ التاريخ في الصفحة ذات الرقم مئة وثمان وثمانين بميلاد تيمور سنة 736هـ (1336م)، ويتواصل بشكل حوليات حتى سنة 777 هـ التي بلغ فيها الأربعين عاماً الأولى من عمره، مهملاً بذلك الثلاثين عاماً الأخيرة من حياته.

لكن أسلوبه ليس متقناً، وغامض أحياناً، ويشوبه كثير من حشو الكلام، وبعض التكرار، ولكن ليس ثمة أي انقطاع في التفاصيل، إلاّ في بداية سنة جديدة، مما يثبت على نحو جلي أن فن صناعة الكتاب لم يكن مُستخدَماً في وضعه، وأنه مترجم عن لغةٍ ما لا تصل إلى مستوى اللغة الفارسية المصقولة [2]، بيد أنني وجدت من الضروري أن أقسّم الترجمة إلى أسفار وفصول.

---

(1) قال السيد لانغليه في الصفحة السادسة من مقدمته: «ces superstitions sont, pour le philosophe, des rensei-gnemens certains sur les moeurs et sur l'esprit des hommes. J'engage donc M. M. Davy et White a faire cette restitution, si ce n'est paa a l'erudition, du moins a la philosophie».

(2) تختلف اللغة التركية القديمة عن التركية الحديثة بقدر ما تختلف اللغة الساكسونية القديمة عن الإنكليزية.

ولدى مقارنتي ترجمة العقيد ديفي بتلك التي أنجزها بيتي دو لا كروا وجدت كثيراً من التعارض بين تهجئة كل منهما للأسماء الشرقية، التي لا يكاد المرء يستطيع معها أن يفترض أنهما يقصدان الأفراد أو الأماكن نفسها، ولذلك تجرأت على ابتكار طريقة في ضبط التهجئة الأنغلو-شرقية، بوساطة الاستفادة من حروفنا التي تتوافق والأبجدية الفارسية.

إن النطق الدقيق لاسم علم ما أمر لا يتصف بالأهمية لدى القارئ الأوروبي، حتى إن الدارس المشرقي سيتمكن بالتالي مَن أن ينقله إلى الأبجدية الفارسية. ولما كان رسم بعض أسماء الأماكن راسخاً منذ زمان بعيد فلم أتدخل بها، لكنني أغتنم هذه المناسبة لأقول إن كلمة قُند Kund أو قِند Kend تُستخدم في اللغة التركية للدلالة على بلدة ما، فهي إذاً تشكل لاحقة تضاف إلى أسماء العديد من المدن؛ ويطلق الإغريق على طوران تسمية ترانسوكسيانا Transoxiana، بينما تعرف عند العرب باسم بلاد ما وراء النهر، وينبغي أن تهجأ بصورة صحيحة Ma-vera-al-neher؛ ولما كانت خراسان المنطقة الشرقية من بلاد فارس فقد أطلق عليها أرض الشمس.

ونحن مدينون بالفضل الكبير للأدباء الفرنسيين لأنهم زودونا بمعلومات عن موضوعات شرقية، لكنها أفضت بنا إلى ضبط خاطئ للتهجئة بسبب ولعهم باستخدام الحرف (سي) C الذي لا وجود له في اللغة الفارسية، وتبديلهم للعديد من الحروف المهمة.

تتسم الأسماء العربية جميعها تقريباً بأن لها معانيَ، وهي مشتقة من جذر يتكون من ثلاثة حروف، وإذاً فإن اسم محمد مشتق من (ح م د)؛ أي الحمد والثناء، وبالتالي فإن رسمه Mahomet (ماهوميت) على نحوِ ما يجري في كثيرٍ من الأحيان يضر باشتقاقه. ويستخدم رسم كلمة Amr للدلالة على فعل الأمر، في حين أن رسم كلمة Amyr يستخدم للدلالة على القائد، ومع أنه ينبغي أن يكتب دوماً باستخدام الحرف الأول من الأبجدية أي الألف، إلا أنه كثيراً ما يرسم Emir وUmeer؛ ولا بد أن لقب (أمير المؤمنين) Amyr Mumenyn ماثل في ذاكرة كل من قرأ حكايات ألف ليلة وليلة.

ويرسم بعض الكتاب الفرنسيين:

Dragoman (دراغومان) للدلالة على Terjuman (ترجمان)؛ أي مترجم.

Chagan (شاغان)، للدلالة على Khakan (خاقان)؛ أي إمبراطور.

Chacan (شاكان)، للدلالة على Shegun (شيگون)؛ أي البشير/ النذير.

في حين أن الحروف (j, y, t, d) تستخدم بالتبادل على نحو مستمر.

أما الحرف الصوتي القصير في اللغة الفارسية الذي تطلق عليه تسمية Zubber (زُبير) فيلفظ

في فارس (a) قصيرة، وفي تركيا (e) قصيرة، وفي الهند u) (قصيرة، مما يؤدي إلى اختلاف في النطق لدى أبناء كل من هذه البلدان؛ ولكن بما أن للحرف) (E ستة أصوات في اللغة الفرنسية، وثلاثة على الأقل في الإنكليزية، فإن هذا الاختلاف ليس أكبر مما نصادفه في لهجات كل من إنكلترا وأسكتلندا وإيرلندا.

إنني أدرك أنه من المستحيل أن يثبت نطق أي لغة من اللغات، لكن لما كان التزام المترجمين بنظام موحد أمراً مرغوباً به، وبما أن الأسلوب الذي اقترحه السير وليام جونز قد أخفق، فإنني أتجرأ على اقتراح أسلوب أشد بساطة من شأنه أن يخلصنا من معظم العلامات الصوتية المميزة التي تسبب كثيراً من الازعاج للكاتب والقارئ على حد سواء؛ عنينا استخدام حروفنا الساكنة التي تتوافق وتلك التي في الأبجدية الفارسية. وفيما يتعلق بالحروف الصوتية:

دعونا نجعل (e) القصيرة تمثل الحرف الصوتي الفارسي زيبير Zebber.

ولنجعل (i) القصيرة تمثل الحرف الصوتي الفارسي زير Zere.

ولنجعل (u) القصيرة تمثل الحرف الصوتي الفارسي بيش Pysh.

ونجعل الحروف (a, u, y) التي تمثل لدينا الحروف الصوتية الطويلة المقابلة (أ، و، ي)، وعادة ما يلفظ الحرف الأخير (ee) أو مثل (i) باللغة الفرنسية، كما في كلمتي Dire (يقول)، و Lire (يقرأ)، وهكذا دواليك.

أما حرفنا الصوتي المنزلق (a) كما في كلمة Slave (العبد) مثلاً لا وجود له في اللغة الفارسية، والكلمة الوحيدة التي تظهر فيها (الواو) المفتوحة هي (كوه) التي تعني جبل، ولذلك فمن المحتمل أن تكون تسمية خطأ. أما في اللغة العربية فتتشكل بأحد الحرفين (ع) أو (أ) مع الحرف الصوتي Pysh (بيش)، كما في كلمتي عُمر (age)؛ وأمراء (nobles). وقد يستخدم أحياناً الحرف العربي (ك) مقابل (C)، ولكن نظراً إلى أنه يشكل إضافة إلى عدد الأحرف من دون ميزة كافية فإنني أعتقد أن من الأفضل حذفه.

ملحوظة سبقت الإشارة إليها في الصفحة الأولى؛ فقد قصد السيد وليام ديفي الهند قرابة عام 1767بصفته طالباً في الكلية الحربية، وبعد أن انكب في وقت مبكر على دراسة اللغة الفارسية اختاره السير روبرت باركر القائد العام للقوات المسلحة في البنغال ليكون أمين سره ومترجمه للغة الفارسية؛ وبحكم هذا المنصب اعتاد أن يخادن العديد من الوجهاء من مواطني ذلك البلد ويتعامل معهم، بمن فيهم عظيم المغول، أو سلطان دلهي، وبعدما أقام لمدة اثني عشر عاماً عاد إلى إنكلترا. وحينما وظف الراحل اللورد ماكارتني في حكومة مدراس طلب إلى العقيد ديفي أن يرافقه؛ وقد أبحرا في عام 1781، لكن ما إن وصلا حتى وجدا جيوش حيدر علي قد اجتاحت

كارناتيك بأكملها. وحين أدرك العقيد أنه ما من مجال متاح آنذاك أمام قدراته فقد واصل رحلته إلى كالكوتا، وألحق فوراً بعائلة الحاكم العام وارن هاستينغز، فانصرف إلى تأدية مهام عمله هذا، ومواصلة دراساته، وجمع المعلومات.

وفي عام 1784 ركب من جديد على متن سفينة متجهة إلى إنكلترا، لكن أدركته الوفاة في طريق عودته إلى وطنه. ومع ذلك فقد نقلت كتبه وأوراقه بعناية إلى منفذي وصيته الذين سلموها بدورهم لابنه الذي هو في الوقت الحاضر العقيد ديفي المقيم في ترايسي بارك قرب باث. وتضم خزانة كتبه بين جنباتها المخطوط الذي ترجمته، إذ إنه لم يكن قد خضع للاختبار حتى العام المنصرم حينما عرض على جمعية الترجمة الشرقية نتيجة لتقرير وضعته عنه رفعته إلى الجمعية الآسيوية الملكية. والمقتطف التالي هو من رسالة بشأن صحة نسبة شرعة تيمور إلى مؤلفها وسلامة نصوصها، كتبها العقيد ديفي قبل عودته إلى الهند، ونشرت مع مقدمة هذا العمل.

مقتطف من الرسالة الموجهة من العقيد ديفي إلى الراحل الدكتور وايت أستاذ كرسي أسقف لاود لتدريس اللغة العربية في جامعة أكسفورد، بتاريخ 24 أكتوبر/ تشرين الأول من عام 1779:

يحمل تاريخ تيمور الذي كتبه بقلمه أقوى البراهين على أنه وضعه للأجيال القادمة فحسب، وأنه - بدافع من الحصافة، أو الدهاء السياسي- لم يجعل عمله هذا متاحاً للناس في حياته، فهو لا يقتصر على إيراد التفاصيل الدقيقة للوقائع والأحداث التي شهدها عهده على نحو ما نطالعه عند سواه من الكتاب، بل إنه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير.. إذ يقدم لك ما لا يستطيع أحد سواه أن يمنحك إياه، عنينا المنابع والدوافع الخفية التي أثرت في توجيه مسلكه في مختلف التدابير السياسية والعسكرية التي اتخذها طوال حياته، والفنون التي كان يستعين بها في الحكم، فضلاً عن القوة التي كانت وسيلته لفتح البلدان. كما أنه يقر بأمانةٍ بنقاط ضعفه، ويعترف بأخطائه، ويصف ما واجهه في بعض الأحيان من صعوبات نتيجة لتلك الأخطاء، والسياسة التي انتهجها للتغلب على تلك الصعوبات وتجاوزها. وبعبارة واحدة: إنما هو سرد كامل لما كان يعتمل في صدره، ويختلج في قلبه من مشاعر، ويدور في رأسه من أفكار. ولئن كان هذا العمل يثلج الصدر وينمي العقل على الجملة، فإنه لم يكن في أي حال من الأحوال معدَاً ليطالعه أعداؤه، أو حتى رعاياه في أثناء حياته؛ لأن من شأن ذلك تمكين أولئك الذين طالعوه من محاربته بالأسلحة الخاصة به، أو - بعبارة أخرى - أن ينقلب عليه ما يستعين به من فنون ودهاء سياسي. ولهذا السبب فمن المعقول أن نفترض أن هذا العمل موضوع البحث والنقاش لم يكن معروفاً تماماً في أثناء حياته، وأعتقد أن ما ينطوي عليه لاحقاً من غموض مؤقت - وهو أمر قد

يؤخذ بالحسبان على نحو معقول ظاهرياً- إنما مرده إلى احتمال وجود نسخة واحدة فقط عند وفاته، والشك الذي يحيط بالأيدي التي تلقفت تلك النسخة، والانقسامات التي تلت ذلك في صفوف أسرته بعد وفاة ابنه شاه روخ .

يقول أبو طالب الحسيني في عبارة إهداء ترجمته إلى السلطان العادل: إنه وقع في خزانة كتب جعفر باشا حاكم اليمن على مخطوط باللغة التركية أو المغولية، تبين له بعدما تفحصه أنه تاريخ تيمور، بقلم تيمور ذاته، ويحتوي على سرد لحياته، وأعماله من السنة السابعة ولغاية الرابعة والسبعين من عمره، ومن ثم يواصل ليقدم ترجمة هذا التاريخ المذكور آنفاً، الذي يتضمن الشرعة:

«قد يبدو جلياً أنه كان يتعين على المترجم أن يقول القليل، أو في الحقيقة ألا يقول شيئاً، لإثبات صحة نسبة هذا العمل القيم إلى مؤلفه وسلامة نصوصه التي كان على وشك أن يترجمها. وذلك أمر ينطوي على مظهر استثنائي أقره، لكنني أعتقد بأنه لا يمكن إلا استخلاص الاستدلالات التالية: إما أنه رأى أن هذا العمل في حد ذاته يتضمن ما يكفي من البراهين على صحة نسبته إلى مؤلفه وسلامة نصوصه، وإما أنه كان ذائع الصيت في تلك الحقبة عندما أنجز ترجمته، بحيث لا يرقى إليه الشك والارتياب، أو يكون موضع خلاف. ومن جهتي فإنني أعتقد بأن إغفاله هذه النقطة هو دليل قوي جداً- إن لم يكن الدليل الأقوى- على صحة نسبة كل من تاريخ تيمور وشرعته إلى مؤلفهما وسلامة نصوصهما.

قد يذهب ناقد أوروبي ما إلى القول إن أبا طالب ذاته ربما يكون قد وضع هذا العمل باللغة الفارسية، وأنه فرضه على العالم بوصفه ترجمة لعمل بقلم هذا العاهل المغولي، وأحسب أن ذلك أمر مستحيل؛ إذ لم يكن المؤلفون في المشرق يبيعون أعمالهم لبائعي الكتب، وما كانوا ينشرونها لقاء الاشتراك، ولا يعتمدون من أجل حصولهم على الدعم على استحسان الجمهور أو رحابة صدرهم أو سذاجتهم، فقد كانوا يحظون برعاية الأمراء الذين يقدمون لهم المكافأة التي تتناسب وقيمة أعمالهم. ولذلك فلو كان أبو طالب قادراً على تأليف مثل هذا العمل لما كان اقترف إثماً باستعمال هذه الخديعة بالغة الخطورة والحماقة التي لا يمكن أن تؤدي إلا إلى إخماد ذكره والحد من ربحه. ومهما كانت جدارة المترجم فإن التقريظ والمكافأة اللذين من المتوقع أن ينالهما المترجم تقديراً له على ما بذله من جهود في نقل عمل ممتاز لا بد من أن يكونا أقل مما يتوقع أن يحظى به صاحب مثل هذا العمل لو كان يمتلك ناصية القدرة على تأليف تاريخ حياة تيمور وشرعته على النحو الذي جرت عليه كتابته، ولكان قد استخدم ضمير الغائب عوضاً عن المتكلم (ليس ثمة ضرورة لإجراء أي تعديل آخر)، ولبرز بوصفه صاحب

أول بل أفضل كتاب على الإطلاق يتناول تاريخ حياة تيمور؛ ولا بد من أن هذا سيجعله ينال من التقريظ والكسب ما يفوق ذلك بعشرة أمثال. وإن من شأن طريقة التفكير ذاتها أن تثبت للبرهنة على أن النسخة التركية لا يمكن أن يكون صاحبها أي مؤلف مغولي إلا من تنسب إليه؛ وهو تيمور ذاته.

تعد البساطة النبيلة المتمثلة في أسلوب الكتابة، وحب الذات الصريح وغير المنمق اللذين تطفح بهما شرعة تيمور وتاريخه ميزتان تدلان على أصالة هذا العمل وقدمه أيضاً؛ فقد اعتمد المشرقيون طوال بضعة قرون خلت أسلوباً مختلفاً جداً في الكتابة؛ حيث تحفل أفضل أعمالهم التاريخية بمنتخبات من الشواهد الشعرية والتعبيرات البلاغية المنمقة التي هي من الكثرة بمكان، ويستشهد بها في كثير من الأحيان، مما يجعل العديد من المجلدات من قطع النصف، فإذا أزيلت عنها تلك الإضافات وجردت منها فسوف تختزل إلى قطع ثمن معتدل جداً.

«كان العمل الوحيد الذي وقفت عليه ويحمل الحد الأدنى من الشبه بحياة تيمور وشرعته هو تاريخ السلطان ظهير الدين محمد (بابُر) أو (شرح وتفسير الأحداث والوقائع والتعليق عليها) المعروف باسم (بابُر نامه)، الذي كتبه بقلمه»[1].

ينحدر بابُر من نسل تيمور في البطن الخامس؛ فهو ابن الميرزا عمر بن أبي سعيد بن محمد بن ميران شاه بن تيمور، وتفصل بين وفاة تيمور وولادة بابُر نحو ثمانين سنة. ارتقى بابُر عرش والده في مملكة فرغانة سنة 899 للهجرة بعدما بلغ من العمر اثني عشر عاماً. كان الجزء الأول من حياته مشابهاً إلى حد كبير لحياة سلفه العظيم تيمور؛ إذ إن ما أظهره من قدرات ومواهب في الميدان، وفي ديوان الحكم كذلك، وثبات في وجه المحن، ونشاط وشجاعة حينما تعترضه المصاعب وتحدق به الأخطار، ومشروعاته التي بلغت أخيراً المجد وتكللت بالنجاح، تجعل أوجه الشبه بين هذين الأميرين أكبر. وعلى غرار تيمور فقد كتب بابُر تاريخاً دقيقاً لحياته الخاصة وأعماله باللغة التركية وهو الموسوم بـ (بابُر نامه)؛ ولئن كان يضاهي الكتابة الإنشائية الرائعة لسلفه الشهير فإنه عمل جدير بالثناء المطلق. ومع ذلك فقد ظل الغموض يكتنف هذا التاريخ العظيم عظمة مؤلفه الملكي حتى منتصف عهد حفيده أكبر، حينما نقله إلى الفارسية عبد الرحيم خانخان الذي كان أحد أمرائه. وإن تبيان الغموض المؤقت الذي يلف هذا العمل القيم أمر ينطوي على صعوبة أكبر من ذاك الذي يكتنف مذكرات تيمور؛ إذ إنه عند وفاة بابُر لا بد من

---

(1) انظر Memoirs of Baber (مذكرات بابُر) الذي نشر باعتناء المبجل وليم إرسكين William Erskine عام 1826، حيث يتضمن التصدير والمقدمة والشروحات والتعليقات كماً هائلاً من المعلومات، ويُعزى الفضل إلى حد كبير في كتابة هذا العمل برمته لهذا المؤلف السلطان العالم.

أنه وقع بين يدي ولده همايون، وعند وفاته آلَ إلى أكبر.. ومع ذلك فقد بقي مجهولاً ولم يترجم حتى منتصف مدة حكم أكبر، فلو أقصي أكبر في وقت مبكر من حياته عن عرشه، ووقعت الانقسامات في صفوف عائلته، وانتشرت ذريته في شتى أصقاع الأرض، فمن المحتمل أن يغدو هذا المخطوط القيم من مقتنيات إحدى خزائن الكتب الخاصة، ولظل مجهولاً لمدة تربو على قرن من الزمان؛ ولربما فُقد تماماً. وما من ناقد - سواء كان مشرقياً أم أوروبياً - يملك الجرأة على الطعن في صحّة تاريخ بابُر وأصالته، وبقدر ما كنت قادراً على اكتشاف شرعة تيمور وتاريخه فإن أهل العلم في المشرق يعدونه عملاً أصيلاً بالقدر ذاته.

«لقد تعرفت إلى عدة رجال عظماء في الهند، سواء من مواطنيها أم من الفرس، وما إن تمعنت في قراءة أعمال تيمور حتى أفضى بي الأمر إلى طرح السؤال ذاته الذي كنت قد طرحته، بشأن ما إذا كانت صحيحة أم لا؟» وكانت الإجابات التي تلقيتها دوماً بالإيجاب مصحوبة ببعض علامات الاستغراب والدهشة وتعبيراتهما؛ لأنه كان في مقدوري، أو في استطاعتي أن أشك في صحتها وأصالتها. ويمتلك شاه عالم سلطان المغول في الوقت الحاضر نسخة جميلة من تاريخ تيمور وشرعته، يعتز باقتنائها، وهو شديد الحرص على الاعتناء بها، إلى درجة أنه على الرغم من سماحه لي بالإفادة من أي كتاب آخر من مقتنياته، إلا أنه قطعاً استثنى هذا الكتاب على وجه التحديد، بوصفه عملاً غاية في الندرة والقيمة، لا يستطيع أن يأتمن عليه أي إنسان مهما كان شأنه [1].

«إذا كان قد جرى - على العموم - حث أهل العلم في المشرق طوال عدة أجيال على الإشادة ضمناً بشرعة تيمور وتاريخه على نحو ما هي عليه الحال بلا ريب، فإنني لا أرى كيف يمكن للأوروبيّين، بأي درجة من اللياقة الأخلاقية، أن يشككوا في صحتها. إذ تتوافر لدى النقاد المشرقيين المادة الأفضل ليبنوا آراءهم عليها، أما مخزوننا الصغير من معرفة اللغة، ومخزوننا الأقل من المؤرخين المتخصصين في الدراسات الآسيوية فلا يجعلاننا مؤهلين لإصدار حكم نقدي بشأن هذه النقطة موضوع البحث. وهناك عدد كبير من المخطوطات الشرقية المحفوظةً في خزائن الكتب العائدة لرجال العلم، لكنني على قناعة بأنه ما يزال هناك كثير من المخطوطات التي لم تجد طريقها إلى أوروبا، ولعلها لن تجده إطلاقاً. بناء على ذلك، وعلى الرغم من الافتقار إلى أدلة تاريخية يمكن أن تقدَّم لإثبات صحة أعمال تيمور ومصداقيتها، لكن ما من أحد يجرؤ على القول إن مثل هذه البراهين التاريخية لا وجود لها. ولا بد من أن أهل العلم في المشرق

---

(1) لقد تبدلت الأحوال منذ ذلك الحين، وأمامي الآن نسختان أصليتان منقولتان عن مخطوط الإمبراطور السلطان، ولسوف يشار إلى هاتين النسختين بـ «تشارلز ستيوارت».

هم أفضل الأفراد المؤهلين لإصدار حكم نقدي، سواء كانوا جديرين بالتصديق والتبجيل أم لم يكونوا، ويعتقدون بأنه من الملائم إضفاء هاتين المزيَّتين عليهم. ومما هو مدعاة للأسف الشديد أن تاريخ حياة تيمور التي كتبها بقلمه لا يمكن العثور عليها في أوروبا، وإذا كانت الحال كذلك، وفي الإمكان ترجمة الشرعة ونشرهما معاً، فإنه بمثل هذه الدقّة في السرد، وتلك الأهمية التي تنطوي عليها هذه المسألة، وهذه الأضواء التي سيعكسها كل منهما على الآخر، فإنني أتصور أن من المستحيل على أي أحد قراءتهما من دون الإقرار بصحة نسبتهما إلى مؤلفهما وسلامة نصوصهما من الدليل (الداخلي) وحده [1].

مع تأكيدي خالص التحية والاحترام

وليام ديفي

---

(1) انظر أيضاً مقدمة الدكتور وايت للشرعة.

المدخل

لقد سكن المنطقة المترامية الأطراف التي كانت تسمى فيما مضى بلاد السيث وتدعى في يومنا هذا بلاد التتار منذ وقت مبكر جداً الأقوام البدوية الذين كانوا يتنقلون مع قطعانهم ما بين أجزاء هذه القارة، وكثيراً ما كانوا يهاجرون من شواطئ المحيط الهادي إلى وسط أوروبا، حيث أطلقت عليهم تسميات القوط، والفاندال، والهون، والأتراك، والتتار، وهلم جراً..[1] وكان هؤلاء الأقوام مقسمين إلى قبائل وعشائر متعددة، تتألف من خمسة آلاف إلى سبعين ألف أسرة، ويسمون بأسماء بعض مشاهير رؤساء القبائل ومقدَّميها، ويخضعون للزعماء الذين يتبعونهم والملقبين بالخانات؛ أي الملوك، لكن حينما يتّحد عدد من هؤلاء الأقوام وينضوون تحت زعامة قائد واحد فإنه يتخذ لقب خاقان، وهو يعني إمبراطور أو سلطان[2].

تولى في القرن العاشر رجل يدعى طومان خان- الذي أرجع المؤرخون المشرقيون سلسلة نسبه إلى يافث بن نوح - قيادة حشد من المغول كانوا يقيمون آنذاك في شمال غرب الصين، وكان هذا الشخص قد رزق بولدين توأمين هما قبل قبلاي خان وقاجولي بهادر، وأقنعهما بتوقيع اتفاق يقضي بأن يكون منصب «الخان» من بعده في ذرية قبلاي، وأن يكون منصب قائد الجيش «سپهسالار» في ذرية قاجولي.

وينحدر زنكيز الذي يلقبه الفرس «جنكيز خان» المولود سنة 1154 م من نسل أول هذين الابنين في البطن الرابع، بينما يتحدر من نسل ثانيهما في البطن الثامن بطل المذكرات التالية الذي ولد في إقليم كش (وهو ما يسمى اليوم بإقليم شهر سيز) من بلاد ما وراء النهر في عام 1336 م.

---

(1) يطالعنا غيبون في كتابه «انحدار الامبراطورية الرومانية وسقوطها» بتفاصيل مسهبة عن هذه الدول جميعاً.

(2) انظر النسخة المطبوعة من شرعة تيمور، ص131 و285: يلقبه غيبون بـ Chagan (شاغان) للدلالة على «خاقان»، باستخدام نظام التهجئة الفرنسية.

وقد توفي جنكيز سنة 1227 م بعدما وزّع الأراضي الشاسعة الخاضعة لسلطانه بين أبنائه الأربعة، وهم: (جوجي أو جوتشي، وجغتاي، وأوقتاي، وتولوي) فعهد إلى أولهم حكم مملكة القبجاق أو تتارياالعظمى الواسعة الأرجاء، وإلى ثانيهم حكم تركستان وبلاد ما وراء النهر، وإلى ثالثهم حكم منغولستان والصين، وإلى رابعهم حكم بلاد فارس وذلك الجزء من الهند الواقع غرب نهر السند. ولقد حكمت ذراريهم هذه البلدان حتى زمن تيمور الذي أخضعهم جميعاً. لكن بما أن أياً من جنكيز وتيمورلنك لم يتخذ لنفسه لقب «الخاقان» فلربما كانت ثمة أسرة أعرق محتداً وأعلى شرفاً من أي منهما[1]. كان أحد أسلاف تيمور يدعى قراجار نويان متزوجاً من ابنة جغتاي خان الابن الثاني لجنكيز، وبهذه الوسيلة أصبحت هاتان العائلتان مرتبطتين بوشائج القربى على نحو مضاعف، ونتيجة لذلك فقد حمل تيمور لقب (كوركان) الذي يعني صهر الخان، كما أنه يدل على الأمير العظيم، إذ يعود إليه الفضل في استمرار تاريخ هذه الأسرة.

ملحوظة: أخشى أن عدد أسماء العلم التي نطالعها في هذا العمل ستبعث على الضجر والملل عند قرائي، لكن ذلك هو أسلوب التاريخ الشرقي؛ ويعزى السبب في ذلك إلى أنه قد يكون بمثابة سجل لما أنجزه كل زعيم من أعمال، وإذا ما عمد المؤلف إلى إهمال ذكر أي رجل فقد يتعرض للوم من ورثته. وقد اعتذر ميرزا أبو طالب الذي وضع كتاباً عرض فيه لرحلاته عبر أوروبا في عام 1803 لأبناء وطنه عن ذلك الكم من الأسماء البربرية التي وجد نفسه مضطراً إلى أن يرويها على مسامعهم، وهكذا فإن الشكوى متبادلة.

(1) منذ أن كتبت ما سبق أخبرني واحد من خيرة العلماء الباحثين في التاريخ الصيني لدينا أن كبار الموظفين (الماندرين) في تلك البلاد تطلق عليهم تسمية كوانس Kwans، ولكن لقب جنكيز كان تشينغ زي خو هان Ching-sxe-Kho-han.

مذكرات تيمور

تصدير الترجمة الفارسية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي القدير، الذي شرّف الإنسان على سائر الخلائق، وقال له: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: 26].

إنه الذي أصلح عش العنقاء بجناحي الظفر المبسوطين فوق الأراضي الخاضعة أبد الدهر لسلطان صاحب الجلالة العاهل تيمور من على قمة جبل قاف المحيط بالأرض كلها..

الشكر لله الواحد القهّار الذي رفع من شأن مقام الخلافة وأهل بيت رسول الله فوق شأن سائر الدول ذات السيادة في العالم، من أجل نشر دين محمد، وإحياء سنن المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

العظمة للخالق الذي بعد أن خلق السموات وجميع العناصر حول محور الأرض، أقام دائرة السلطة العليا في شخص صاحب الجلالة الملك السعيد، مصداقاً للآية الكريمة: «السلطان العادل المتواضع ظل الله ورمحه في الأرض»[1].

أما بعد:

فإن أبا طالب الحسيني العبد الآثم المحتاج إلى رحمة ربه الهادي يعرض لأولئك الذين يقفون أمام العرش الملكي، أنه في أثناء إقامتي في الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة، عثرت في مكتبة جعفر حاكم اليمن على كتاب موضوع باللغة التركية، يحتوي على مذكرات أملاها جلالة العاهل ساكن الجنان تيمور صاحب قراني، سلطان البرَّين وخاقان البحرين، أسأل الله أن يرحمه ويغفر له كل سيئاته.. ويضم هذا الكتاب بين دفتيه الأحداث التي مر بها في حياته منذ بلوغه سن السابعة ولغاية بلوغه سن السبعين، ويروي الوسائل التي

---

(1) هذا النص حديث نبوي شريف وليس آية قرآنية. (المترجمة).

اتبعها في إخضاع كثير من البلدان، فأصبح المهيمن على كثير من الأراضي الخاضعة لسلطانه. يحدوني الأمل بأن يصبح هذا الكتاب مثالاً يحتذى للأجيال القادمة، وسبباً في إعلاء كلمة الدين.

بيد أنه لمَّا كان هذا العمل موضوعاً باللغة التركية وتتخللها العربية ومن العسير فهمه وإدراك معانيه فقد ترجمته عن التركية إلى الفارسية السهلة، لعله يكون مفيداً للأمراء في تدبر شؤونهم والحفاظ على سلطانهم، وقد يستمد الوزراء وقواد الجند من الاطلاع عليه ما يفيدهم في تصريف أعمال الحكومة.

نسأل الله العلي القدير أن يحفظ جلالة الإمبراطور صاحب قراني الثاني[1] شاه جهان ويصونه من تقلبات الزمان وشرور الدنيا جميعها، وأن يُظِلَ رؤوس البشرية بظل ملكه وعدله، بجاه الرسول العربي عليه أفضل الصلوات والسلام وعلى آله الطاهرين الطيبين وصحبه الغر الميامين.

تجدون النص في الملحق ذي الرقم (1).

(1) يستخدم مصطلح (صاحب قراني) للدلالة على سلطان البرَّين وخاقان البحرين ذي اليمن والبركة؛ ويقصد بـ(الثاني) السلطان شاه جهان الذي ارتقى عرش بلاد الهند (هندوستان) في عام 1037 هـ/ 1628 م.

مذكرات تيمور

السفر الأول: وقائع

الفصل الأول

ليعلم أولادي المظفرون والميامين، وحفدتي الأمراء الكرام وسواهم أنني:

[نص باللغة التركية][1]

قد وضعت مذكراتي هذه باللغة التركية من أجل كل واحد من ذريتي الذين -بمعونة الله القادر على كل شيء، وحماية محمد صلى الله عليه وسلم - سيتربّعون على عرشي ويخلفونني في الحكم، اللذين حصلت عليهما عبر كثير من الجهاد، والكد، ومواكب الحروب لعلهم يضعون تلك الأحكام والشرائع بعد إحاطتهم بها موضع التطبيق والممارسة، والتي بوساطتها قد يكون سلطانهم والأراضي الخاضعة لحكمهم بمأمن من الخراب أو التفكك والانحلال.

ملحوظة: هنا يأتي السفران الثاني والثالث اللذان يحتويان على الشرعة والتدابير، وقد ترجمهما العقيد ديفي وحررهما البروفيسور وايت، بقطع الربع، طبعة أكسفورد، عام 1783 م، ويظهران أيضاً في الطبعة الفرنسية للشرعة التي اعتنى بنشرها الموسيو لانغليه في باريس عام 1787م. وفي بعض المخطوطات التي تفحصتها تسبق المذكرات الشرعة، ولكن تليها في نسخة الكولونيل ديفي.

---

(1) السطران التاليان مكتوبان باللغة التركية الجغتائية القديمة، ولم نجد الكلمات التي يحتويان عليها في قاموس مينينسكي، وستطالعون هذين السطرين في الملحق ذي الرقم (2).

مذكرات تيمور

السفر الرابع: مُلفوظات

الفصل الأول

ليعلم أولادي الميامين، ووزرائي الحصيفون، والأعيان المخلصون والمتحمسون، أن الله سبحانه وتعالى، بسبب من القواعد الاثنتي عشرة التالية التي طبقتها باستمرار أسبغ عليّ العظمة، وجعلني الراعي لرعيته، وأمدَّني بمعونته السماوية، حتى بلغت هذه الدرجة العالية من السيادة التي لم يبلغها أحد:

أولاً- لقد أقمت ميزان العدل، لا أزيد على نصيب أحد ولا أنقص منه، وإنما أقمت القسطاس بين الناس عدلاً.

ثانياً- أقمت العدل الصارم الجازم بين البشر، وعملت على التمييز بين الحق والباطل.

ثالثاً- أطعت أوامر الله، والتزمت بقوانينه المقدسة، وبجلت أولئك الذين كان قد كرمهم.

رابعاً- كنت رؤوفاً رحيماً بالبشر، ومنحتهم جميعاً الفوائد والمزايا، وبهذه الصفات فزت بأفئدة مخلوقات الله. ولم أقم في أي وقت مضى بإثارة حفيظة أحد من ظلم أصابه وحيفٍ لحق به، ولم أشح بوجهي عن متوسل ببلاطي، وإنما كنت عوناً لكل من التجأ إلي.

خامساً- اتبعت على الدوام تقديم الشؤون الدينية على الشؤون الدنيوية؛ فقمت أولاً بتأدية فروضي وواجباتي تجاه الله لأنصرف بعد ذلك إلى مشاغلي الدنيوية.

سادساً- كنت أقول الصدق دوماً، وأستمع إلى الحقيقة أبداً، وأؤدي فروضي وواجباتي الدينية وأعمالي الدنيوية، وأتجنب مسارات الضلال والانحراف والاعوجاج. إذ تناهى إلى سمعي أنه عندما خلق الله آدم قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ (البقرة: 30) فقال الله تعالى للملائكة سأرسل سيفاً بين ظهرانيهم، ولسوف يعمل تقطيعاً في كل إنسان مفسد أو منحرف عن الصراط القويم، ولقد بلغني أنه يراد بالسيف هنا سلطة الأمراء، ويتحتم على كل ملك إذاً أن يقول الصدق ويستمع إلى الحقيقة فقط.

سابعاً- كنت أفي دوماً بما أقطعه من الوعود لأي شخص كان، ولم أتنصل من أي اتفاق أبرمته. ولم أقترف أبداً ذنبَ ارتكابِ أي عمل فيه استبداد أو ظلم، ولم أسمح لنفسي إطلاقاً بالتردّي في مواطن الرذيلة أو الذل والهوان، ولم أقطع في أي مناسبة حبل الودّ بيني وبين أولادي أو أحفادي أو ذوي القربى.

ثامناً- كنت أعدُّ نفسي المؤتمنَ على ممتلكات الله، ولم أستنزف أياً من ممتلكاته المقدسة من دون تفويض من نوابه؛ ألا وهم رجال الدين. وفي تحصيلي الإيرادات من عباده راعيت الرأفة والتعقل، ولم أستولِ أبداً على ثروة أي شخص أو ممتلكاته دون وجه حق، ولم أنشغل في مراكمة الثروة أو المادة، بل عملت دوماً على تحقيق الرفاه والسعادة لجنودي ورعاياي. كما لم أعمد إلى المسّ بما راكمه الأعيان الموالون لوالدي من ثروة ومكاسب، ولم أكن طامعاً في ممتلكات أي شخص كان؛ لأنني أعلم من خلال التجربة أن الأمير حسيناً بعدما استبدّ به الطمع بممتلكات جنوده ورعاياه، واستولى على ثروة الأعيان الموالين لأبيه، سرعان ما تلاشى ازدهاره الاقتصادي.

تاسعاً- كنت أعد طاعة الله متمثلة في طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك فقد سرت على نهج محمد صلى الله عليه وسلم، ولم أفعل شيئاً مخالفاً للسنة النبوية. واعتبرت دوماً نسل محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته أصدقائي، وأظهرت لهم مودتي.

عاشراً- نشرت عقيدة الإسلام في كل الأراضي الخاضعة لسلطاني، وأيدت الدين، وبذلك جعلت حكومتي مستقرة؛ إذ تناهى إلى سمعي أن الدين والدولة صنوان، وأن كل سلطة عليا ليست مؤيدة من الدين سرعان ما تفقد كل ما لديها من سلطة، ولا تطاع أوامرها، وبذلك سيتجرأ أي إنسان، سواء كان جديراً بالتقدير أم لا، على التدخل فيما لا يعنيه.

حادي عشر- منحت السادة الأشراف [1] والعلماء ورجال الدين الحق بالدخول علي من دون أن يعترض سبيلهم أحد، وعاملتهم دوماً باحترام كبير، ولم أصد أياً منهم عن بلاطي مطلقاً، حتى يتسنى لهم باستمرار حضور مجالسي، وحثّيت الشعب على الدعاء لي بالازدهار والتوفيق والسداد، وحرصت باستمرار على الاتصال بالعلماء والتقاة، وسمعت منهم كثيراً من الحكايات والنوادر، سواء المتصل منها بالتاريخ الديني أم الدنيوي..

وهكذا، فقد رووا لي أن ملك القسطنطينية غزا ذات مرة الأراضي الخاضعة لملك الراي، لكن لما تناهى إلى سمعه أنه كان يحضر مجلسه عدد من السادة الأشراف، وكثير من الشخصيات البارزة من رجال الدين والتقاة، أحجم عن إخضاع بلاده، بل إنه كتب إلى الوزراء والأمراء في

(1) نسل الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ذاك البلد رسالة، قال فيها: «لقد قرأت في الكتب السماوية أن أي بلاط ملكي تحضره شخصيات من العلماء والتقاة لا يمكن الإطاحة بحكومته، وبعدما بلغني بأن الحال في بلدكم على هذا النحو فإنني على قناعة بأنه لا يمكن إخضاعها.» كما أنه كتب إلى الملك قائلاً: «لمّا تبين لي أن نهجكم يماثل ذلك الذي كان لدى ملوكنا العادلين السابقين، فإنني لم أنزل الضرر ببلادكم، وبعدما سحبت جيشي، توقفت عن مهاجمتكم.. فأستودعكم الله».

ثاني عشر- لقد طلبت البركة من الزهاد وسواهم من الأشخاص الملهمين والأولياء الصالحين، والتمست دعواتهم. كما حميت النساك والدراويش، ولم أعمد إلى إثارة حفيظة أي منهم، وإنما استحوذت على أفئدتهم. وبذلت قصارى جهدي من أجل ترتيب شؤون المسلمين، وتجنبت إراقة دماء أي منهم؛ وتبجيل سلالة محمد صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص، وكنت حذراً أبداً من أن أحطّ من قدر أيٍّ من أبناء هذه السلالة الطاهرة أو ألحق بهم الضرر؛ كما أنني نأيت عن خطاب الأشرار والفجار؛ فلقد بلغني أنه حينما يصطفي الله أحدهم ليتولى الحكم في بلد ما، ويضع بين يديه مقاليد السلطة على البشر من أجل أن يحكم بينهم بالعدل، فإذا كان سلوكه ينطوي على الإنصاف والاستقامة فلسوف تتوطّد مملكته، لكن إذا كان على النقيض من ذلك فإنه يُدان بالظلم والطغيان، ويرتكب أعمالاً غير مشروعة، فيَحرمه الله من الذرية، ويجرّده مما لديه من أراضٍ خاضعة له وسلطة عليا، ويعهد بهما لسواه.. ولذلك، ومن أجل الحفاظ على سلطتي العليا فقد تناولت العدل بيد، والإنصاف باليد الأخرى، واهتديت بنور هذين المشعلين، وأبقيت البلاط الملكي مضاء. وحينما تناهى إلى مسامعي أن الملوك العادلين هم ظل الله، وأن الملك الأفضل هو الذي يسير وفق النهج الذي رسمه الله في الصفح عن الآثمين فقد اتبعت خُطى أولئك الملوك العادلين، وغفرت لأعدائي.

الفصل الثاني

لقد عينت أربعة وزراء صالحين ليتولوا الحكم في الأراضي الخاضعة لسلطاني، وكان أولَ هؤلاء محمود الجدير بالثناء، الملقب بنيزك خراسان؛ وثانيهم ناصر الدين، وأصدرت لهم أوامر حازمة تقضي بألا يقوموا مطلقاً بتقديم المشورة لي بأن أرتكب أي عمل جائر، وأنه ينبغي عليهم ألا يخرجوا عن جادة الاستقامة، وألا يحرّفوا الحقائق ويستبدلوا الخير بالشر، وعليهم قول الحقيقة دوماً، وألا يخدعوني بالكذب، وألا ينتزعوا ما لدى رعاياي من ثروات وممتلكات.

وقد بلغني أنه كلما رفع الله سبحانه وتعالى أي إنسان إلى عرش السيادة أضفى عليه المنزلة الخاصة والحكمة، وبوساطتهما يجعل البشر يطيعونه، وهذه المزية إنما هي شعاع من نور الله

يضيء على العاهل، وطالما أنه يشعر بالحمد والشكر لهذه المِنّة فلسوف تزداد ثروته والأراضي الخاضعة لسلطانه.

وهكذا حينما كنت أستعرض جيشي في سهول الأناضول ووجدت أن طوله قد امتد إلى مسافة خمسة عشر ميلاً، فقد اعتبرت هذه الحشود جميعها التي لا عدَّ لها ولا حصر تدين لي بالطاعة والولاء، وشكرت الله على جعل كثيرٍ من مخلوقاته خاضعين لإرادتي، على الرغم من أنني لست سوى إنسان فانٍ ضعيف مثلهم.

وحينما ذكرت هذا الموضوع للعلماء في بلاطي قالوا لي: إن من نِعَم الله أن ألقى عليكَ شعاعاً من نوره وضيائه، وهو ما يسمى «ظل الله»، كما قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : «السلطان العادل المتواضع ظل الله ورمحه في الأرض»، وبوساطة هذا الظل يُبقي الملكُ العادل البشريةَ خاضعةً له، ولما كان هذا الظل يبعث على الرهبة في النفوس فإن الناس يَدينون له بالطاعة والولاء، ويسري سلطانه وسطوته في أنحاء الإمبراطورية كافة، ولهذا السبب كنت طوال مدة جلوسي على العرش ممتناً وشاكراً دائماً لهذه النعمة، وأتبع أوامر الله بإظهار العطف على مخلوقاته، وتحري العدل والإنصاف في سلوكي وإدارتي.

ونتيجة لنهجي هذا، وحينما بلغت من العمر إحدى وعشرين عاماً، أسلمت لقطب الأقطاب الشيخ زين الدين أبي بكر تاتيابادي قياد ضميري، وفي تلك المناسبة لف شاله الذي يتزنر به حول خصري، ومن ثم وضع قلنسوته الخاصة فوق رأسي، ووضع في إصبعي خاتماً مرصّعاً بالياقوت، حفرت عليه عبارة (راستي ورُستي) أي (الحق والخلاص)، وقال: «لسوف يبزغ فجر حسن طالعك قريباً، فقد ألهمني الله برؤيا أنه بطاعةِ أوامر كبيرِ أهل بيت الرسول سوف يصبح أحد أولياء الله حارسك الأمين، وإنه ليس من الملائم أن تراه الآن، ولكن عندما يحين الوقت سوف تراه ولسوف يراك». وهكذا حينما كنت في السبعين من العمر، وفي طريق العودة في سنة 806 هـ من فتح الأناضول قدّمت فروض التحية والاحترام الواجبة لقطب الأقطاب الشيخ العارف صدر الدين الأردبيلي[1]، وبعدما التمست بركاته طلبت منه السماح لأحد تلاميذه بمرافقتي ليكون مرشدي الروحي؛ أجابني بالقول: «في جبل سالاران ثمة ينبوع، المياه فيه باردة في بعض الأحيان، ودافئة في أحيان أخرى، اذهب إلى هناك، وأول إنسان يصل إلى المكان ويتوضأ ويصلّي سيكون مرشدك». وامتثالا لأوامر هذا الشيخ قصدت ذلك الينبوع، وبعدما توضأت وصليت، انتظرت بتلهّف لمعرفة من سيأتي.. وكانت دهشتي كبيرة حينما وجدت أن أول من أتى إلى الينبوع في الصباح وتوضّأ وصلى كان مير آخور كبير سائسي الخيل لدي،

(1) انظر الملحق الرابع.

وتكرّرت الوقائع ذاتها في اليوم الثاني والثالث، فتملّكتني الدهشة وقلت في خلدي: من المؤكد أن الشيخ قد أخطأ، لكنني خاطبت ذلك الرجل قائلاً: «أيها السيد! لقد كنت أعدّك حتى الآن أحد العاملين الأدنى مرتبة في خدمتي، فكيف لك أن تبلغ هذه المنزلة العالية وهذا الشرف؟» فأجابني: إن ذلك بأمر من قطب الأقطاب، بل إنني منذ مستهلّ عهدكم كنت المؤيِّد الثابت لحكومتكم، ومن ثم بدأ بالصلاة، فانضممت إليه في تأديتها. وإبان تأديتنا هذا الفرض الديني خبرت البهجة والإلهام على حدّ سواء. ولما فرغنا من صلواتنا قال لي: «أيها الأمير! إنك في هذه اللحظة ضيف الرحمن، وأياً كان ما يطلبه الضيف من مضيفه فسوف يُعطى له دون مقابل»، ولذلك فقد تمنيت الإيمان، فأجابني بالقول: «إن الإيمان بمحمد أزليّ؛ إنها مدينة ينادي الذين يطوّقونها: «لا إله إلا الله» فيرد أولئك الذين يقيمون بداخلها: «إنه لمن المعلوم ألا إله إلا الله» وتلكم هي مدينة باب الأبواب(1)، وإن أولئك الذين يدخلونها أو يخرجون منها يرددون هذه الكلمات باستمرار».. وفي هذه اللحظة أحنيت رأسي إلى الأسفل ساجداً، وحينما رفعت رأسي من جديد وجدت أن رفيقي قد أسلم روحه إلى بارئها، فتأثرت لذلك أيما تأثر. ولما ذكرت للشيخ تلك الأحداث التي شهدتها رد قائلاً: «إن ترتيب شؤون كل بلد من البلدان، وسلطة تنصيب الملوك وعزلهم، مع وهب الممالك لمن يستحقونها، وانتزاعها ممن ليسوا جديرين بها، إنما تقع في أيدي العباد المخلصين الذين يمثّلون الله.. ولكل بلد حام يحرسه، أو وليٌّ يرعاه، يعيّنه قطب الأقطاب، وحينما يؤيد الحامي العاهل تزدهر البلاد، وإلاّ فإنها تتعرض للاضمحلال والزوال[2]، فما دام الحامي موجوداً فإن الدولة تزدهر، لكن حينما ينكفئ تنحدر وتنحط، وإذا لم يجر تعيين راع آخر عوضاً عنه فلسوف ينزل الخراب في هذه الدولة في وقت قريب». وأردف الشيخ قائلاً: "ولي الله الذي كان يرعى مملكة القيصر[3] قد توفي هذه السنة، وبسبب ذلك كان انتصارك عليه يسيراً". ولقد اعتبرت ذلك تحذيراً بأن دوري سيحين قريباً، ولكن لما كنت ما أزال آمل في تعيين راع آخر ليحل محل وليّي الذي توفاه الأجل فقد وهبت الشيخ أربعة آلاف من الأسرى من أبناء تلك البلاد (بلاد الروم)[4] من أجل التماس شفاعته.

---

(1) (٠) هي مدينة دربند بجمهورية داغستان حالياً. (المترجمة).

(2) لا بد من أن الشيخ قد تلقى بعض المعلومات الناقصة عن القديسين من رعاة أوروبا، إلا إذا كان هذا ابتكاراً آسيوياً، ولكن أخشى أن يُظن بأن هذه الفقرة غامضة جداً.

(3) (السلطان) هو اللقب الذي اتخذه بايزيد الأول وسواه من السلاطين العثمانيين.

(4) انظر الملحق الرابع.

الفصل الثالث

في سنة 771 هـ (1378 م) حينما أخرجت مغول منغوليا [1] من طوران، وارتقيت عرش بلاد التتار، وبعدما أمرت بأن تكون الخطبة باسمي من على المنابر كافة، اشترك السادة الأشراف والعلماء وكبار رجال الدين والفقراء جميعاً بالدعاء لي رافعين أيديهم إلى السماء مبتهلين أن يُكتَب لي الفلاح. لكن الخواجا عابد الذي كان أحد أشهر رجال الدين في ذلك العصر نهاهم عن الدعاء لي، وقال: «إياكم أن تبتهلوا من أجل هذا التركي القاتل والمتعطش للدماء، الذي نفذ حكم الإعدام في عدد لا يحصى من المسلمين، ولا تكرّروا التماس البركة له». وفي تلك الليلة بالذات رأى الخواجا في الحلم أنني كنت بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه دخل وقدم فروض الطاعة والولاء لمحمد صلى الله عليه وسلم دون أن يردّ له تحيته، وبعد حين نادى قائلاً: «يا رسول الله! أتسمح لهذا البائس تيمور الذي قتل مئات الآلاف من أتباعك، وأنزل الخراب بمنازل كثير من المسلمين أن يقف بالقرب منك، في حين لا تردّ لي التحية، وما أنا إلا مؤيّد يمتلئ حماسةً لدينك، وموطد لدعائم شرعتك ومنهجك؟» فأجاب بغضب: «على الرغم من إهراق تيمور دماء كثير من أتباعي فقد كان الصديق والمعاضد والمبجّل لذريتي والمتحدّرين من سلالتي، فلماذا تمنع الناس من الدعاء والتماس البركة له؟» وما إن أفاق الخواجا من نومه حتى جاء إليّ في تلك الليلة ذاتها طالباً العفو والغفران. وحينما بلغ هذا النبأ مسامع الناس رفعوا أيديهم مبتهلين أن يُكتب لي الفلاح، ولمّا كانوا يرون أنني أحظى بتأييد إلهي فقد شهدوا لي بذلك. وتعبيراً مني عن الحمد على هذه النعمة أظهرت يوماً بعد يوم المزيد من الاحترام والاهتمام والعطف على نسل محمد صلى الله عليه وسلم، واعتبرت نفسي المصطفى من الله.

ثمة حادثة أخرى وقعت سنة 804 هـ أكدت لي الرأي الذي ذهبت إليه؛ وهو أنني أحظى بتأييد إلهي؛ حينما غزوت بلاد الأناضول ومعي أربعمئة ألف من الفرسان، وكان بايزيد قد انطلق بجيشه لمواجهتي.. وبينما كنت أستعرض قواتي جاء إلي فصيل قوامه ثلاثمئة رجل من عرب العراق وأشراف كلٍّ من كربلاء والنجف بإمرة السيد محمد مفتاح ليمدوا لي يد العون والمساعدة، فأمرتهم بالدخول علي، واعتبرت قدومهم فألاً حسناً ودليلاً على معونة الحضرة الإلهية. فتقدم السيد محمد الذي كان يحمل اللواء أيضاً وقال: لقد تراءى لي الخليفة الرابع في المنام، وقال لي: «احمل لوائي الأبيض إلى الشاب التركي».. وبعدما تشاورت في الأمر مع كبار أعيان النجف ووجهائها اتفقوا أنكم أيها الأمير تيمور مَنْ غزا لتوه هذه البلاد الفرد المقصود».. فحمدت الله على هذه النعمة التي حباني بها، وأمرت أن يُدوَّن تاريخُ اللواء الأبيض في السجلات الملكية.

---

(1) استخدم المترجم الاسم «أوزبك»، وذلك تحسباً.

في إثر ذلك، وبعدما دنا مني أيك تيمور، نادى قائلاً: «نبشركم ببشائر النصر والظفر»؛ فاعتبرت كلمة (الظفر) بمثابة فأل حسن، وقدمت له اللواء الأبيض، وزودته بأوامري بأن يذهب ويبدأ الحرب. وما إن رأى اللواء الأبيض حتى تأثر أيما تأثر، وانطلق ممتثلاً لأوامري.

ومن جملة البشائر الحسنة التي طالعتني وأدخلت السرور العظيم إلى نفسي أنه حينما غزا تغلق تيمور خان سليل جنكيز خان بلادَ ما وراء النهر أول مرة، وكان قد عبر نهر سيحون استدعى الزعماء جميعاً لمقابلته. كان حاجي برلاس وجلاً خائفاً، فآثر الرحيل على البقاء، ولذلك انطلق إلى خراسان. كذلك لم يكن قد استقرّ رأيي بعد بشأن ما يجب عليّ القيام به، وبناء عليه فقد وجهت كتاباً إلى قريني ومرشدي الروحي أطلب فيه منه النصح والمشورة بشأن ما إذا كان يتحتم علي التوجه للقاء تغلق تيمور، أو أن أتوجه إلى خراسان بعدما أجمع صفوف جيشي وقبيلتي جميعاً، فأجابني برسالة قال فيها:

«لقد سئل الخليفة الرابع علي عما إذا كانت السماوات أقواساً، والأرض أوتاراً لتلك الأقواس، والنكبات سهاماً، وبنو البشر نصالاً لتلك السهام، وعندئذ لا بد وأن يكون رامي القوس هو الله، فإلى مَنْ يجب أن يتوجّه البشر من أجل التماس العون، فأجابهم الخليفة إنه يجب عليهم أن يتوجّهوا إلى الله. وإذاً فإنك معنيّ بالتوجه إلى تغلق تيمور لتحتضنه وتجرد ذراعيه من القوس والسهم.. أستودعكم الله»[1].

لقد كانت هذه الرسالة بالنسبة إلي بمثابة عزاء كبير، وذهبت للقاء تغلق تيمور على ضفاف نهر سيحون، فشعر بالفرح والسرور لمّا قدمت إليه، وجعلني أحد مستشاريه، وأدخلني في عداد موظفيه، وبات يشاورني في كل ما يعرض له من أمور، وحين تلقى أنباء تفيد بأن كبار القادة لديه قد شقوا عصا الطاعة وأعلنوا العصيان والثورة في إقليم قبجاق[2] شاورني في هذا الشأن، وما إذا كان يتعين عليه التوجه لقمعهم بنفسه، أو أن يجرد جيشاً آخر للقيام بذلك؛ فقلت له: «إن توجهكم إلى هناك ينطوي على خطر واحد فحسب، ولكن إرسالكم الجيش محفوف باثنين من المخاطر، والرجل الحكيم هو الذي يختار أهون الأخطار»؛ فما كان منه إلا أن أثنى علي جزيل الثناء. و تباحث معي من جديد بشأن حكومة بلاد ما وراء النهر، فقلت له: «إن حكومتكم أشبه بخيمة، فلتجعلنّ أعمدتها مصنوعة من خشب الإنصاف، وأوتادها وحبالها مثبتة بقوة على أرض العدالة، بحيث يكون كل شخص يدخل هذه الخيمة في أمان. ولتأخذ الأشراف والعلماء ورجال الدين في تلك البلاد باللِّين، ولتحكم بين الناس بالعدل، ولتصنع الخير مع الخيّرين،

---

(1) انظر الخطة الأولى: من الشرعة والذيل عليها باعتناء ديفي.

(2) منطقة مترامية الأطراف تقع إلى الشمال من بحر قزوين، ويحدها من الغرب نهر الفولغا.

ولتتوسل بالدهاء السياسي في التعامل مع السيئين، لكي تتمكن من كبح جماح الجند بوشائج من العطف والفضل».

لكنه أثار سخط قادته بمصادرته الممتلكات التي كانوا قد جمعوها من أهالي بلاد ما وراء النهر، وإجباره إياهم على تأدية الأموال إلى خزينته؛ وفي هذه المناسبة استمد مني النصح والمشورة من جديد، فقلت له: «إن عقول الأتراك ضيقة، شأنها في ذلك شأن عيونهم، وإذاً فلا مندوحة عن إرضائهم من أجل الفوز بصداقتهم وعقد ألسنتهم».

وقد وقعت مشورتي منه موقع الرضا والاستحسان، فتوجه إلى إقليم قبجاق من أجل قمع المتمردين، وتخلى لي عن المسؤولية عن بلاد ما وراء النهر، وخط لي اتفاقاً ينصّ على أنه قسم المملكة معي على نحو ودّي، ولكن هذا كان محض تظاهر لإبقائي هادئاً بينما كان منشغلاً بالمتمردين [1].

الفصل الرابع

وكان من جملة البشائر الحسنة التي تنبئ بعظمتي في المستقبل أنني رأيت النبي محمداً صلوات الله عليه وسلامه في الحلم، فهنأني وقال لي: «نتيجة لما قدمته لأحفادي من الدعم والمساندة فقد قضى الله عز وجل أن يتربع اثنان وسبعون من ذريتك على عرش السيادة». وحينما استيقظت كتبت إلى قريني رسالة تتضمن كافة تفصيلات ذلك الحلم، فأجابني برسالة قال فيها: «إنني أهنئكم على هذا الحلم، ورؤيتكم النبي صلى الله عليه وسلم فيه ما هو إلا برهان على أنكم ستحققون العديد من الانتصارات لا محالة، وأنه ستتمخّض عن هذا الحلم كثيرٌ من النتائج السعيدة». ولما كان السلطان سبكتكين نتيجة إشفاقه على أنثى ظبي كان قد أمسك بها ومن ثم أطلقها قد حظي بشرف رؤية النبي صلى الله عليه وسلم الذي قال له: «مكافأة لك على ما أظهرته هذا اليوم من الشفقة والعطف على ذلك الحيوان، لسوف يمنح الله سبحانه وتعالى ذراريك السيادة والسؤدد طوال أجيال عديدة»؛ فكم سيمنحك أكثر من ذلك، إذ إنك من خلال ما أظهرته من الحدب على الأشراف وسواهم من سكان بلاد ما وراء النهر حررتهم من الأيدي الجائرة لمغول منغوليا وخلصتهم من العبودية لهم؛ ولا يخامرني الشك بأن ذراريك سيتسلمون سدة الحكم طوال اثنين وسبعين جيلاً. ولتوضيح هذه الواقعة لا بد لي من أن أذكر أنه حينما غزا تغلق تيمور خان بلاد ما وراء النهر للمرة الثانية وجه لي دعوة ودّية، وبناء عليه توجّهت للقائه،

---

(1) انظر الخطة الأولى، الشرعة.

إلاّ أنه لم يفِ بوعده بتثبيتي والياً على ذلك الإقليم، ووهب تلك البلاد لولده إلياس خواجا، بينما جعلني قائداً عاماً لديه. بيدَ أنه لما رآني مستاء أخرج الاتفاق المحفور على الفولاذ المبرم بين سلفي قاجولي بهادر وقبلاي خان، وكان ينص على أن لقب «الخان» يجب أن يستمر أبداً في سلالة قبلاي خان، بينما يواصل المتحدرون من قاجولي بهادر اتخاذ لقب (سپهسالار)؛ أي القيادة العامة للجيش. وأنه ينبغي عليهم ألا يعارض بعضهم بعضاً على الإطلاق[1]؛ وحينما كان يقرأ هذا الاتفاق على مسامعي من أجل الالتزام بما جاء فيه، قبلت بتعييني قائداً عاماً. لكن لما كانت تنقص إلياس خواجا المهارات اللازمة لتولي الحكم، وأجاز لجنده أن يسلبوا وينهبوا، فقد قصدني سكان بلاد ما وراء النهر[2]، واشتكوا الي من أن المغول قد أخذوا عنوة ما يقرب من ألف من بناتهم العذراوات من سمرقند وجوارها، وأن أتباع إلياس خواجا ومريديه لم يستجيبوا لأوامره. و جاء إليّ من جديد عدد من أشراف ترمذ واشتكوا من أن جنداً أتراكاً قد أسروا سبعين من أخوتهم وأولادهم، وأن هؤلاء جميعاً من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم. وما إن تناهى إلى مسامعي هذا حتى ثارت ثائرتي، فطاردت أولئك اللصوص، وتغلبت عليهم، واستعدت الأسرى. وبسبب ذلك ناصبني المغول العداوة، وحملوا شكاواهم إلى تغلق تيمور خان، ووجهوا له كتاباً مفاده أنني قد شققت عصا الطاعة، ونتيجة لذلك أصدر مرسوماً يقضي بتنفيذ حكم الإعدام بي، وقد وقع هذا المرسوم بين يدي.. وفي ذلك الحين رأيت الحلم المذكور آنفاً.

كان ثمة فأل حسن آخر، إذ كتب لي قريني[3] رسالة قال فيها إنه تجلى له في الرؤيا أن الله سبحانه وتعالى قد عينني خازناً لديه، وأن وزيره المصطفى سيودعني مفاتيح خزنته.. فأغنى هذا الخبر السار أفكاري، وأفلح في إقناعي بتوقع أن يُكتب لي التوفيق والسداد.

وفي إحدى المرات كنت أشعر بضيق شديد جراء الأعمال الجائرة التي كان يرتكبها المغول، ولم أكن أعلم ما يتعين علي أن أفعله، فوصلت إليّ الرسالة التالية من قريني: «حفظكم الله ورعاكم، لقد تجلى لي في الرؤيا رسول رب العالمين، وقطع العهد بأن يجعلكم وليه في الأرض، ويقدّم الدعم لكم، وإذاً فلا يداخلنّكم الخوف، ولا تقنطوا لأنه معكم».

وقد شعرت بحبور بالغ إزاء هذه الرسالة، وأصبحت أشد مضاء وقوة، على الرغم من أنني كنت أنتظر أن يصل في أي يوم مرسوم تغلق تيمور القاضي بتنفيذ حكم الإعدام بي. وحينما وصل المرسوم بالفعل أرسل إليّ الولي كُلال أمير كيلان نص الحديث النبوي الشريف القائل:

---

(1) انظر الخطة الثانية: الشرعة.

(2) انظر الهامش.

(3) زين الدين أبو بكر التاتيابادي.

«عليك بالهجرة؛ فإنه لا مثيل لها». وبناء عليه فقد فررت قاصداً خوارزم وبرفقتي ستون فارساً، وكتبت رسالة لقريني عرضت فيها حالي، وتلقيت منه الجواب التالي على رسالتي: «ليحفظ الله أبا المنصور تيمور ويرعاه، وليضع القواعد الأربع هذه لسلوكه، وليشمِّر عن ساعد المروءة والشهامة فيُكتب له التوفيق والسداد مدى الحياة، على نحو ما نصت عليه الأحاديث الشريفة:

«أولاً- اعقد العزم وأقدم في كل عمل تشرع فيه أو تباشره أو تأخذه على عاتقك، وتوكّل على الله تعالى، وإياك وأن تفتر أوتتقاعس عن أداء واجباتك.

ثانياً- طوق نفسك بحبل الشرف، ولا تسمح بارتكاب أعمال الزنى والخيانة الزوجية في الأراضي الخاضعة لسلطانك. يحكى أن أنثى طائر الكركي رأت ذات مرة في عشها غراباً صغيراً قد تصادق مع صغارها، فأذنت له بالبقاء طوال عدة أيام وليال، وبعد مدة تجمّع عدد من طيور الكركي وعملت تقطيعاً وتمزيقاً بصاحبة العش بعدما أنشبت مناقيرها ومخالبها فيها.. إن شرف بني البشر يجب أن يتجاوز بكثير شرف الطيور، ولا سيما الأمراء منهم الذين يتحتّم عليهم أبداً أن يصونوا احترام رعاياهم وسمعتهم.

ثالثاً- إياك وأن تهمل التشاور والحصافة والحذر؛ لأن أي دولة ذات سيادة تخلو منها هذه الأمور سرعان ما تدول دولتها وتزول.

رابعاً- ثمة تقليد درج عليه الخلفاء الراشدون، مفاده أن الاستقرار هو أفضل من الاضطراب، وإذاً فلتتحلَّ بالشجاعة والشهامة والمروءة.

إن الله يودع نعمته الإلهية في كل من يسير على الصراط المستقيم»[1].

كان ثمة بشير آخر بحسن طالعي، فقد زارني منجّم ذائع الصيت، وسلمني خريطة البروج الخاصة بي، مشيراً إلى أنه لحظة ولادتي كان اقتران الكواكب ببعضها بعضاً مؤاتياً ويبشر بالخير، ولا ريب في أنه ينبئ عن استقرار حظي السعيد وعهد حكمي ودوامهما؛ وأنني سأبزّ ملوك هذا العصر جميعاً؛ ولسوف تنزل الهزيمة بكل من يناصبني العداء، بينما تزدهر أحوال كل من يصادقني؛ وسأكون حامي الدين، ومحطم الأصنام، وبمثابة الأب لشعبي، وأن المتحدرين من صلبي سيتسلّمون سدة الحكم طوال أجيال عدة، وستزدهر أحوالهم طالما واصلوا دعمهم للدين المحمدي، ولكنْ إذا ما حادوا عن ذلك فسرعان ما سيزول سلطانهم.

---

(1) يروي هنا شاهداً آخر على حسن طالعه بفراره من علي بك، نطالعه في التاريخ. انظر: الشرعة، ولذلك فقد أهمل هنا.

رأيت في ذلك الوقت تقريباً حلماً غير عادي، وهو أنني كنت جالساً على شاطئ البحر، وحاملاً في يدي شبكة صيد كبيرة، وكنت ألقي بها ببراعة، فاصطدت عدداً من التماسيح وسواها من الأسماك الكبيرة.. ولقد فسّرت هذا الحلم على النحو التالي: إن الشبكة هي الأراضي الخاضعة لسلطاني التي ستمتد وتتسع رقعتها على وجه البسيطة، وإن جميع البشر سيصبحون خاضعين لي [1].

ثمة حدث آخر عزز ثقتي بالمعونة الإلهية؛ وهو أنني في الوقت الذي كنت فيه أدنو من جيش المغول الذي كان بإمرة إلياس خواجا بعدما نظمت صفوف القوات الخاصة بي وتشكيلها، وارتديت درعي، وبينما كنت أعكف على دراسة خطة المعركة أزف وقت الصلاة؛ وبعدما أدّيت الصلاة عدت لأنظر في خطة المعركة، ومن ثم اضطجعت في المكان الذي كنت أصلي فيه.. وبعد برهة من الزمن، تراءى لي في الحلم أنني أسمع صوتاً يقول: «تيمور! الظفر والفلاح لك» وحينما استيقظت لم أر أحداً، ولم أجد أياً من خدمي أو مرافقيّ بقربي، وبسبب ذلك كنت على قناعة بأن هذا الصوت الذي أدركته بأذني إنما هو هاتف الغيب أو صادر عن روح غير مرئية، وعرفاناً مني بالجميل سجدت شاكراً الله العلي القدير الحنان المنان.

ومن جملة الحوادث المشجّعة التي وقعت أنه في الوقت الذي غزوت فيه فارس ظهر حاكم فارس الشاه منصور على نحو غير متوقع وبرفقته خمسة آلاف فارس، فطلبت رمحاً، ولكن أياً من مرافقيّ لم يكن على أهبة الاستعداد، فشاهدت على حين غرة رمّاحاً عربي الهيئة واللباس إلى جانبي، فدفع إلى يدي برمح، وقال: «يا رب كن عوناً لتيمور»، في هذه اللحظة سقط منصور شاه عن صهوة جواده، وقابله ولدي شاه روخ وأثخنه بالجراح، وحينما سألت عن العربي لم أجد له أثراً.. إلا أنني أخضعت إقليم فارس.

كان ثمة حادث آخر استثنائي؛ وهو أنني لما أبعدت والي بلخ عن بلاده كتب لي قريني رسالة قال فيها: «ليعتبر تيمور المظفر هذا الأمر بمثابة فأل حسن؛ إذ إن الملاك الحارس لخراسان قد أعطاك مفتاح هذه البلاد ليصبح بين يديك، فحريّ بك أن تحرّر هذه المقاطعة من ظلم السلطان غياث الدين وجوره». وقد امتلأت بهجة وفرحاً بهذا النبأ، وانطلقت من فوري نحو خراسان، وبعد أن عبرت نهر جيحون أخضعت غياث الدين، وظفرت بكل ما لديه من كنوز وذخائر.

ومن جملة الأدلة والبراهين على المعونة الإلهية التي تلقيتها أنّ السيد محمود گيسو دراز[2]

---

(1) لقد ضربنا صفحاً عن حكايتين أخريين؛ لأننا سنطالعهما مرة أخرى في التاريخ.

(2) انظر الملحق الخامس.

زارني وهنأني بأن الأمير سيد علي الحمداني (وهو ولي آخر) كان قد أوفده ليقول لي إن النبي الكريم قد أخذني في كنفه وفي حفظه ورعايته وحمايته من أجل أن أنشر دعوة الإسلام في إقليم الهند المترامي الأطراف. وبعدما تسلمت هذه الرسالة وضعت قوتي في خدمة الأمير سيد علي؛ لأنه وبينما كنت في سمرقند قبل هذه المرة كان قد استخدم عبارات قاسية جداً بحقي، فتأثرت منها كثيراً، لكنه اعتذر عنها لاحقاً. ومع ذلك كنت أخشى أن يكون ما يزال ساخطاً علي، إلى أن وصلت إليّ هذه الرسالة، وحينها أصبحت على قناعة بأن هؤلاء الأولياء لا يوفّرون ملاذاً للخبث والحقد، وبالتالي فقد استعدت روحي المعنوية[1].

وقد شرعت على أثر تلقّي هذه البشارة في إنزال الخراب بمعابد الهند، ونشر الدين المحمدي في تلك البلاد؛ وحينما دمرت معبد كوكيل الذي كان أحد أضخم المعابد في تلك المنطقة حطّمت تماثيله بكلتا يدي. وقبل ذلك كان البراهمة قد جلبوا لي أحمالاً عدة من الذهب، والتمسوا مني أن أكفّ عن إيذاء آلهتهم؛ فقلت لهم: «سأحطم آلهتكم لكي أتيح لها فرصة القيام بمعجزة شفاء نفسها بنفسها». ومن بين تلك التماثيل كان ثمة تمثال بحجم الإنسان توسلوا إليّ ألا أحطمه، حتى إنهم أنذروني بانتقامه مني، قائلين: «من جملة المعجزات التي قام بها أصل هذا التمثال أنّه جعل ألفاً وستمئة امرأة حوامل في ليلة واحدة»، فكان جوابي لهم: «إن الشيطان الرجيم يُضل ويغوي عدة آلاف من الأشخاص في برهة من الزمن، ولذلك فإن هذه المعجزة لا تساوي شيئاً».

ثمة واقعة استثنائية أخرى هي أنني عندما أفعل أي أمر لم أكن لأحفل بما إذا كان الوقت يعدّ مؤاتياً أم مشؤوماً، لكنني كنت أباشر العمل واضعاً ثقتي في الله تعالى، ومع ذلك، كان المنجمون يؤكدون لي دوماً كلما كنت أشرع في أمر أن الساعة ملائمة لهذا الحدث.

الفصل السادس

كان ثمة بشير آخر مشجع جداً هو أنني حينما جعلني تغلق تيمور أهاجم بلاد ما وراء النهر ساورني شك في ما إذا كان يتعين عليّ أن أذهب للقائه؛ فتراءى لي في الحلم أن صقراً جاء وحطّ على يدي، واجتمع من حولي عدد من رؤوس الماشية، وكان وسط الماشية أسد، أمسكت به، ووضعت طوقاً عليه.. كان تفسير هذا الحلم على النحو التالي: كان الصقر يرمز إلى حسن الطالع والسيادة، والماشية تدل على الوفرة والازدهار، والأسد يمثل العاهل الذي ينبغي أن

(1) لربما استقى الراحل تيبو سلطان فكرة أحلامه من هذا العمل. انظر رسائل السلطان التي اعتنى بنشرها الكولونيل كيرك باتريك في عام 1811.

أضع الطوق عليه وإخضاعه، وحين جرى تشجيعي على هذا النحو توجهت للقاء تغلق تيمور خان [1].

حينما فتحت فارس تراءى لي في الحلم أنه قُدّم لي عدد من قوارير النبيذ، وأنني حطمتها بضربة من سيفي، وهذا ما ألحق الضرر بسيفي، وكان تفسير هذا الحلم أنه لا بد من أنني سأعاني بعض الحظ العاثر.. وعلى أثر ذلك هاجمني الشاه منصور على حين غرّة وبرفقته خمسة آلاف فارس، وعلى الرغم من أنني هزمته شر هزيمة، إلاّ أن قواتي مُنيت بهزيمة في الصحراء على يد توقتميش خان، الذي بعدما تناسى فضلي عليه وإعلائي من شأنه ليصبح ملكاً على إقليم قبجاق تحيّن الفرصة وهاجمني على رأس جيش عرمرم تعداده أشبه بقطرات المطر؛ لذلك كتبت له هذه الرسالة: «إن كل من يقابل الخير بالشر لا بد من أنه ولد غير شرعي، ولا ريب في أنه سينال عقابه. ألمْ أمنحك الملجأ والمأوى حينما فررت من أوروس خان، وأطلقتك وجعلتك ملكاً على إقليم. وبما أنك لم تدرك فضلي وإحساني بل اغتنمت هذه الفرصة لتهاجمني فلتطمئن وتتأكد من أنك ستعاني جزاء نواياك السيئة».

وفي ذلك الوقت تقريباً تراءى لي في الحلم أن الشمس طلعت من مشرقها، وبعدما ارتفعت فوق رأسي انكسفت فجأة، ومن ثم تراجعت وغرقت في الشرق.. وكان تفسير هذا الحلم أن الشمس ترمز إلى توقتميش خان، وأنه سيهاجمني وستنزل به الهزيمة، وسيُضطر إلى التراجع سالكاً الطريق ذاتها التي جاء منها. وهكذا فقد هاجمني توقتميش خان ومعه جيش عرمرم، لكن قواتي انقضت عليه بضراوة الأسود وأهلكت جيشه، وعلى هذا النحو فقد نُهبت قبيلة جوجي وفرّت على نحو مخجل، بينما رجعت أدراجي وقد حققت الفلاح والظفر [2].

وحينما هممت بفتح العراق العربي رأيت في الحلم أنني دخلت وادياً شاهدت فيه عدداً من الأسود التي اقتربت مني، وفي الواقع طوقتني. وعندما دخلت ذلك البلد بعدئذ وجدت أن سكانه على الرغم من أنهم من أصل عربي، إلا أن ملامحهم بدت أشبه بملامح الأسود.. ومع ذلك فقد قدموا لي هدايا قيمة، وأخضعت مملكة العراق العربية.

وعندما كنت على وشك أن أفتح بلاد هندوستان، جعلني قادة جيشي بسبب تردّدهم أشعر بالحيرة وأتساءل ما إذا كان يتعيّن علي أن أتوجه إليها.. حلمت بأنني كنت في حديقة كبيرة وشاهدت عدداً من الأشخاص يقلمون الأشجار، وينثرون البذور، وتلك الحديقة كانت حافلة

---

(1) يروي هنا حلمين آخرين يتصلان بكل من أخي زوجته الأمير حسين وتوكل بهادر، اللذين يتناولهما في التاريخ، ولسوف نسردهما لاحقاً.

(2) جوجي أو جوشي ويدعى أيضاً توكي، وهو الابن الأكبر لجنكيزخان، وقد توفي قبل والده بستة أشهر، ولكن أبناءه سادوا على مملكة القبجاق بوصفها جزءاً من الأراضي الخاضعة لسلطانهم.

بالأشجار الكبيرة والصغيرة على حد سواء، وفوقها بنت الطيور أعشاشها، وخلت أنني أحمل مقلاعاً في يدي، وأنني دمرت هذه الأعشاش بحجارة من المقلاع، وأبعدت الطيور جميعاً.. وقد تحقق هذا الحلم عندما تملكت هذه البلاد من خلال إقصائي السلاطين جميعاً، واستيلائي على المملكة.

وحينما غزوت سورية مرة أخرى انضمت جيوش كل من مصر والقسطنطينية إلى السوريين، وفي تلك المناسبة جاء الأعيان إليّ وقالوا لي وقد استبد بهم اليأس والقنوط: «إن الدخول في صراع مع ثلاث دول، وإلحاق الهزيمة بثلاثة جيوش، يتطلبان قوات أعظم مما لدينا».. ثم أقمت الصلاة، وبعدما استغرقت في النوم لمدة وجيزة حلمت أنني كنت أصعد جبلاً، ولما بلغت قمته غمرتني سحب سوداء وبيضاء، ووقعت في خضم زوبعة من الغبار، تلا ذلك وابل من الأمطار الغزيرة، التي سرعان ما بدّدت الغبار.. وفسر العلماء في بلاطي الحلم على هذا النحو: «إن الجبل هو مملكة سورية، والغيوم السوداء والبيضاء هي جيوش مصر وسورية، والمطر هو جيش جلالتكم، الذي سيهلك أعداءكم عما قريب ويحسم تلك الاضطرابات كلها». وقد وضعت كثيراً من الثقة في حلمي، وثابرت على ما عزمت عليه، وسرعان ما أنزلت الهزيمة بجيوش سورية ومصر، وكان الظفر والفلاح حليفي.

وعندما هاجمني السلطان العثماني بايزيد الأول وبرفقته أربعة آلاف محارب، وكانت هتافات الروم وصيحاتهم مفرطة في الارتفاع، ناجيت الرسول وأهل بيته، وأقمت الصلاة في تلك الليلة، وحلمت أنني كنت أجوب القفار، فرأيت عدداً من الأشخاص من جميع الأطراف، وحينها لاحظت نوراً عظيماً يلوح في الأفق؛ فاتّجهت نحوه، لكن اعترضتني ثلاثة أكوام من التراب سقطت أمامي، وارتفع منها لهب عظيم؛ كما أنني شاهدت خمسة أشخاص، وبعد أن تشابكت أيديهم تقدموا أمامي، ومنذ أن شاهدت هؤلاء الأشخاص تملكني شيء من الرهبة والفزع، وسمعت أحدهم يقول: ذلكم هو النبي الذي سوف يذهب وصحابته إلى الجنة. عندئذ حثثت الخُطى، وبعدما أدركتهم، قدمت فروض الطاعة والولاء لمحمد صلى الله عليه وسلم وقد أشار النبي إلى أحد صحابته الأربعة وكان يحمل بيده هراوة، بأن يعطيني إياها، وما إن تناولتها في يدي حتى أصبحت شديدة الطول. وعندما استيقظت من نومي وجدت أن هذا الحلم قد بعث في نفسي البهجة والحبور، وأصبحت أكثر جرأة وأشد بأساً، وتلقيت العون من لواء علي الأبيض. ونتيجة لهذا الحلم كنت قادراً على انتزاع مملكة الروم من السلطان العثماني.

بعد ذلك حينما استذكرت ما كنت قد كابدته من كدّ ومشقة في إخضاع العديد من البلدان في العالم متوسلاً بالشجاعة والبأس، وأفكر في ما إذا كان من المحتمل لحسن طالعي وسلطتي

العليا أن يستمرا، وكنت توّاقاً لاكتشاف أيّ من أبنائي أو أحفادي سينصّبه الله تعالى على عرشي من أجل الحفاظ على شهرتي ومجدي.. وبعد مدة وجيزة تراءى لي في الحلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال لي: «إن اثنين وسبعين فرداً من ذراريك سيصبحون حكام الأرض».

وما زلت تواقاً للوقوف على هذا الموضوع إلى أن تراءى لي في الحلم أنني كنت جالساً تحت شجرة وارفة الظلال، تحتوي على عدد لا يحصى من الأغصان والأوراق، تناطح قمتها عنان السماء، وكانت تتساقط من أوراق هذه الشجرة وأغصانها أنواع مختلفة من الثمار مثل وابل من الأمطار الغزيرة، وأحاطت بالشجرة فوراً كل أنواع الزواحف والطيور والماشية وسواها من الحيوانات، وشرعت في تناول تلك الثمار بنهم. بعدئذ هاجم بعضها بعضاً بعنف مستخدمة في ذلك مخالبها ومناقيرها. وعندما تذوّقتُ هذه الأنواع المختلفة من الثمار وجدت بعضها حلو المذاق، وبعضها الآخر حامضاً أو مراً أو لا طعم له، وفي هذا الوقت سمعت صوتاً ينادي: «تلكم هي الشجرة التي زرعتها بنفسك».. وحينما استيقظت شرح المفسرون الحلم على هذا النحو: «إنَّكَ الشجرة، أما الأوراق والأغصان فهم ذريتك الذين سيكونون المؤيِّدين لدولتك وسلطتك العليا، ولسوف يفيدون البشرية بما يقومون به من أعمال الخير والبر والإحسان».

الفصل السابع

حينما تأملت في الماضي في وقت آخر داخلني شعور بالندم والخجل من كثير من الأعمال التي صدرت عني والأقوال التي تفوّهت بها، وسرعان ما حلمت بأنني كنت جالساً في صحراء نمت فيها النباتات الشوكية على نحو مفرط، وأنني كنت محاطاً بالكلاب والخنازير والشياطين، وبرجال ونساء لهم هيئات تبعث على الخوف والذعر. فاستبدّ بي خوف شديد من مظهرهم إلى درجة أنني استيقظت، وقد أحدث هذا الحلم فيّ تأثيراً كبيراً، فما كان مني إلا أن كتبت رسالة إلى قريني [1] تتضمن تفاصيله، وتلقّيت منه الجواب التالي: «ما تراءى لك في الحلم كان تمثيلاً لعيوبك وأعمالك الشريرة كالاستبداد، والغضب الشديد، والشهوة، وما أنزلته من ضرر وأذى بمخلوقات الله تعالى، وجشع، وحسد، وزهوّ وخيلاء، وكلها من أسوأ الصفات؛ وعليك إذاً أن تبدل تلك العادات، ولسوف تُكافَأ على ما تؤديه من أعمال جيدة وما تتصف به من أخلاق فاضلة». ونتيجة لهذه النصيحة فقد امتنعت منذ ذلك الحين عن إلحاق الأذى والضرر ببني البشر، وأحجمت عن إلقاء بذور العداوة والشقاق بينهم.

---

(1) المرشد الروحي.

وقد رأيت في حلم آخر بأنني دخلت حديقة مليئة بالزهور والأعشاب العطرية، وكانت تحتوي أيضاً على كثير من أشجار الفاكهة والجداول الجارية، ويقيم فيها شبان وسيمو المحيا ومغنون أصواتهم ساحرة، وفتيان وفتيات جميلو الطلعة كذلك، وكانوا يأتون جميعاً ليقدموا لي فروض الطاعة. فسُررت بهم أيّما سرور، وغمرني السرور بهذا الحلم إلى درجة أنني كتبت من جديد رسالة لقريني تتضمن تفاصيل الحلم كافة، فأجابني برسالة قال فيها: «لتشكرنَّ الله عز وجل لإظهاره لك صورة مآثرك وأعمالك الخيرة، ولتعلمن أن النبي صلوات الله وسلامه عليه قد قال: «الإنسان عند ولادته يحضره شيطانان»؛ وقد أتياني أيضاً، ولكني بنعمة الله العزيز القدير قهرتهما، لذا يتعيّن على الإنسان أن يهتدي بهدي النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن يسعى لإخضاع ما لديه من مشاعر بهيمية ووحشية، وأن يغرس في نفسه الصفات الحميدة والأخلاق الجديرة بالثناء التي بوساطتها يمكن أن يبلغ السعادة الأبدية.. أستودعكم الله».

وفي الوقت الذي عقدت العزم فيه على الجهاد ضد الكفار في الصين، وبعدما أعددت العدة لذلك وتقدمت من سمرقند ساورني الشك في ما إذا كانت حياتي ستستمر إلى أن أحقق هذا الهدف الذي كنت أطمح في الوصول إليه، وعما إذا كان ينبغي لي أن أشرع في هذه الحملة المقدسة، أو أن أضرب عنها صفحاً؛ فحلمت أنني قد تسلقت شجرة باسقة، وأنني كنت جالساً على أحد أغصانها العديدة عندما انكسر ذلك الغصن وسقطت على الأرض، واعتقدت أيضاً أنني كنت أحمل إناء من النبيذ فوق رأسي، وبينما كنت أسير على الطريق، وقع الإناء فجأة وتحطم وأهرق النبيذ، بعدئذ خلت أن والدي طرقاي قد أخذني من يدي وذهب بي إلى مرج، وبعد أن تركني هناك رحل؛ وقد شرح المفسرون هذا الحلم على نحو لم يكن مرضياً، ولذلك فقد استسلمت للعناية الإلهية.

في ذلك الوقت تقريباً حلمت أيضاً أنني كنت في صحراء مخيفة، وأنني كنت وحيداً تماماً فيها، ولكنني بعدما اجتزت بعض المسافة، بلغت سهلاً أخضر تتوسطه حديقة، فدخلت الحديقة ووجدتها تبعث على البهجة والسرور، فقد كانت تضم بين جنباتها ينابيع وجداول من المياه النقية، وأشجاراً تسكنها طيور تغرد بصوت شجي. ووسط الحديقة شاهدت قصراً منيفاً، وكان هناك رجل جليل المظهر يجلس على عرش في قاعة ذلك القصر، ويقف عن يمينه ويساره العديد من العاملين لديه، وكانوا يحملون في أيديهم القرطاس والقلم، وأمامهم بضعة مجلدات.. وسألت ما الذي يكتبه هذا الرجل، فجاءني الجواب: لقد دونت في هذه المجلدات مصير ومدة حياة البشرية جمعاء، وتمنّيت أن أتحقق كم سيطول العمر بي، وما هو المصير المقدَّر لي، لكنني أفقت من حلمي هذا.

وإبان اجتياحي ولاية فارس التحق أهالي شيراز بمنصور شاه، وبعدما انضموا إليه نفذوا حكم الإعدام بالوالي الذي كنت قد نصّبته عليها، ولذلك أمرت بتنفيذ مذبحة عامة بحق أهالي شيراز. عندها زارني السيد أبو إسحق التقي الورع وناشدني أن ألغي ذلك الأمر القاسي، لكني لم أصغ إلى مناشدته. وفي الليلة ذاتها تراءى لي في الحلم النبي صلوات الله عليه، الذي عبس في وجهي، وقال: «لقد قصد واحد من ذريتي بلاطك وطلب الشفاعة لعدد من الجناة، فلماذا لم تأبه بتلبية مطلبه وأنا سأشفع لك يوم القيامة؟» وحينما استيقظت أدركت الخطأ الذي ارتكبته، فامتطيت جوادي فوراً وانطلقت إلى مقر إقامة السيد، والتمست منه العفو والصفح. كما أنني وضعت حداً فورياً للمجزرة، وأمرت بأن تلحق شيراز في المستقبل بالخزانة الملكية، وبأن يُجرى مخصَّص سنوي لعدد من السكان. ومنحت أيضاً الخواجا محمود منطقة مهرغان، وأنعمت عليه بلقب. ومن ثم أخذت على نفسي عهداً بأنني لن أرفض مرة أخرى التماساً من أحد الأشراف، وأنني لن أقصر في إبداء الاحترام لهم، وإنما سأجلُّ على الدوام أهل بيت النبي محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام؛ ولما كنت على قناعة بواجب مد يد العون لهم ومصادقتهم فإنني سأحسن لهم أكثر فأكثر.

ولقد أبلغت قريني بهذه التفاصيل كلها، فكتب من فوره حاشية على رسالتي: «أسأل الله تعالى أن يلبّي لك كل أمنياتك، وأن يثبت بأن هذه العبرة ذات يمن وخير وبركة ويعم بنفعها أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم بشفاعة محمد والعناية الإلهية، وبطاعة أوامر الله عز وجل، ولوجه الله تعالى يتعين عليك أن تصادق هذه الطبقة، ألا ترى أنك بإجلالهم وإبداء الاحترام لهم تنزل البركة على ذريتك. وطالما أن سلوك هؤلاء سيكون قويماً فقد يحدوهم الأمل في الحصول على المعونة في هذا العالم والعالم القادم، فلتزيدنَّ في إحسانك إليهم أكثر فأكثر؛ إذ إن سبيل الخلاص وطريق النجاة هي في اتباع الهدى».

بيد أنه من بين كل البشائر التي تنبئ بعظمتي في المستقبل، وأدخلتِ السرور الأكبر إلى قلبي، وبعثتِ الثقة بمعونة الحضرة الإلهية في نفسي، كانت واقعة أخبرني بها والدي طرقاي، الذي قال لي: «حلمت في وقت سابق لميلادك أنّ إنساناً ذا طلعة بهية يشبه في مظهره الخارجي ولباسه العرب، قدَّم لي سيفاً معقوفاً مجرداً من غمده، وحينما بدأت المبارزة به تطايرت منه شرارات عديدة أضاءت الأرض كلها، وبعد ذلك اندفعت من يدي نافورة فغمرت الجوَّ بالماء الذي كان يتساقط بقطرات كبيرة على الأرض. وبعدما التمست المشورة من المفسرين شرحوا لي حلمي على النحو التالي: إن أحد أبنائك سيكون سيفاً يُخضع العالم، ولسوف يطهّر الأرض من الدنس، وينشر الدين الحق على الكرة الأرضية كلها، ويفيد البشرية عامةً، وتكون ذريته والأجيال القادمة من صلبه عديدة».

ولقد بعث هذا الفأل في نفسي البهجة والحبور إلى أبعد حدّ؛ وكنت على قناعة بأن السيادة والسؤدد مكتوبان في صحيفة قدري، إلا أنني عقدت العزم على أن أكون قانعاً بكل ما يعرض لي من خير أو شر، وأن أرضى بأحكام العناية الإلهية.

مذكرات تيمور

السفر الخامس: استهلال التاريخ

الفصل الأول

روى لي والدي طرقاي الحدث التالي المتصل باسمي: «على أثر ولادتك اصطحبت أمك الفاضلة لنقدم فروض الاحترام الواجبة للولي الشيخ شمس الدين، ولمّا دخلنا داره كان يتلو بصوت مرتفع السورة السابعة والستين من القرآن الكريم، ويردّد هذه الآية الكريمة: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ [الملك: 16]. عندئذ توقف الشيخ وقال: «لقد سمينا ولدكما تيمور[1]».

وقد أدخلت هذه الحكاية البهجة إلى قلبي، وحمدت الله وشكرته على أن اسمي كان مستقى من كتاب الله؛ بل إنه كان حافزاً كبيراً لي على استظهار هذه السورة.

ولما بلغت من العمر سبعة أعوام أخذ والدي بيدي، ودفع بي إلى الكتّاب، وعهد بمسؤوليتي إلى المُلا علي بك، وبعدما كتب المُلا حروف الأبجدية العربية على لوح من الخشب وضعه أمامي، فسررت لذلك أيّما سرور، وعددت نسخه بمثابة ضرب من ضروب المتعة والتسلية.

وعندما بلغت من العمر تسعة أعوام، تعلمت الشعائر الدينية اليومية التي تقام في المسجد، وفي غضون ذلك كنت أقرأ على الدوام السورة الحادية والتسعين المشهورة باسم (الشمس).

وفي أثناء الجلوس في قاعة الدرس كنت أتخذ الكرسي الرئيس مقعداً لي، وكثيراً ما كنت أتخيل نفسي قائداً لسائر الفتيان. وفي أحد الأيام دارت محادثة بشأن أفضل طريقة للجلوس، وقدم كل فتى إجابة على هذا السؤال، وحينما جاء دوري قلت إن أفضل طريقة هي الجلوس على الركبتين؛ إذ إن محمداً أمر: «لا يبرك أحدكم كما يبرك البعير، وليضع يديه قبل ركبتيه»، فأثنى جميع الحاضرين علي كثيراً. وحينما خرجنا من المدرسة بدأنا نلعب بوصفنا أطفالاً، ولكنني اضطلعت بدور القائد، فكنت أقف فوق تل مرتفع، وبعد أن أقسمهم إلى جيشين أدفعهم الى خوض معركة زائفة، وعندما أرى أن أحد الطرفين قد مني بالهزيمة كنت أمدّ يد المساعدة له.

---

(1) انظر الملحق السادس. وكذلك الترجمة التي أنجزها سيل Sale للقرآن الكريم، ص 437.

وفي الثانية عشرة من عمري خُيّل إليّ أنني أمتلك الحكمة وكل صفات العظمة، وكنت أستقبل كل من جاء لزيارتي بكثير من التبجيل والوقار.

في ذلك الحين انتقيت أربعة رفاق ودودين وصاحبتهم باستمرار، وحينما تحققت لي السيادة تذكرت دعاواهم، فضلاً عن دعاوى سواهم من زملائي في اللعب ومعارفي، ورفعت قدر كل منهم بحسب مايستحق.

وبفضل النعمة الإلهية، ومنذ أن كنت في التاسعة وإلى أن بلغت من العمر إحدى وسبعين عاماً، لم أكن أتناول طعام العشاء وحيداً على الإطلاق، ولم أخرج من دون صديق أبداً، وكلما ارتديت ملابس جديدة كنت حين أخلعها[1] أعطيها لأصحابي؛ ولم أكن أرد لهم طلباً على الإطلاق، وإنما كنت ألبّي لهم كل ما يطلبونه من دون توسّل مخزٍ.

في سن الرابعة عشرة كنت قد أقمت صداقة حميمة مع شاب شديد الوسامة، وقضيت جزءاً كبيراً من وقتي مع قبيلته؛ وكان يدرك تعلقي به، ويظهر عاطفة كبيرة نحوي. وفي برهة من الزمن سمح لوغد بذيء اللسان من بلاد ما وراء النهر يدعى مُلاجي كان يتخذ مظهر الطالب أن يكون في عداد دائرة معارفنا، وأن يفتتن بذلك الشاب. ولمّا كان هذا المرء رفيقاً مسلياً فقد كنت مسروراً به، وهذا ما جعله على جانب عظيم من الخيلاء، واعتاد أن يتحدث بطريقة حميمية وفاحشة: وفي أحد الأيام وبعدما قبلنا به في مجتمعنا سمعت الغلام مصادفة يقول له بنوع من رفع الكلفة: «لا أريد قبلاتك»، وقد أغاظتني هذه الكلمات بشدة، وعقدت العزم على عدم السماح بسلوك غير لائق من هذا القبيل، سواء لديّ أم لدى سواي.

وفي السادسة عشرة من عمري أخذني والدي من يدي، ورافقني إلى (الخانقاه) التي كان يقيم فيها، وخاطبني هناك قائلاً: «أي بني! لقد تعاقب أسلافنا جيلاً بعد جيل على تولّي قيادة جيوش أسرتي جغطاي وبرلاس.. وقد آل منصب قائد الجيش إليّ الآن، ولكني سئمت من هذا العالم، ولا أراه أفضل من إناء ذهبي مليئ بالأفاعي والعقارب، ولذلك أعتزم الاستقالة من منصبي الحكومي واعتزاله من أجل التمتع بمباهج الهدوء والاسترخاء، ولكن بما أنني بنيت هذه القرية، وشيّدت هذه (الخانقاه) وجعلتها وقفاً على نفسي لأخلّد شهرتي وشهرة أسرتنا، فلا بد لي من أن أطلب منك على وجه الخصوص ألا تقلل من إيراداتها أو امتيازاتها».

ومن ثم روى لي والدي نسب أسرتنا الذي يمتد إلى طومان خان، ويرتقي نسبه إلى يافث بن نوح[2]، وأردف قائلاً؛ «أما أول من نال شرف اعتناق الإسلام من أسرتنا فهو قراجار نويان.

---

(1) يقال إن الأفغان لا يبدّلون ملابسهم إلى أن تبلى.

(2) انظر المقدمة.

وكان كوركان صهر جغطاي خان، ولما كان رجلاً عاقلاً، فإنه اعتنق دين محمد بمحض إرادته، وقال لأهل بيته والناس: «حينما أجيل النظر في هذا الكون لا أرى سوى عالم واحدٍ، ومع ذلك فإنني من الرأي القائل إن هناك عوالم أخرى إلى جانب ذلك [1]. إلاّ أنني علَى قناعة أيضاً بأن إلهاً واحداً فقط خلق كل هذه العوالم، وهو كافٍ لحكم هذه العوالم جميعاً وتوجيهها؛ ولكن بما أنه وقع اختياره على هذا العالم ليكون الأرض الخاضعة لسلطانه الخاص، فقد اعتبر أنه من الضروري أن يكون هناك وزراء لإرشاد البشرية، ولذلك اصطفى محمداً ليكون وزيره في هذا العالم، ولما كان لزاماً أن يكون لدى محمد وزراء لنشر دينه الحنيف فقد عين سلالات مقدسة من الخلفاء في هذا المنصب الرفيع».

«والآن يا بني، بما أن هذا الكلام عن سلفنا هو مطابق تماماً لرأيي، فقد أصبحت أيضاً مسلماً صادقاً مخلصاً، فأرجو يا تيمور:

أولاً- أن تقتدي بأسلافك المشاهير في الامتثال لدين محمد الحنيف صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وأهيب بك ألا تخرج على شريعته وألا تخالفها على الإطلاق، وأن تحترم وتجلّ أهل بيته وأتباعه المجسَّدين في السادة الأشراف والعلماء ورجال الدين، وأن تتخذهم رفاقاً لك، وتلتمس البركة باستمرار من الدراويش والزهاد والصالحين في كل ما تقوم به من أعمال، وأن تنصاع لأوامر الله، وتشفق على مخلوقاته.

ثانياً- أن تعزز دين النبي وتنشره وتعاضده.

ثالثاً- أن تؤمن بأننا جميعاً عباد الله، وأنه استخلفنا لكي نعمر الأرض، وأن مصائرنا مقرّرة سلفاً، وكل ما هو مكتوب على جباهنا لا بد وأن يقع لنا، ولما كان أمراً مقضياً أننا جميعاً سوف نفعل كذا وكذا، ولا نملك القدرة على الانعتاق من هذا العالم، فإننا يجب أن نقنع بما سوف ينتهي إليه مصيرنا، ونرضى بما قسم الله لنا. وينبغي علينا أيضاً أن نمد يد المساعدة لأخواننا الفقراء، وأن نبذل باستمرار كل ما في وسعنا لمصادقة مخلوقات الله جميعاً، وأن نعترف دوماً بوحدانية الله، ونقوي بممارستنا الأركان الأربعة للشريعة: الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة.

رابعاً- أن تكون محباً لذوي قرباك، ولا تلحق الضرر بأحد، وألا تحافظ إلا على أواصر العطف، وألا تحرم أي إنسان من حقوقه بالتدليس أو الطغيان؛ وأن ترتدي ثوب العدالة، وتتجنب رفاق السوء والأشرار، وألا تسجن إنساناً أكثر من ثلاثة أيام، وأن توزع المؤونة على الفقراء والجياع، وترسخ محبتك في أفئدة رعاياك عن طريق عمل الخير، وإلا فستنهار سلطتك وينحسر ازدهارك».

---

(1) انظر الملحق السابع.

وحينما فرغ والدي من خطابه عاهدته بأن أتبع مشورته بإخلاص وأستجيب لنصيحته.

وعندما بلغت السابعة عشرة من العمر، وبما أن والدي لم يعد يحفل بالشؤون الدنيوية، وباتت صحته في حال حرجة، فقد أخذت على عاتقي مسؤولية النهوض بأعباء شؤونه الخاصة، واتخذت الترتيبات التالية: شكلت من كل مئة خروف قطيعاً منفرداً، وعيّنت راعياً لكل قطيع، على أن يكون نصيبه من الأرباح الربع من الحليب والزبدة والصوف؛ وفعلت الشيء نفسه مع الماعز، ففصلت بين الذكور والإناث؛ وبطريقة مماثلة خصصت لكل عشرين جواد إسطبلاً، وفصلت بين ذكور الخيل وإناثها؛ وكذلك الجمال بالطريقة ذاتها.

ومن جملة البشائر المختلفة التي تنبأت بعظمة مستقبلي وأفضت أكثر من سواها إلى رفع آمالي أنني ذهبت في أحد الأيام لتقديم فروض التحية والاحترام الواجبة للولي السيد كُلال. وعندما دخلت عليه مجلسه جلست عند العتبة حيث تُخلع النعال، فنظر الوليّ إلي قائلاً: «على الرغم من أن هذا الغلام يبدو شاباً في مقتبل العمر، إلا أنه شخصية عظيمة الشأن حقاً» ومن ثم أفسح لي المجال لأجلس بجانبه. وبعدما تفرس فيّ وتحدث إلي لبعض الوقت غطّ في سبات، وبعد أن استيقظ قدم له أحد خدمه صينية من الكعك والحلوى، فمدّ يده، وبعدما أخذ سبع قطع من الكعك والحلوى ناولني إياها وقال: «تناول لقمة من كل منها، ونتيجة لذلك ستخضع لسلطانك أقاليم الأرض السبعة»[1]، وقد اعترتني الدهشة حين سمعت كلامه هذا، وتبادل الحضور النظرات، ومن ثم حدّقوا بي، لكنْ بسبب الرهبة التي أشاعها الوليّ لم يجرؤ أي منهم على الكلام، لذلك أخذت قطع الكعك، وحملتها إلى والدي الذي قال لي: «إن كلال هو شخصية عظيمة من نسل النبي صلى الله عليه وسلم، ويرى الرؤى، ويصنع المعجزات، وكل ما قاله لك عن رؤاه لا محالة سيتحقق؛ فاعتنِ بقطع الكعك هذه، ولا تعطِ أياً منها إلى أحد، وإنما اعتبرها أكبر نعمة من النعم التي يُسبغها قدَّسَ اللهُ سرَّه عليك».

وبعد ذلك الحدث ببعض الوقت اصطحبني والدي لتقديم فروض التحية والاحترام الواجبة للولي الذي قال له: أيها الأمير!

[في ما يلي سطر باللغة التركية الجغتائية]

في ذلك الحين كانت أمامه سلة من المكسرات، فأمر والدي أن يحصي عددها، وبعد أن أحصاها أخبره أن هناك ثلاثمئة وسبعين قطعة من المكسرات، فقال الولي: «كل قطعة من هذه المكسرات البالغ عددها ثلاثمئة وتدل على سنة، وما تبقى هو عدد الأجيال القادمة من نسل تيمور الذين سيتربعون على سدة الحكم طوال ثلاثمئة سنة».. ثم قدم السلة لأبي، فتناولتها

(1) اعتبر العديد من أولئك الأولياء مختلين عقلياً، ولكن نبوءاتهم لم تكن الأقل صدقية.

ووضعت المكسرات مع الكعك. وعندما ذكرتُ ما جرى لوالدتي أخذت رأسي بين يديها وباركتني. وقد بقيت قطع الكعك والمكسرات في حوزتي عدة أعوام، وطوال ذلك الوقت تعاظم توفيقي وسدادي.

ذهبت والدتي أيضاً بعد مرور بعض الوقت على قضية المكسرات لتقديم فروض التحية والاحترام الواجبة للوليّ، فأحسن وفادتها، وقال لها أخيراً:

[وفي ما يلي شعر باللغة التركية الجغتائية]

«إن سبعين من أبناء تيمور، وأحفاده، وذراريه سيتربعون على سدة الحكم مدة ثلاثمئة سنة، شريطة ألا يحرفوا الديانة المحمدية، بل عليهم أن ينشروا العقيدة الإسلامية؛ وألا يثيروا الحنق لدى أهل بيت رسول الله، و ألاّ ينزلوا بهم الضرر، بل أن يبذلوا قصارى جهدهم للفوز برضا الرسول من أجل البركة التي أسبغها على البشرية، ولسوف يغدق عليهم مزيداً من الفضل والتوفيق والسداد، طالما أنهم ما برحوا يظهرون العطف تجاه ذوي قربى الرسول الكريم وأهل بيته».

وحينما نقلت لي والدتي الحديث الذي دار بينها وبين الولي، وعلى الرغم من أنني كنت في السابعة عشرة من العمر فحسب، فقد عاهدت الله تعالى بألاّ أهمل أهل بيت الرسول أبداً، بل أن أبذل كل ما في وسعي من أجل تكريمهم وإجلالهم.

الفصل الثاني

عندما بلغت من العمر ثمانية عشر عاماً أصبحت مزهواً بما لديّ من قدرات، وحسبت أنه ما من شخص يبزّني، وما من أمر أعجز عن القيام به. كنت في ذلك الحين شديد الولع بركوب الخيل والصيد، وفي أحد الأيام كنت أطارد غزالاً، وبينما كنت أعدو على صهوة جوادي بأقصى سرعة بلغت فجأة شفا حفرة يبلغ عرضها أكثر من خمسة گز (عشرة أو خمسة عشر قدماً)، وعمقها أربعة گز، فحاولت أن أوقف جوادي لكنه كان جموحاً، لذلك حاولت إرغامه على القفز فوق الحفرة، فبلغ الحافة المقابلة بقائمتيه الأماميتين، إلا أنه لم يتمكن من القفز فوقها فسقط، وبينما كان يقاوم حرّرت قدميّ من الركائب، وقفزت من فوق السرج حتى بلغت الطرف الآخر، وهوى الحصان في الحفرة، وبات عاجزاً عن الحركة؛ وسرعان ما دنا مني رفاقي، وهنؤوني على حسن طالعي ونجاتي السعيدة؛ فقلت: «إن الله تعالى مَنْ صانني وحفظني، وهو من يهب الحظ»، وحين لم يتمكن أصدقائي من القفز فوق الحفرة عدت باتجاهم، وبعدما ركبت جواداً سهل القياد قفلنا عائدين نحو منازلنا. وبعد أن قطعنا مسافة حل الظلام، وبدأ المطر

بالتهطال، ونتيجة لذلك ضللنا طريقنا، ولما كانت تلك الليلة شديدة البرودة فقد ظننا أننا سنلقى حتفنا في الصحراء بالتأكيد.

في ذلك الوقت تقريباً شاهدنا بعض الخيام أو الأكواخ السوداء المصنوعة من اللباد التي قال رفاقي عنها: «تلكم هي تلال من الرمال والغبار»، وهكذا استسلمنا لضياعنا. لذلك فقد لجمت جوادي، وقبضت على شعر عنقه، فرفع الجواد رأسه وبدأ بالصهيل، ومد عنقه. وحينما وصلنا قرب الخيام رأينا ضوءاً يتألق من أحد الأبواب، مما منحنا الشجاعة، لذلك ترجلت عن صهوة جوادي ودخلت الخيمة، فحسب قاطنوها أنني لص، فصاحوا بي وتهيّؤوا لمهاجمتي؛ لكن عندما أخبرتهم بكل الأحداث التي مررت بها شعروا بالخجل، وبعد أن أخلوا غرفة مبنية تحت الأرض أضرموا النار لنا، عندئذ دخل رفاقي إلى هذه الغرفة، وسرعان ما جلب لنا هؤلاء الأناس الطيبون بعض الحساء الذي تناولت كمية كبيرة منه، وشعرت بالانتعاش إلى حدّ بعيد؛ كما جلبوا لنا بعض الدثر التي اضطجعنا عليها، لكنها كانت مليئة بالبراغيث، فلم تغمض لي عين طوال الليل. وبعدما ارتقيت العرش الإمبراطوري تذكرت كل الأحداث التي مررت بها أثناء رحلة الصيد هذه، والبرد والصقيع في ذلك الليل، ومبيتنا في ذاك القبو، ونتيجة لذلك فقد أرسلت في طلب أفراد تلك العائلة وأنعمت عليهم بلقب طرخان، أي أنني كافأتهم بما فيه الكفاية.

انتابني إبان هذه السنة مرض شديد استمر أربعة أشهر، ولم يوقف أي علاج ذلك الاعتلال الذي أصابني، لذلك انقطع رجائي من الحياة. وطوال أسبوع لم أستطع أن أتناول شيئاً. لكن في اليوم السابع قدموا لي رماناً، وبعدها بمدة وجيزة أصبحت ضعيفاً جداً وفاقداً للوعي. وبينما كنت مغمى عليّ تراءى لي أنهم شدوا وثاقي إلى عجلة، وأنهم كانوا يحملونني نحو السماء، ومن ثم هبطوا بي إلى الأرض؛ ولم أتخلص مما انتابني، حتى أحرقوا ما بين السبابة والإبهام في يدي، وحينما شعرت بحرارة الحديد فتحت عيني، وشاهدت الخدم ووالدي ووالدتي يقفون من حولي وقد أجهشوا بالبكاء بصوت عالٍ، فانضممت إليهم في النحيب. وسرعان ما شعرت بالجوع، وبعدما سأل الأطباء عما أود تناوله، قدموا لي الحساء وبعض الأطعمة، فتناولتها كلها، وأثناء الليل تعرقت كثيراً، ومنذ ذلك الحين تماثلت للشفاء.

ومن جملة البشائر الميمونة التي تنبأت بسيادتي أنني في أحد الأيام من ذلك العام كنت جالساً في خانقاه والدي أتلو السورة السابعة والستين من القرآن الكريم [1] عندما دخل عليّ شريف وقد اشتعل رأسه شيباً، وبعد أن أمعن النظر في وجهي طلب معرفة اسمي، وبعدما ذكرته

---

(1) انظر الملحق السادس.

له قارن بينه وبين الآية الكريمة التي كنت أتلوها، وقال: «لقد استخلف الله سبحانه وتعالى هذا الغلام وذريته من بعده في الأرض»، فنظرت إلى هذه الحادثة على أنها مجرد حلم، ولكن حينما بلغت مسامع والدي، وطد الآمال لدي، وأظهر خريطة بروجي لأحد المنجمين من تركستان الذي قال: «إنه سيبزّ أياً من أسلافه في المناطق الخاضعة لسلطانه الخاص، من حيث المنزلة والسلطة، ولسوف يضيف إلى الأراضي الخاضعة لسلطانه أمصاراً أخرى، ولسوف يكون مفخرة للدين»، ومن ثم قال لي: «سيبلغ المتحدرون من صلبك وذراريك من المكانة ما لم يبلغه أحد»، وعندما سمعت هذه الكلمات، أجزلت له العطاء.

كنت في تلك المدة أقضي جل وقتي في قراءة القرآن الكريم ولعب الشطرنج؛ كما كنت منهمكاً في الأعمال الخيرية والتماس البركة من النساك والدراويش.

لما كنت مولعاً بالفروسية، فقد وظّفت معلماً لركوب الخيل ذائع الصيت ليعلمني هذا الفن، وليرشدني في علم المناورة الحربية أيضاً؛ وكثيراً ما كنت أجمع أصحابي بعدما اتخذت لنفسي لقب القائد وجعلتهم يدينون لي بالطاعة؛ وكلما كنا نركب الخيل اعتدت أن أقسّمهم إلى جيشين، وعلمتهم الكر والفر في ساحة المعركة.

الفصل الثالث

طلبت من والدي، في ذلك الوقت تقريباً أن يروي لي تاريخ أسرتنا منذ زمن يافت آغلان، وهذا ما أخبرني به على النحو التالي تقريباً:

«كان مكتوباً في التاريخ التركي أننا نتحدر من يافت آغلان، الملقب بـ (أبي الأتراك)، وهو نجل يافث المؤسس، وكان أول ملك على الأتراك. وحينما ارتقى ولده الخامس ألنجة خان العرش رزقه الله تعالى ولدين، فأطلق على أحدهما اسم تتار وعلى الآخر مغول؛ وحينما شبّا عن الطوق قسم ألنجة خان مملكة تركستان بينهما في حياته، وبعدما تربع كل منهما على عرشه اختالا بعرشيهما، وهجرا ديانة أسلافهما، وزلت أقدامهما في طريق الكفر». وقد كان لتتار ثمانية أبناء، تتحدر منهم ثمانية قبائل، أما مغول فكان لديه تسعة أبناء، تتحدر منهم تسعة عشائر. وكثيراً ما كان يدبّ الخلاف بين هذين الطرفين، ويخوضان العديد من المعارك في سهول تركستان.

وما زالا على هذه الحال ردحاً طويلاً من الزمن إلى أن توطد إيمانهم بالدين الإسلامي. كان طومان خان يعتلي عرش المنطقة الخاضعة لسلطانه من تركستان، وكان له ولدان توأمان، أحدهما يدعى قاجولاي والآخر قبل أو قبلاي، وحينما بلغ قاجولاي مبلغ الرجال حلم ذات ليلة أنه شاهد نجمين يبزغان في صدر قبلاي خان، وسرعان ما أفلا، و خيل إليه من جديد أنه

رأى نجمة تماثل الشمس في روعتها وإشراقها، وكانت تضيء العالم كله، وعندما استيقظ قص حلمه هذا على أبيه الذي فسره على النحو التالي: «من بين ذرية أخيك سيُولد فتى في الجيل الثالث، ولسوف يكون فاتح العالم»، ومن ثم أمر تومان خان بإقامة وليمة كبيرة، دعي إليها جميع الأعيان وكبار الشخصيات؛ وفي أثناء الوليمة وبعدما تعانق الأخوان أبرما اتفاقاً وُضع باللغة التركية، ونقش على لوح من الفولاذ، وأودع في الخزينة، وقد نص هذا الاتفاق على ما يلي: «ألا ينشب خلاف بين ذرية الأخوين مطلقاً، وأن يكون منصب الخان في عقب قبل خان إلى الأبد، بينما يكون منصبا القائد العام ورئيس الوزراء في عقب قاجولاي[1]».

وفي سنة 549 هجرية رزق مُنغو بهادر بن قبلاي خان بصبيّ، وقد ولد ويداه تغطيهما الدماء، فأطلق عليه اسم تيموجين الذي صار لقبه لاحقاً جنكيز خان. وعندما بلغ هذا الإنسان الخطير من العمر تسعة وأربعين عاماً تربع على عرش تركستان بعد أن لقي عناء كبيراً وحاقت به الأخطار.

وفي اليوم الذي اتخذ فيه لقب الخان دخل على مجلسه درويش، وصاح قائلاً: «إن الله تعالى قال لي، 'لقد منحت تيموجين سطح البسيطة، وأنعمت عليه بلقب جنكيز خان، وهو يعني ملك الملوك»، ولكن جنكيز تخلى عن واجب الفاتح وأعمل سيفه في الناس تقتيلاً، وعمل في أرض الله سلباً ونهباً، ونفذ حكم الإعدام في عدة آلاف من المسلمين.

وفي صبيحة اليوم الذي توفي فيه منح السيادة على بلاد ما وراء النهر لابنه الأكبر جغتاي خان [2]، وعين قراجار نويان بن صوعنجوصحين بن برلاس بن قاجولاي بهادر، الذي هو جدي الرابع وجدك الخامس، قائداً عاماً ورئيساً للوزراء، وتسبب في جلب الاتفاق الذي كان قد دخل حيز التنفيذ والمبرم بين قاجولاي وقبلاي خان من الخزينة، وقدمه لهما، وبعدما أمعن جغتاي النظر فيه سلمه إلى قراجار نويان، وأنعم عليه بلقب گورگان أو (الأمير العظيم).

وحينما رزق الله قراجار نويان صبياً أطلق عليه اسم انكيل نويان؛ ولم يكن قراجار في أول أمره من المؤمنين الحقيقيين، وإنما كان من أتباع الديانة المجوسية والمؤمنين بالمادية الذين كانوا يقولون إن الله هو في كل شيء، وفي كل إنسان؛ إلاّ أنه كان حريصاً على اكتساب معرفة حقيقية بالله، ومن أجل ذلك سعى للتعرف إلى جميع رجال الدين، وبعد ردح طويل من الزمن التمس رأي واحد من الشخصيات الدينية البارزة، وكان من سلالة محمد صلى الله عليه وسلم وسأله ما الذي يقوله المسلمون في ما يتصل بالمعرفة الحقيقية بالله، فأجاب قدّس الله سرّه: «إن دين المسلمين هو أنه من بين كل ما هو أبدي أزلي هناك الإله الكلي القدرة وكلي

(1) انظر الشرعة، ص 25.

(2) يرسم هذا الاسم بالفارسية جغتاي وجغطاي على حد سواء؛ ويحمل اسمه جزءاً كبيراً من تركستان.

العلم، إنه إلهنا، ورب جميع المخلوقات، وإذاً فليس من الصحيح أن نذهب إلى ما ذهب إليه المؤمنون بالمادية؛ لأنه لا يوجد سوى إله واحد، خالق كل شيء، إذ إننا ننكر تعدد الآلهة، ونؤكد على أن هناك إلهاً واحداً فقط» وبعد أن تفكر قراجار قليلاً قال: «هذا صحيح، الله واحد لا شريك له، وهو على كل شيء قدير». ومن ثم خضع لرجل الدين قدس الله سره معلناً هدايته للإسلام، ونطق بالشهادتين خلف معلمه؛ ألا وهما «أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله»، سبحان الله العظيم الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255].

والمجد والثناء أيضاً لرسوله محمد الذي بمعجزة شق القمر جاءنا بالدليل على أنه النبي الحقيقي، وهو وزير الله تعالى، والخلفاء وزراؤه.

ومنذ ذلك الحين قوي إيمان قراجار، ودعا جميع الناس إلى أن يحذوا حذوه، ونتيجة لذلك ازداد عدد المهتدين لدين محمد، وأصبح واسع الانتشار في كافة أرجاء المنطقة.

وبعد ذلك وزّع إيران بالتساوي بين مختلف العشائر والعائلات، وجعل سهول كش مخصصة لإقامة قبيلته برلاس، فزودهم بالماء والكلأ والمرعى في هذه البقعة وسواها؛ ليعتمدوا عليها في إعالتهم، ومن ثم أخذ قراجار على عاتقه النهوض بأعباء القيادة العامة للجيش، وأخضع بلدان كاشغر، وبدخشان، وأنديجان، وحصار، و أجزاء من خراسان كذلك التي احتفظ بها لنفسه باعتبارها المنطقة الخاصة به.

وحينما غادر قراجار الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، خلفه ابنه الأكبر الأمير آيلتكوز في القيادة العامة للجيش، ففتح العديد من البلدان. وعندما خلفه جدك الأمير بركل في منصب القائد العام وجد أن هناك انشقاقات بين القبائل والعشائر، فشعر بالاشمئزاز، وبعد أن اعتزل منصبه قصر نفسه على إدارة شؤون عشيرته برلاس، ومع ذلك كان لديه عدد لا يحصى من الأغنام والماعز والماشية والعبيد والخدم.

ولما توفي جدك الأمير بركل آلت إلي ممتلكاته، لكنّني آثرت صحبة العلماء ورجال الدين، وكنت أقضي جل وقتي معهم، وكثيراً ما كنت ألتمس بركاتهم وابتهالاتهم بأن يرزقني الله سبحانه وتعالى ولداً يزيد من شهرة قبيلة برلاس ويعلي من شأنها.

وصل إلى بلاد ما وراء النهر في ذلك الوقت تقريباً منجم ذائع الصيت قادم من فارس. وفي أحد الأيام عندما كان يجلس في اجتماع للعلماء البارزين، قال: «بالاستناد إلى دورة السماوات

فإنني أعلم جيداً بأنه في سنة سبعمئة وثلاثين للهجرة سيُولد طفل، سيثبت أنه قاهر العالم».

بيت من الشعر: «في التاسع من شهر رجب سنة سبعمئة وثلاثين هجرية سيبزغ نجم ميمون»، «لقد رزقكم الله هذا الولد[1]».

وحينما روى لي والدي كل هذه الأحداث كنت على قناعة بأنني ولدت لكي أكون خليفة الله في الأرض، واعتقدت بأنني وُهبت كل القدرات الضرورية، ومع ذلك فقد أصبحت شديد الورع، وكنت أتضرع على الدوام إلى الله من أجل التوفيق والسداد، وقدمت العديد من رؤوس الماشية والأغنام إلى السادة الأشراف والعلماء ورجال الدين البارزين.

وهكذا، فقد قدمت عشرين رأساً من الأغنام إلى الولي السيد كلال، لكن بسبب الأمطار الغزيرة ضلّت طريقها، وظننت أنها فقدت، لكن بعد بضعة أيام ذهبت لتقديم فروض التحية والاحترام الواجبة له فرأيت الأغنام واقفة عند بابه، فحمدت الله وشكرته على قبول ما قدّمته. وما إن وقع نظر الوليّ عليّ حتى قال للمتفرّجين: «لقد جعل الله هذا التركي الشاب خليفته في الأرض»، ثم شرع في صلاته، فحذوت حذوه. وبعدما فرغ من عبادته، قال: «لسوف يكون قدرك حسن الطالع والملكية، شريطة أن تشدّ أزر الدين الإسلامي».

في هذا الوقت تبت عن أعمالي الحمقاء، وأقلعت عن ممارسة لعبة الشطرنج، وتقيدت بالشريعة بصرامة شديدة، واتبعت ما يمليه عليّ الدين؛ وقطعت العهد أيضاً بألا ألحق الضرر بأي مخلوق من المخلوقات، وكلما كنت أفعل ذلك مصادفة أشعر بالأسف الشديد. وهكذا فبعد أن دست عن غير قصد نملة في أحد الأيام شعرت كما لو أن قدمي قد فقدت كل قوتها؛ فالتمست شفاعة الخلفاء الأُول الراشدين، وأحسنت إلى البشرية جمعاء.

1355 م: في سنة 756 هـ بلغت من العمر عشرين عاماً، وبما أنني بلغت سن الرشد، فقد عهد إلي والدي طرفاي بعدد من الخيام والأغنام والإبل والعبيد والخدم والمرافقين، فجنيت منها ربحاً عظيماً إبان هذا العام. وكان أول ما اتخذته من الترتيبات المتصلة بشؤوني الخاصة أنني أنطت قيادة ثمانية عشر عبداً لأحد العبيد، وقد أنعمت عليه بلقب «أون باشي»، وأطلقت على كل عشرين جواداً تسمية الإسطبل، وعلى كل مئة رأس من الإبل تسمية السلسلة، وعلى كل ألف رأس من الأغنام تسمية القطيع، وعهدت بإدارة كل منها إلى أحد العبيد، وخصصت لكل منهم نصيباً معيناً من الأرباح. وفي ذلك العام لم تكن صحتي على ما يرام من جديد، وبعدما أوصى طبيب من سمرقند بتناولي الرمان اعتراني خفقان قلب سريع وعنيف، وفقدت الوعي

(1) يفترض أن يكون التاريخ المذكور هنا خطأ وقع فيه المترجم الفارسي أو الناسخ؛ لأن المراجع تحدد تاريخ ولادة تيمور في الخامس والعشرين من شعبان لسنة 736 هـ الموافق للسابع من مايو/ أيار لعام 1336 م.

تماماً، عندئذ بكى بمرارة كلّ من والدي ووالدتي وجميع الحاضرين. بعد ذلك عالجني طبيب من تركستان بالكيّ بالحديد الساخن، فاستعدت وعيي، ومن ثم قدموا لي بعض مرق اليلماق وسواه من أصناف الطعام، وأصبحت في طور النقاهة. وتعبيراً عن امتناني لتماثلي إلى الشفاء أجزلت له في العطاء من الخيول والأغنام؛ وهكذا قدمت مئة رأس من الإبل إكراماً للنبي صلى الله عليه وسلم، وخمسين رأساً أخرى إكراماً للخلفاء الراشدين، وأعطيت الصدقات الوافرة للفقراء والنساك والدراويش الذين بوساطة ابتهالاتهم تماثلت للشفاء تماماً.

الفصل الرابع

في هذه السنة (756 هـ) دانت قبيلة جغتاي[1] بالولاء للأمير كيزان سلطان بن سور أغلان، فاضطهد أهالي بلاد ما وراء النهر طوال خمسة عشر عاماً، وزلت به قدمه عن صراط العدل والإنصاف، ونتيجة لطغيانه، استبد اليأس برعاياه ، فاقتصروا على التزام بيوتهم والتضرع والابتهال إلى الله عز وجل أن يدركه الأجل.

ومما أثار سخطي الشديد أيضاً سوء إدارته، وتملكتني الرغبة في شق عصا طاعته، والانتقام من قسوته، ولكن لم أتمكن من العثور على أحد ذي مكانة للانضمام إلي، حتى عندما وزّعت كل ما عندي من ثروة عليهم ما استطعت أن أقنع أي واحد منهم بأن يتحد معي، على الرغم من أنني تأثرت أيما تأثر بمشاهدة ما آلت إليه حالهم من الظلم والاضطهاد.

أخيراً شق عصا الطاعة الأميرُ كورگين الذي كان واحداً من أعظم رؤساء قبيلة جغتاي ومقدَّميها وخرج عليه، وفي سنة 746 هـ، (1345 م) حاربه في صحراء دايره زنگى، لكنه مني بالهزيمة.

استأنف الطاغية مظالمه وقمعه بعد أن كان النجاح حليفه، وعاد إلى قارشي، فتعجب الناس الذين كانوا يتوقعون أن العناية الإلهية قد تدخلت لصالحهم.

ونتيجة لهذا المسلك الشرير، قال أحد الأشراف من ترمذ: «ما دام الأمير كيزان مواظباً على مسلكه السيئ هذا فإنه لن يقهر أبداً»، لذلك شرع الناس يلعنونه جهراً، مما حفّزه على القيام بأعمال جائرة جديدة. ومن جملة الآثار المترتبة على سوء إدارة هذا العاهل عديم القيمة:

أولاً. صقيع شديد القسوة أتى على الماشية.

ثانياً. قحط وجدب أصاب الأرض، فأهلك الحرث، وأباد الثمار.

---

(1) انظر الهامش رقم 8.

ثالثاً. مجاعة اجتاحت الناس.

وإبان السنة التالية، بعد أن جمع الأمير كورگين جيشه من جديد، زحف على قارشي، واشتبك مع الطاغية، دحره وأسره، فحبسه أولاً، إلا أنه بعد مرور عامين نفذ فيه حكم الإعدام، وأراح مملكة ما وراء النهر من أعماله الجائرة [1].

ولقد استولى الأمير كورگين على المملكة، واستعاد كثيراً من الممتلكات التي نهبت من الناس، وسلك طريق العدل والإنصاف. وبما أن الأمراء لم يعترفوا بسلطته فقد داخلتني النية إلى حد ما بأن أتسلم زمام السلطة [2]، لكن الزعماء استبقوا تنفيذي لما كنت قد عقدت العزم عليه، فتولو ترقية دانشمندجه أغلان، من نسل جنكيز خان، لمنصب الخان، وأقسموا على الإخلاص له،وجعلوه ملكاً على بلاد ماوراء النهر بأسرها.

تولى الأمير كورگين حكم بلاد ما وراء النهر متخذاً لقب القائد نيابة عن دانشمندجه خان مدة عشرة أعوام، وكان على جانب عظيم من الاستقامة والاحتشام، فسن القوانين من جديد، وشد من عضد الدين المحمدي.

1356م: حينما بلغت من العمر إحدى وعشرين عاماً تمنيت لو أنني وحدت صفوف قبيلة برلاس، وشقيت عصا الطاعة. وقد انضمّ إليّ أربعون من رفاقي في الدراسة، وتشاورنا بشأن استيلائنا على جبل كآن، إلا أن والدتي انتقلت إلى رحمته تعالى في ذلك الحين، وتولّت أختي توركان آقا رعاية أسرتي، فاعترتني كآبة شديدة لبعض الوقت، وتخليت عن نواياي الطموحة. وبعد أن انتهت أيام الحداد على والدتي خطب لي والدي ابنة الأمير جاكو برلاس. وفي ذلك الوقت تقريباً أوفدني والدي إلى الأمير كورگين بشأن مسألةٍ تتصل بقبيلتنا وعشيرتنا، وبذلك تعرفت إلى الأمير الذي أعجب بي أيما إعجاب، واتخذني ابناً له، وزوجني بإحدى حفيداته، مع تكريم عظيم وثروة طائلة، وأجلسني بجانبه في المجلس.

وبعد وفاة الأمير لم يكن ابنه أهلاً للقيام بأعباء منصبه، فرغبت في أن أشغل هذا المنصب بنفسي، وحصلت على موافقة عدد من الزعماء. لكنني تذكرت ما أدين به لوالده من العرفان بالجميل، فقلت لنفسي: «من الأفضل أن أتحلى بالصبر»، وصبرت على ذلك.

في تلك السنة قصدت الصحراء للصيد، وعندما وصلنا إلى الأرض المخصصة للصيد هبت عاصفة عنيفة محمَّلة بالثلوج والأمطار معاً، ولما كان الثلج مرتفعاً جداً فقد ضللت طريقي،

---

(1) كان هذا آخر من تولى الحكم الفعلي في بلاد ما وراء النهر من نسل جنكيز خان، على الرغم من أن العديد من الشبان منحوا لقب «خان» الأجوف، إلا أنهم كانوا مجرد دمى في أيدي الزعماء ذوي السطوة والنفوذ.

(2) ذلك تباهٍ من جانب تيمور، إذ إنه كان في مقتبل الشباب؛ ويدل لقب أغلان على أن صاحبه كان شاباً وأميراً على حد سواء.

وأصبحت هائماً على وجهي لا ألوي على شيء. وأخيراً شاهدت شيئاً معتماً، وعندما دنوت منه وجدت أنه كان تلاً؛ وفي أسفله كهف كبير لجأتْ إليه بعض العائلات من عشيرة أرلات هرباً من الطقس العاصف، وشكلوا من صخور الكهف غرفاً لهم، ووضعوا خيامهم بجوارها. وبما أنني كدت أن ألقى حتفي بفعل البرد فقد ترجلت عن صهوة جوادي، ودخلت الكهف من دون مراسم، فرأيت هناك ناراً مضطرمة وُضع فوقها قدر مملوء بالحساء. وبما أنني كنت جائعاً جداً فقد أدخل منظره البهجة والسرور إلى نفسي، وكان صاحب الغرفة ودوداً جداً، فخلع عني معطفي وفردتي حذائي المبللة تماماً، كما أنه حل وثاق كنانة سهامي، وجلب بعض الدثر الغليظة التي توضع على ظهر الحصان فجعلها فراشاً لي، وجاء بعد ذلك بالحساء الساخن فتناولت كمية منه، فبدأت أشعر بالدفء، وامتلأت حيوية ونشاطاً، وقضيت ليلتي هناك. ومقابل اللطف الذي أبدته تلك العائلة اصطحبت ابنهم البكر معي لدى عودتي إلى الوطن، وقدمته إلى الأمير.

ذهبت في مرة أخرى إلى الصيد وواجهني حادث خطير جداً، فقد كنت أطارد غزالاً بأقصى سرعة حينما بلغت على نحو غير متوقَّع بئراً جافة، وكان الحصان يعدو بكل سرعته، وحاول القفز فوق البئر. لكن على الرغم من أن قائمتيه الأماميتين قد تخطتاها بثقة، إلاّ أن ساقيه الخلفيتين سقطتا فيها؛ فقفزت من فوق السرج، وحاولت أن أتجاوز هذه المشكلة، ولكني لم أوفَّق، فسقطت مع الحصان، وظن رفاقي أنني لقيت مصرعي، لكن عندما وجدوني حياً غمرتهم السعادة والفرح، وقدموا الأضاحي شكراً على نجاتي الميمونة التي عدت بمثابة فأل حسن، وكسبت مزيداً من الأتباع والمريدين.

1357 م: في عام 757 هـ غزا جيش قادم من العراق بلاد ما وراء النهر، وجمع كثيراً من الغنائم. كان عمري آنذاك واحداً وعشرين عاماً فقط، وكنت جالساً مع الأمير كورگين حينما بلغتنا أنباء ذلك الغزو، فأمرني فوراً بأن أتولى قيادة كتيبة عسكرية، وأطارد العدو، فتتبّعت العراقيين مسافة ثلاثة وعشرين فرسخاً، وبعد أن زحفت بقوة نحوهم أخذتهم على حين غرة في منتصف النهار. كان العدو موزعاً على فريقين؛ يحمي أحدهما الغنائم، بينما تهيأ الآخر لمواجهتي، فنصحني أمراء جندي أن أبدأ بمهاجمة الفريق الذي يتولى حماية الغنائم، لكنني رفضت قائلاً: «كلا، إذا نحن تغلبنا على الفريق المقاتل فسرعان ما سيعمد الفريق الثاني إلى الهرب والنجاة بأنفسهم»، ومن ثم أعطيت الأوامر بالهجوم. بعد أن لكزت جوادي بقدمي، انطلق مهرولاً، وقد صمد العراقيون بعض الوقت، وتبارزنا بالسيوف، لكن بعد أن أصيب كلانا ببضعة جروح، ولَّوا الأدبار هاربين، وعندئذ استعدت الغنائم، وزرت الأمير الذي أثنى علي أيما ثناء، ووهبني كنانة سهامه، ونصبني قائداً للقبيلة.

في ذلك الحين، كنت تواقاً جداً إلى أن أشق عصا طاعة «الخان»، وأن أتسلم زمام السلطة بنفسي، بيد أنه عندما ذكرت ذلك للأمير كوركين الذي كان مشغولاً جداً آنذاك قال لي: «ألا يمكنك أن تنتظر ولسوف تتولى الحكم آجلاً أم عاجلاً؟!» ولذلك تخليت عن نيتي هذه.

في ذلك الوقت تقريباً ذهبت من جديد لأقدم فروض الاحترام إلى قطب الأقطاب الشيخ زين الدين شادي، ولدى وصولي كان يجلس مع بعض تلاميذه يتلو القرآن، وقد فرغ لتوه من تكرار الآية الكريمة: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم: 1-5]، وما إن أبصرني حتى عقد مقارنة بين حدث وصولي ولحظة نطق الآية الكريمة المذكورة أعلاه، ووجد تطابقاً كبيراً بينهما، وأحسن وفادتي واستقبلني بالتبجيل والاحترام، وأجلسني قبالته.

وحينما فرغ من تلاوة هذه الآية القرآنية، خاطبني قائلاً: «لقد أمر الله بسقوط بلاد الروم، وبما أنني أتوسم فيك أن تصبح ملكاً فلعل قدرك أن تكون القاهر لهم». وأردف قائلاً: «بما أن كلمة الأرض يأتي ترتيبها رقم ثمانية بين كلمات الآية، فإنني أتنبأ بأنك ستخضع بلاد الروم وتقهرها في سنة 800». فتشجعت كثيراً، وغمرتني البهجة بهذه النبوءة الميمونة.

وفي زيارة أخرى لهذا القطب لف شاله حول وسطي، ومن ثم وضع عمامته الخاصة فوق رأسي، ووهبني خاتماً مرصعاً بالياقوت، حفرت عليه عبارة (راستي ورُستي)، أي: (الحق والخلاص)، فاعتبرت ذلك فألاً حسناً، وأضفت اسمي وجعلته ختماً لي، ومنذ ذلك الحين محضت الشيخ كامل ثقتي وإيماني.

الفصل الخامس

1358 م: تلقى الأمير كوركين إبان هذه السنة عدة شكاوى بحق الملك حسين الغوري حاكم هرات [1] الذي كان قد تجاوز الصلاحيات الممنوحة له، وأنزل بالناس العسف والظلم، وبسبب ذلك حرّر كبار أعيان تلك المدينة عريضة يلتمسون فيها من الأمير أن يأتي إلى هناك، ويقوّم المظالم التي حلت بهم ويصلحها. بيد أن الأمير ظن أنّ من الأفضل أن يكتب رسالة تحذير إلى الملك حسين يأمره فيها بالامتناع عن اضطهاد أهالي خراسان، وبأن يغير سلوكه، وإلاّ فلسوف يُضطرّ إلى الزحف بجيشه، ويحرمه من سلطته، ويجرده من منصبه الرفيع.

(1) هرات، تغنّى بها الإغريق في أغنياتهم، وهي منذ مدة طويلة عاصمة خراسان، وتقع على ضفاف نهر جيحون، خط العرض درجة 34، شمالاً درجة 50 . انظر: Edinburgh Gazetter.

لكن بما أن الملك حسين لم يأبه بالتحذير، ولم يغير سلوكه، بل لم يقرّ بتسلُّمه رسالة الأمير، فقد استشاط الأمير غضباً، وأعطى أوامره بحشد الجيش، وعزم على غزو خراسان. لكن حينما أظهر لقادته الرسائل التي وصلته من هرات طالباً منهم المشورة، أجابوه بالقول: «إنهم لا يرون في أولئك الأشخاص مرجعية كافية للمضي قدماً في إجراءات قاسية، وأن من الأفضل الوقوف على ميول السكان الأخرين». وقد أثار هذا الرد حفيظة الأمير، وبدأ يتردّد، فطلب رأيي، فقلت له بصراحة: «لم يكن يتعين عليك حشد الجيش، قبل أن تحسم هذه النقطة، أما وقد فعلت ذلك فينبغي ألا تماطل الآن، لئلا يحسب العدو ذلك ضعفاً، بل دعنا نهاجمهم ببسالة، وإن حالفنا النصر فلسوف نبلغ هدفنا، وعلى أي حال نملأ بطون جنودنا الجائعين؛ لأن لكل مجتهد نصيب».

استحسن الأمير كورگين نصيحتي، وعهد إلي بقيادة ألف من الفرسان فوراً. كنت أطعم هؤلاء الفرسان البالغ عددهم ألف رجل يومياً، ولم أجلس لتناول وجبة من دون وجود بعضهم، لذا أصبحوا شديدي التعلق بي، فشكّلنا الحرس الأمامي، وتقدمنا وقد امتلأنا ثقة. كان العديد من القبائل والعشائر قد حشدوا رجالهم يحدوهم الأمل في الحصول على الغنائم، فحثثتهم على الانضمام إلينا. وحينما أعددت جيشي إعداداً جيداً ونظمت صفوفه كانوا مجمعين إلى حد بعيد على الإقرار بسلطتي، إلى درجة أنني بدأت أشرف على مشاهدة بوابة السيادة والسؤدد، فوضعت قائمة بأسماء الفرسان، وطويتها وحفظتها في جيبي. واستقر رأيي على أنه بعد إطاحتي بالملك حسين سأحتفظ ببلاد خراسان لنفسي.

وبعد أن عقدنا العزم تقدّمنا فعبرنا نهر المورغاب، وزحفنا بطريق بشتان، وأقمنا معسكراً على الجبال قرب هرات.

في اليوم التالي امتطيت جوادي وانطلقت إلى بقعة أرض ذات لون أخضر فاتح، تقع على تلة، واستقر رأيي على أن تكون ساحة القتال، ومن ثم زرت الأمير كورگين، وذكرت له موقع ساحة القتال.

وبعدما نظّم الأمير كورگين صفوف الجيش انطلق إلى بقعة الأرض ذات اللون الأخضر الفاتح التي ذكرتها له، فدرس ساحة القتال بدقة، وأثنى على رأيي أيما ثناء. ولما كنا قد أدرنا ظهورنا للشمس، فقد كانت أشعتها تضرب العدو؛ فقال الأمير: «لسوف تعمي أشعة الشمس أبصار خصومنا، وتمنحنا فتحاً يسيراً».

بعد ذلك بقليل زحف الرتل الأول من جيش الملك حسين الذي كان خلف سور منخفض بجرأة نحو السهل، لكن كان ينقص تقدمهم البراعة. وفي ذلك الوقت ناداني الأمير كورگين قائلاً: «أي بني! انظر كيف أن تنظيم جيشهم سيئ، ولسوف نهزمهم قريباً».. فأجبته بالقول:

«فلنصبر قليلاً إلى حين تقدمهم مسافة أكبر من وراء السور»، ثم أرسلت أوامري إلى رتلنا الأمامي بالتراجع بهدوء، وعلى أثر ذلك ازداد العدو جرأة، وتقدم مسافة أكبر نحو السهل، واستطالت صفوفه في أرض المعركة.

رتّبت جيشنا ونظّمت صفوفه، فجعلته مقسماً إلى جناح الميمنة، وجناح الميسرة، والقلب؛ ومن ثم أعطيت أوامري بأن يتقدّم القلب. وعندما التقى الرتلان، وتبادلا ضرب السيوف، أمرت بأن ينقض الجناحان بأقصى سرعة، واقتحمت المعركة.. بيد أنّ العدو هجر الميدان في الهجوم الأول والثاني والتجأ إلى ما وراء السور.

في ذلك الوقت اقترب الأمير كورگين، وأصدر أوامره بأنه ينبغي لنا أن نترجّل عن صهوات جيادنا ونقتحم السور بالقوة، وهو ما فعلناه، وكان النجاح حليفنا. ومن ثم وزّع الأمير الجند، وأرسل فرقة عسكرية لتشييد التحصينات على كل بوابة من بوابات المدينة، ومن ثم عهد إلي بقيادة الهجوم، وعاد إلى معسكره.

وفي اليوم التالي أصدر أوامره للجيش بأكمله، بما في ذلك سلاح الفرسان والمشاة، بالهجوم على المدينة. ونتيجة لذلك أحكمنا حصار المكان، وقطعنا جميع الإمدادات. وعندما بدأ سكان هرات يشعرون بالضيق اجتمع الأعيان وكبار الشخصيات، واتفقوا على أن يعرضوا علينا الصلح، ثم أرسلوا إلى الأمير كورگين العديد من التحف النادرة والهدايا، ووعدوه بأنه إذا ما سحب جيشه فلسوف يزوره الملك حسين في سمرقند في غضون شهر واحد، ويؤدي له فروض الطاعة والولاء. وبعد أن تشاور الأمير مع قادته قَبِلَ الجزية التي وزعها بالتساوي بينهم، ووافق على عقد الصلح، وعاد إلى بلاد ما وراء النهر. بيد أنه تركني في هرات ومعي ألف فارس والحرس الأمامي؛ لترويع الملك حسين وترهيبه، وإجباره على الوفاء بوعده بالمجيء إلى سمرقند في غضون شهر واحد.

ونتيجة لهذه التوجيهات أقمت معسكراً في متنزه هرات، إلا أنني بانتظار الموعد المحدد للملك حسين ليفي بوعده زحفت على بختار (مدينة بلخ) واستوليت على هذا الجزء من خراسان بأكمله.

اغتنمت أيضاً هذه الفرصة لأقدّم من جديد فروض الاحترام لقطب الأقطاب الشيخ زين الدين أبي بكر، وحينما أذن لي بالمثول أمامه نسيت كل ما يبعث على القلق لدي وخيبات أملي، وشعرت براحة لا تعادلها راحة. وفي اليوم الأول استقبلني الشيخ بمنتهى اللطف، وخلع عليّ رداءه. لذلك أفضيت إليه بما كان يجول في خاطري بما يتصل بوجهات نظري تجاه مملكة خراسان، فأمرني أن أواظب على الصلاة، وكلما واجهتني صعوبة أن أتضرع إلى محمد وأهل بيته لتذليل كافة الصعوبات التي تعترضني.

وفي اليوم التالي قال الشيخ لي: «ستلقى الدعم والمدد الآن، إذ إن أمير المؤمنين علياً قد أمر أحد عُمّاله بأن يلازمك، ولن تتبيّنه في البداية، لكنك ستتعرّف إليه في نهاية الأمر»، فغمرتني بهجة كبيرة بهذه الأنباء، وشعرت بالثقة الأكبر بنبوءات هذا الولي، وتطلعت بصبر وأناة إلى السيادة والسؤدد وفتح بلاد خراسان بأكملها. وبعد أن استأذنت من الشيخ بالانصراف، عدت إلى هرات، وعسكرت بجوارها، ولكنني سرعان ما تلقيت رسالة سرية من الملك حسين مفادها أن جنده كانوا في حالة من التمرّد، وأنهم هددوا بقتله وتنصيب الملك باكير في مكانه، وأنه إذا تقدمت وقواتي نحو المدينة فسيخرج وينضمّ إليّ، ويمضي قدماً معي إلى الأمير كورگين. فقلت في قرارة نفسي: إذا كان الملك حسين يقول الحقيقة وأن أمراء جنده في حالة من التمرد، فسيكون من اليسير علي أن استحوذ على مدينة هرات وأستولي عليها من دون أي مساعدة، لذلك فقد انطلقت بقواتي، وبعدما امتطيت صهوة جوادي زحفت نحو المدينة.

امتطى الملك حسين جواده كذلك وتظاهر أمام شعبه أنه عازم على قتالي، إلا أنه خرج من الحصن وتقدّم نحوي وبرفقته جماعة من الجند، ولما ظننت بأنه كان يخدعني ارتديت درعي وتهيأ قادة جنودي للمنازلة؛ وبينما كنا في هذه الحالة من الترقب زارني الملك حسين زيارة خاطفة بصحبته مرافقيه جالباً معه معظم ثروته وممتلكاته، فالتقينا وعانق كل منا الآخر على صهوة جواده. كما جاء إلي العديد من أمراء جنده وطرحوا جانباً كل حقد وعداء. ثم أخذت الملك حسين إلى خيمتي وأصدرت الأوامر بالزحف فوراً.

وحينما علم الأمير بأنني كنت أصطحب الملك حسين إلى قصره أرسل نجله عبد الله ليلتقي به بنفسه، وأحسن وفادته، وأكرم رفادته، وقبل هداياه.

كما استقبلني الأمير بحفاوة، وأكرمني غاية التكريم، وقبّل جبهتي، ودعا لي بالظفر والفلاح، وقال حرفياً: «بيض الله وجهك».

خصص الأمير إحدى خيامه الخاصة لتكون مقر إقامة لضيفه. ولكن بعد بضعة أيام امتلأت قلوب القبائل والعشائر جشعاً وطمعاً، وكانوا توّاقين بشدة إلى نهبه والقضاء عليه. لكن الأمير لم يمنح موافقته على هذا الإجراء، وخاطبني قائلاً: «لمّا كنتَ الوسيلة التي أتت بهذه الرهينة إلى هنا فيجب عليك أن تقلّه إلى دياره آمناً من جديد».

وبناء عليه نقلت الملك حسين سراً إلى خيمتي، وأغلقتها دونه، وكان يتملكه الذعر الشديد، وظن أنني سأقتله. ولما وجدت أن الهلع والرعب قد استبدا به، أخبرته بالتفاصيل كافة، وعندئذ رفع يديه بالدعاء لي وللأمير على حد سواء.

وفي اليوم التالي حصلت على موافقته بالذهاب برحلة صيد، ولما كان الأمير شديد الولع

بالرياضات الميدانية فقد وافق على أن يرافقني ومعه قلة من خدمه ممن هم محل ثقته الأكبر. وبعدما اصطحبنا معنا الملك حسين توجهنا إلى ضفاف نهر المورغاب. بينما كنا نرفِّه عن أنفسنا في الميدان دعا الأمير ضيفه للقائه، وبعد أن تحدث إليه بلباقة جدّدا مواثيق الصداقة. وحين استأذن حسين بالانصراف قدم للأمير سواراً لأعلى الذراع مصنوعاً من الياقوت. بعد ذلك انطلقت مع الملك حسين واجتزنا النهر، وعسكرنا على الضفة المقابلة.

وبينما كنا في هذه الحالة بلغتنا أنباء بأن قادة غور وجيش خراسان قد رقَّوا الملك باكير ليتولى زمام الحكم، وأنه استولى على مدينة هرات. وما إن تلقينا هذا الخبر حتى شعر الملك حسين بالأسى الشديد، وغرق في دوامة من الرعب والذعر.

وبعد بعض الوقت طلب نصيحتي في هذا الشأن، فقلت له: «ليس أمامك إلاّ أن تعتمر خوذة الشجاعة، وترتدي درع التصميم، وتتمسك بسيف العزم، وتغوص من فورك كالتمساح في نهر من الدماء، فإذا كان النصر حليفك فلسوف تحوز على الشهرة؛ وإذا ما أخفقت فلا حاجة إلى أن تشعر بالخجل». ودع الملك حسين الحياة، واستقر رأيه على أن ينهض بواجبه، والتمس مني أن أرافقه، وعرض علي خَرَاج مدينة هرات لمدة عام، فلم أوافق على هذا الاقتراح، لكنني قلت: «إذا ما استرجعنا معاً هذه الولاية فلسوف تكون المدينة من نصيبي»، فوافق على هذا. وكان أمامنا ساق مطهية من لحم الضأن وعظمها ناتئاً، فتناولتها، وبعد أن انتزعت منها اللحم، قررت في قرارة نفسي أن أستنبط منها بشيراً ما عن نجاح الملك حسين في مشروعه. وبدأت بإجراء الشعائر المعتادة [1]، وكانت النتيجة مواتية؛ وبناء عليه عقدت العزم على أن أخوض في هذه المغامرة ببسالة. بعد أن تقدمنا بقوة على أربع مراحل وصلنا قبل انبلاج الفجر إلى بقعة أرض ذات لون أخضر فاتح، وحينما دخلنا سوق الضواحي طلع الفجر، مما مكّنني من رؤية طباخ في متجره يتناول طبقاً ساخناً من الحساء، وعندما شاهدني ناداني قائلاً: «حللت أهلاً ونزلت سهلاً»، وجلب لي وعاء من الحساء، فنظرت إلى ذلك على أنه فأل حسن، وحثثت الخُطى. وحينما بلغنا بوابة هرات كان الحراس قد فتحوها لتوّهم، فضربت جواد الملك حسين بسوطي، وشددنا وثاق ألواح الخشب الثقيلة للجسر المتحرك ودخلنا القلعة، فاستوليت على البوابة لإدخال جماعتنا، بينما شق الملك حسين طريقه نحو مخادع الملك باكير. وما إن رأى أفراد الحامية عدد قواتي حتى غلب عليهم الارتباك، واستسلموا بهدوء.. وهكذا انتصر الملك حسين واستردّ عاصمته من دون أي خسارة.

ثم جال في خاطري أنني قد أستولي أيضاً على الحكم في هرات، لكنني عندما فكرت ملياً

---

(1) يلعب التتار بقطع اللحم من قائمة الذبيحة من الأغنام عوضاً عن النرد.

في أنه ربما لن يدعمني الجند فقد تخلّيت عن هذه الفكرة؛ ووجدت بعد ذلك عن طريق التجربة أنني كنت مصيباً في حكمي وأنهم لن ينضموا إلي، مما أقنعني بأن صديقاً وفياً خير من ألف يتظاهرون بالصداقة. ونتيجة لقدح زناد الفكر وإعمال الذهن نصّبت الملك حسيناً على عرش الحكم، وانتزعت منه بعض العهود. كما أنه دفع لي على نحو مشرّف المال الذي كان قد وافق على بذله لقاء تقديمي يد العون والمساعدة، وأرسل معي أيضاً على أيدي وكلائه العديد من الهدايا إلى الأمير كورگين.

ولما عدت إلى سمرقند احتضنني الأمير، وقبّل جبيني ووجنتي؛ ولكن حينما تناهى إلى مسامع رؤساء القبيلة ومقدَّميها ما فعلته ثارت حفيظتهم، واتحدوا معاً من أجل القضاء علي، كما أنهم شقوا عصا الطاعة وخرجوا على الأمير كورگين. وفي هذه المناسبة طلب الأمير مشورتي مرة أخرى، فنصحته، بأنه رقى دانشمندجه أغلان ليتولى زمام «الخانية» لذا يتعين عليه أن يقنع الخان بإصدار أمر إمبراطوري يقضي باستدعاء أمراء الجند ذوي المراس الصعب إلى القصر، وأن من يعلن الطاعة منهم ينبغي أن يعامل بلطف، وأما أولئك الذين يخرجون عن الطاعة فيجب أن تضرب رؤوسهم.

1359 م: في عام 758 هـ بلغت الثانية والعشرين من العمر، وبدأت أضع في حيز الممارسة والتطبيق بعض تكهناتي بشأن السؤدد والسيادة، وكان بعض رؤساء القبائل والعشائر ومقدميها مستائين من الأمير كورگين، فتآمروا معاً، وكتبوا لي رسالة مفادها أنني إذا شجّعتهم فلسوف يكونون أصدقائي، وأنهم سيطيحون بكل من (الأمير والخان)، وبعد ذلك يمكننا تقاسم البلاد فيما بيننا.. إلا أنني بعدما قدحت زناد الفكر توصلت إلى أنه سيكون من الأيسر لي بكثير في مرحلة ما من المستقبل أن أقصي رجلاً واحداً من منصبه عوضاً عن أن أدخل في صراع مع عشرة منافسين، ومستذكراً الصلة الودية التي كانت موجودة بيني وبين الأمير، فقد استقر رأيي على أن أعلمه بما يجري.

ولكن بعد أن تكشفت للقادة نواياي كتبوا رسالة إلى الأمير قالوا فيها: «ليكن معلوماً لدى عقلكم المستنير أن كل فرد يقع اختياره على إنسان ما ليكون راعياً له، وبوساطته يمكن أن يحصل على أمانيه ورغباته المنشودة.. ومن أجل الحصول على أمانينا ورغباتنا فقد وقع اختيارنا على إحسانكم وفضلكم ليكونا واسطتينا، وأجزنا لأنفسنا أن نعلن هذا.. دام عزكم».

حينما بلغت الأمير هذه الرسالة - ولما كان رجلاً ضعيفاً - فقد وجه على نحو ودي الدعوة للرؤساء لزيارته، ولم يعر أذناً صاغية للتحذير الذي كنت قد وجهته له.

نتيجة لهذه الدعوة، وبعدما جمع القادة رجالهم، وارتدوا دروعهم، وصلوا إلى بوابة القصر

بين وقت صلاة العشاء ووقت النوم. وقد أرسل الأمير في طلبي من فوره، وحينما بلغت البوابة تحدثت إلى بعض أولئك القادة، ولما وجدت أنهم كانوا يرتدون الدروع تحت ملابسهم فقد خامرني الشك في أن لديهم نوايا شريرة، وتمنيت لهم أمسية سعيدة، ودخلت القصر ورويت للأمير التفاصيل كافة. وما إن تناهى إلى سمعه هذا الغدر وحالة التمرد لأمراء جنده حتى انتابه ألم في أمعائه، لذلك أرسل لهم اعتذاراً، ولكنه أعطى أوامره باستقبالهم بحفاوة، وأذن لهم بالعودة إلى معسكرهم.

ومن ثم طلب مشورتي للتخلص منهم، فنصحته بأن يخدعهم بالهدايا. لذلك أرسل لهم مبلغاً كبيراً من المال، وطلب إليهم القيام بتقاسمه فيما بينهم تبعاً لرتبهم، ونظراً لضخامة المبلغ فلم يتمكنوا من الاتفاق على كيفية توزيعه، وسرعان ما شجر الخلاف بينهم، وبعد ذلك جاؤوا فرادى يلتمسون العفو من الأمير، ويستعيدون الحظوة لديه، وهكذا استحالت العداوة صداقة، وتجنبنا الخطر. وفي هذه المناسبة ضمني الأمير بين ذراعيه، وأعلنني ابنه، وأنعم علي بإقليم شمرغان.

1360 م: في سنة 759 هـ بلغت الثالثة والعشرين من العمر، وفي ذلك الوقت تقريباً كان الأمير كورگين قد رسخ سلطته المطلقة تماماً على مملكة ما وراء النهر، فعقد العزم على إخضاع مملكة خوارزم، فعرض علي أن أتولى قيادة الحملة، فوافقت لأول وهلة، لكنني بعدما تأملت في الأمر رأيت أن من المستحسن أن يعهد بالقيادة إلى رجل آخر قد يُهزم على أيدي الخوارزميين، وعندئذ سأدخل البلاد وأخضعها.

ولذلك فقد تحدثت سراً إلى الأمير خضر بأن يطلب إلى بايان كولي الذي كان واحداً من أمراء المجلس أن يقول للأمير: «بما أن فتح خوارزم أمر يسير فيجب أن يعهد به إلى عبد الله أكبر أبناء سموه، وهذا من شأنه أن يجعل شهرته تطبق الآفاق، وينسب إليه كل الفضل في ذلك عوضاً عن تيمور».

وبعد أن قدم بايان كولي شرحاً للأمير كورگين بشأن كل الظروف التي تحيط بفتح خوارزم وافق على هذا الإجراء، وأمر باستدعاء ولده البكر عبد الله من سمرقند ليتولى قيادة الجيش الزاحف نحو خوارزم. لكن لمّا كان الخوارزميون قد جعلوا حصونهم منيعة فقد أبقوه في وضع حرج أوصله إلى حالة من الغم والكرب الشديدين.

ولما أعيت الحيلة الأمير أرسل في طلبي، وقال: «منذ البداية كانت رغبتي في أن أعهد إليك بقيادة الجيش، وما زالت أمنيتي أنه يتعين عليك القبول بذلك»، فقدحت زناد الفكر وتوصلت إلى أن الأمير يرغب في أن أمدّ له يد العون لكي يتحقق له الفتح، ولكنه يقصد بذلك أن يجلب

المنفعة لنفسه، ولذلك فكرت أنني أستطيع أن أفتحها لمصلحتي أيضاً، وأن أصبح عاهل تلك البلاد. وبما أن الطموح عاطفة قوية جداً فقد استقرّ رأيي على أنني لن أكون بعد الآن تابعاً لأحد، بل أن أتوجه إلى خوارزم وأستولي عليها لما فيه فائدتي ومنفعتي.

ولما أحلّني الأمير كورگين محل ولده، ووضع تحت إمرتي قوة كبيرة، زحفت نحو خوارزم، لكني أمرت أن يظل جيش عبد الله ثابتاً في مواقعه إلى حين وصولي. وبما أن الخوارزميين لن يقارعونا في الميدان بل سيغلقون على أنفسهم أبواب حصونهم، فإن أول ما فعلته الاتصال برؤساء جميع القبائل والعشائر الرُّحَّل التي تقيم بخوارزم لإقامة علاقة معهم، وبعد أن ألّفت بينهم ووحدت صفوفهم من حولي طلبت إليهم التوسط لدى أمراء الحصون، وذلك هو ما فعلوه، فوافقوا جميعاً على أن ينضموا إلي.

بعدئذ قسمت جميع بلدان خوارزم وأوركنج بينهم، وبعد أن استوليت على حصون المملكة كافة على هذا النحو عيّنت من يحظى بثقتي ليكون قيماً عليهم، وبذلك استقرّ الحكم في تلك البلاد، ولكم تمنيت أيضاً أن يكون السؤدد لي، لكن بما أنه لم تكن لدي الثقة بولاء رعاياي الجدد وإخلاصهم فقد قفلت عائداً مع عبد الله إلى الأمير الذي منحني بلاد أوركنج مكافأة لي على حسن إدارتي.

1358 م: وفي سنة 760 هـ بلغت الرابعة والعشرين من العمر، وفي ذلك الوقت تقريباً أقام الأمير كورگين حفلة صيد كبيرة، وخرج من سمرقند. وبينما كنا منهمكين في مطاردة الطرائد أرخى الليل سدوله، وقد وجد تغلق تيمور خان صهر الأمير بعد انضمام عدد من الأشرار البائسين إليه أن الفرصة مواتية لاغتيال الأمير، إذ رأى أنني وكبير الصيادين رفيقاه الوحيدان، لذلك هجم على الأمير ومعه سبعة من المبارزين المهرة، وكان الظلام قد بدأ يخيم على المكان، لكن ما إن سمعتهم حتى صحت بهم وأنذرتهم، وألقيت نفسي بينهم وبين الأمير الذي ترجل عن صهوة جواده فوراً واستل سيفه واختبأ وراء حجر ضخم، عندئذ انضم إلينا الصياد، ولاذ تغلق تيمور بالفرار، ومكافأة لي على إنقاذي له من هذا الخطر الذي أحدق به فقد منحني الأمير خَرَاج هسار شدمان.

وبما أنني أصبحت حاكم بلاد خوارزم وشدمان فقد قسمت الخراج مع جنودي. لكن على الرغم من أنني كنت كريماً ومتسامحاً جداً مع جميع العاملين في خدمتي، إلا أنهم لن يدعموا رؤاي الطموحة.

وبما أن الأمير كورگين قد تنبّه لما يبيّته صهره من خطط، فقد عزف عن هواية الصيد، وراح يتحين مناسبة ليمسك به وبرفاقه لتنفيذ حكم الإعدام بهم. ولكن لما كان تغلق يدرك نيته هذه

فقد التجأ إلى مرتفعات ما وراء النهر وأصبح قاطع طريق. وبعد حين من الزمن تظاهرت زوجته ابنة الأمير بالجنون بسبب غياب زوجها. ونظراً إلى أن الأمير كان رجلاً ضعيفاً يتصف بالرأفة فقد كان يعير أذناً صاغية لخداع النسوة وكيدهن، واعتقد أن ابنته كانت مجنونة حقاً، فقادته النسوة الأخريات اللواتي انضممن إليها إلى الضلال، وجعلنه يقتنع بالصفح عن تغلق تيمور، ونتيجة لذلك صدر مرسوم يقضي بعودته إلى القصر. ولقد عارضت هذا الإجراء، وقلت للأمير: «إياك أن تنجر وراء كلام النساء، فقد قال تعالى في كيد النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [سورة يوسف- آية 28]، فإذا قلن لك ألا تنفذ فيه حكم الإعدام فعليك أن تقتله، فقد أمر الله بضرورة معارضتك لهن في كل شيء، كونهن ناقصات عقل ودين». وعلى الرغم من أن الأمير كان يعلم بأن صهره عدوه اللدود، إلا أنه لم يتبع نصيحة المثل السائر الذي كررته له: «حافظ على عدوك في قبضتك كأنك تمسك بحجر كريم، فإذا بلغت بقعة صخرية فعليك عندئذ أن تحطم رأسه بها حتى يتفتت قطعاً قطعاً». بيد أنه أنصت لرأيي هذا بعد حين، وعقد العزم على سحق عدوه، ولكنه لم يجد فرصة سانحة لذلك.

وفي هذا العام ذاته أرسل الأمير كورگين في طلبي، وبعد تكرار شكواه، قال لي: «إنه عازم على تطليق كريمته من صهره»، لكن نساءه جعلنه من جديد طوع بنانهن، كما أن تغلق تيمور كان يتظاهر بأنه نادم على ما بدر منه، فتأجل الطلاق.

انتزع الأمير كورگين في ذلك الوقت تقريباً زمام الحكم في أنديجان من السلطان كولي والد زوجة نجله عبد الله، وعهد به إلى خواجا ايزدي. نتيجة لذلك ناصب الحاكم المخلوع سيده العداء، وتآمر مع تغلق تيمور، واتفقا على تنصيب عبد الله الشاب، وكثيراً ما حذرت الأمير منهما، ولما كان مسروراً باتخاذي بمثابة ولد له، وقدم لي تعهداً خطياً أن أكون خليفته في مملكة ما وراء النهر فكنت أسهر على راحته على نحو ما ينبغي لولد أن يُعنى بأحد والديه، ولم أهمل أي جزء من واجبي نحوه [1].

ظلت الحال كذلك مدة طويلة، إلى أن جاء يوم خرج فيه الأمير كورگين الذي كان شديد الولع بالصيد في رحلة صيد من دون أن يصطحبني معه، ولم يكن يرافقه سوى عدد قليل من الأفراد بدون دروعهم، وبعدما عبر الأميرُ العادل نهر جيحون حيث كان منهمكاً جداً في ملاحقة الطرائد هاجمه تغلق تيمور والسلطان كولي وأردياه قتيلاً.

ولما بلغني الخبر تأثرت كثيراً، فتوجهت من فوري إلى تلك البقعة التي كان الجثمان ممدّداً فيها، وبعد أن رفعته بكل احترام نقلته إلى ضفاف النهر، وتوليت غسله، وبعد ذلك حملناه إلى

(1) هذا ما يفسر التنافس الطويل بينه وبين الأمير حسين، وهو ما لم ينتهِ إلا بوفاة هذا الأخير.

سالي سراي [1] حيث واريناه الثرى. في إثر هذا الحدث نصب كل من تغلق تيمور وسلطان كولي عبد الله أكبر أنجال الأمير القتيل ليتولّى زمام الحكم، إلا أنه أقسم يمين الولاء لبايان كولي، وهو الخان الذي كان الأمير المقتول قد نصبه، ووعد بتأييده في منصبه الرفيع شريطة أن يعين عبد الله وزيراً لديه، ثم توجهت الجماعة بأكملها إلى سمرقند، وما إن وصلوا إليها حتى قتلوا الخان البريء والمسالم.

ولما كان الوزير عبد الله مقتراً، ديدنه أن يأخذ من الجميع، وألا يعطي أحداً، واستبد به الطمع في ثروة من قتلا (الأمير والخان)، فقد تولى المتآمرون ترقية تيمور شاه أغلان نجل منصور تيمور ليتولى الخانية، ومن ثم انقضوا على حزب عبد الله، وخاضوا غمار ثلاث معارك معهم. لكن بعد أن عبر عبد الله نهر جيحون فوق حصانه لجأ إلى بلاد ختلان واندراب، حيث وافاه الأجل هناك [2].

الفصل السادس

1359 م: في سنة 760 هـ بعد أن بلغت من العمر أربعةً وعشرين عاماً، ولما كنت أشعر بالاشمئزاز الشديد من السلوك المشين الذي بدر من تغلق تيمور والسلطان كولي، ووجدت أنه ما من سبيل آخر للإصلاح، فقد امتطيت صهوة جوادي قاصداً قبيلة بايان سلدوز، وناشدته أن ينضم إلي في الانتقام من قتلة الأمير والخان الراحلين، فوافق على الاتحاد معي، وتمنطقنا السيوف ننشد الثأر. وعلى الرغم من أن قلعة شدمان كانت عائدة لي إلا أنني تقاسمتها مع بايان سلدوز على نحو ودّي، وملّكته إياها من أجل ضمان تعاونه، ولأثبت لبني البشر أن قتلة الملوك ينبغي أن يعانوا دوماً من الانتقام.

كما أقنعت حاجي برلاس، وهو سليل قراجار نويان، بأن ينضم إلي في الثأر لمصرع كل من الأمير والخان؛ ولذلك سحبت قواتي من سمرقند وزحفت نحو كش. ولما بلغت المناطق المجاورة لها أرسلت في طلب حاجي برلاس الذي أتى وانضم إليّ، ثم اتفقنا على التوجه إلى سمرقند، وإقصاء تيمور خان عن الخانية.

وبمقتضى عزمنا هذا تقدمنا ومعنا جميع قواتنا نحو سمرقند، وخلعنا تيمور خان عن السلطة، واستولينا على مملكة ما وراء النهر بأكملها، وتقاسمناها فيما بيننا نحن الثلاثة، فاستوليت على كش، مع المناطق التابعة لها، واتخذتها مقراً لإقامتي.

---

(1) كانت سالي سراي عاصمة الأمير أو مقر إقامته، وهي تقع على ضفاف نهر جيحون.
(2) يقع هذان البلدان بين الدرجتين 36 و 38 من خط العرض شمالاً، وبين الدرجتين 68 و 70 من خط الطول شرقاً.

وهكذا حكمنا نحن الثلاثة بلاد ما وراء النهر كأننا ثلاثة أشقاء، وكلما ثبت تمرد أي من الأمراء أو الجند أو المواطنين كنا نتّحد في معاقبته. كنا متفقين معاً على نحو جيد، وتقاسمنا العوائد على نحو ودّي، إلى أن ودّع هذا العالمَ فجأة بايان سلدوز بعدما أفرط في معاقرة الخمور.

ولقد قلت لحاجي برلاس: «هل لنا أن نتقاسم نصيب سلدوز فيما بيننا، أم نقدمه لولده بحيث تبقى قواته مخلصة لنا وتستمر الأمور كالمعتاد؟» لكنه لم يعر آذاناً مصغية لذلك، واستولى على جزء من نصيب سلدوز، ونتيجة لذلك وقعت نزاعات عنيفة بينه وبين أتباع سلدوز.

لما بلغت هذه الأخبار مسامع الزعماء المجاورين لهما رفع كل منهم لواء الاستقلال، لكنني واصلت حكم بلادي بهدوء وانتظام.

اندلعت في ذلك الوقت تقريباً اضطرابات عدة في بلاد ما وراء النهر، وفي تلك الأثناء جاء إلي الخاصة والعامة في طوران وشرحوا لي أوضاعهم قائلين: «إنه ليس هناك الآن أي ملك في هذا البلد، كما أن المستبدين الصغار يضايقوننا، وقد عقدنا العزم على مغادرة البلاد إلى أن ينصبوا أحدهم على عرش السلطة قادر على حمايتنا». وما إن سمعت ذلك حتى استيقظ طموحي، وأردت الاستيلاء على المملكة كلها، وأن أصبح عاهلها المطلق، لكنني وجدت أنني لا أستطيع أن أعوّل على دعم الشعب، لذلك اعتقدت أن من الأفضل في الوقت الراهن أن أكون على علاقات طيبة مع مختلف الزعماء المستقلين، وأعمل على بث بذور الشقاق والفرقة بينهم بدرجات متفاوتة، بحيث أستطيع أن أجعلهم يخضعون لي وينقادون لأمري، لكن لتنفيذ ذلك وجدت أن الصبر والمثابرة والمعونة الإلهية ضرورية.

إبان تلك السنة ذاتها (760 هـ) بدأت في اتخاذ التدابير اللازمة لاجتثاث شأفة أولئك الأمراء الصغار في بلاد ما وراء النهر، وكتبت لكل واحد منهم رسالة على حدة تتضمن الطلب إليهم بالانضمام لي، وأنه ينبغي علينا أن نتقاسم البلاد بيننا على نحو ودي. وكان ردهم جميعاً إيجابياً على رسائلي، ولكن أياً منهم لم يكن على علم بمراسلاتي مع الآخرين.

وبعد أن أذكيت على هذا النحو الطموح والطمع في كل منهم، وبعدما اتفقنا على أن نتقاسم أي بلد يخضع لنا بالتساوي، تمسك كل منهم بحبل الولاء لي. وتلك كانت قضية خطيرة جداً، إذ إن إيلشي بُغا سلدوز كان قد نصّب نفسه حاكماً على بلخ؛ بينما استولى بيازيد جلائر على سيحون؛ في حين رسخ خواجا ايزدي نفسه في شمرغانات؛ وكان ملوك بدخشان يتنافسون في ما بينهم في جبال تلك الولاية؛ وكان هاي خسرو وألتاجا بيردي قد استوليا على ختلان وأرهينغ؛ بينما استولى خضر يوسوري على كل البلاد الكائنة بين جسر طشقند والمنطقة المجاورة لسمرقند... لذا فإن انتزاع المملكة من هؤلاء الزعماء، الذين كان كل واحد منهم

يتنافس في الفخامة مع الآخر، كان في الواقع مهمة صعبة، لكني عقدت العزم على النهوض بذلك بجعلهم يتنازعون فيما بينهم.

ولذلك كتبت رسالة إلى إيلشي بُغا مفادها أن سكان بدخشان قد اشتكوا لي من حكامهم، وناشدوني أن أمضي إلى هناك للتخفيف عنهم، وأنني مصمم على فعل ذلك، وإذا كان سينضم إلي فإن ذلك البلد سيُضمّ إلى الأراضي الخاضعة لسلطانه، وإلا - وبما أن واجبي يملي علي أن أنصف المظلومين- فيتعين علي أن أبذل كل ما في وسعي. ولما وصلته رسالتي حرّك جيشه من فوره للهجوم على ملوك بدخشان الذين لجؤوا إليّ فوراً، وعرضوا تسليم أمر أنحاء البلاد كافة إن جنّبتهم الخطر المحدق بهم، وأنهم سيصبحون من رعاياي.

وكتبت رسالة أيضاً إلى ايزدي حاجي حاكم شمرغان، مفادها أنه لما كانت مقاطعة بلخ ليست خاضعة للاحتلال في الوقت الحاضر فقد أرسلت جيشاً للاستيلاء عليها، ولكن إذا كان لديه أي طموح ليشاطرني في فتحها فإنه قد يصبح شريكاً لي، وقد استحثه هذا، فتولى فوراً فتح بلخ. وما إن بلغ الخبر مسامع سلدوز حتى قفل عائداً من بدخشان، وبلغ هسار شدمان وبلخ.

وتمسك ملوك بدخشان بحبل الولاء، وتعهّدوا أنني كلما، أو حيثما، دعوتهم إلى الاجتماع فلسوف يحضرون إليّ وبصحبتهم أتباعهم وأنصارهم جميعاً.

ولما دخل سلدوز مقاطعة بلخ سحبَ حاجي ايزدي عاهل شمرغان جيشَه وتصدى له، لكنه التجأ إلي بعد أن مني بالهزيمة، وهكذا فقد أخرجت سلدوز وأعدت شمرغان له بعدما جعلته أحد الخاضعين لي.

وفي هذا العام ذاته زحف من كابل الأمير حسين حفيد الأمير كورگين، الذي كان يسعى وراء وراثة جده، فانطلق ومعه قبيلته بأكملها وجميع مناصريه وأتباعه نحو بلاد ما وراء النهر. كما كتب لي رسالة يلتمس فيها أن أمدّ له يد العون والمساعدة. ولما كانت أخته إحدى زوجاتي فقد تحركت العاطفة في نفسي، فشجعته على التقدم نحو بلاد ماوراء النهر. والواقع أن ذلك كان الخطأ الأكبر الذي ارتكبته في حياتي؛ إذ إنني سمحت بمصادقة إنسان ذي نزعة سلوكية جديرة بالازدراء، ومتغطرس وبخيل، بيد أنني لما كنت أجهل صفاته آنذاك فقد نصحته بغزو بدخشان، وهو ما فعله، ونصب نفسه حاكماً لهذا البلد.

في هذه السنة (760 هـ) رزقت بولد، وبما أنه كان مولودي البكر فقد أطلقت عليه اسم محمد تيمناً بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولما حدث ذلك في وقت كان النجاح فيه حليفي فقد اعتبرته بمثابة فأل حسن، وأضفت لاسمه لقب جهانكير أي فاتح العالم، وأولمت

وليمة ضخمة حضرها جميع أعيان بلاد ما وراء النهر، ما عدا اثنين من الخاصة؛ أولهما بيازيد جلائر، والآخر حاجي برلاس.

ومع ذلك لم أظهر أي استياء، بل عطفت على جميع أتباعهما وأنصارهما، مما حضهم على مناصرتي، ونتيجة لذلك قصدتني قبيلة برلاس التي كانت تخضع لإمرة الأمير حاجي لأنهم كانوا يشعرون بالاشمئزاز من سلوكه. كما أن والد زوجته قد سعى إلى اغتياله لأنه كان يطمح إلى تولي حفيده زعامة القبيلة ليتمكن من جمع كل السلطات في يده. لكن بعد أن اكتشف الأمير المؤامرة أرسل ذلك النذل إلى الجحيم؛ ثم جاء ليلتمس المشورة مني بشأن ما إذا كان يتحتم عليه أن يُهلك هذه الأسرة، فقلت له إن الانتقام من الأطفال سيكون أمراً ليس لائقاً أبداً، فليجعلهم يذوقوا الفاقة والبؤس فقط.

في السنة ذاتها (760 هـ) استولى الأمير حسين على مملكة بدخشان بأكملها، وأخذ في الأسر ثلاثة من أمراء تلك البلاد الذين كانوا ورثة الملوك السابقين، وتولى وزيره محمود يوسوري بدون وجه حق تنفيذ حكم الإعدام فيهم، لكن الأمير حسين حمل تبعة استباحة دمائهم، واستولت على ورثتهم الرغبة في الاقتصاص منه، فحصلوا على انتقام شرعي منه على نحو ما سنذكره لاحقاً.

الفصل السابع

حينما بلغت من العمر خمسة وعشرين عاماً زحف نحو بلاد ما وراء النهر تغلق تيمور خان سليل جنكيز خان، الذي كان ذا سيادة مطلقة على إقليم منغوليا، لإخضاعها له، وعسكر على ضفاف نهر سيحون، ومن هناك أرسل إلي مرسوماً إمبراطورياً يقضي باستدعاء جميع الزعماء والقادة ليكونوا في حضرته [1].

ولما اعترى الخوف الشديد حاجي برلاس راح يستمد مني النصح والمشورة لما ينبغي أن نفعله في ما يتصل بمناهضة تغلق تيمور، فقلت له: «إنه لمن المستحسن أن نزوره بأنفسنا، لكن دعنا نرسل قبائلنا وجحافلنا المرابطين في الطرف الجنوبي من نهر جيحون إلى خراسان، وبعد أن يدخل بلاد ما وراء النهر سنرى ما إذا كان يعتزم البقاء، فإن توقف هناك فسيحيل هذا الإقليم يباباً، وإذا لم يكن ينوي الاستيلاء عليه فلسوف نحضر مجلسه». وبعد نقاش مستفيض اتفقنا على أن أزور بعد حين تغلق تيمور ومعي قومي، وأسعى لصون البلاد من النهب والسلب متوسلاً ببراعتي؛ لأن «السياسة غالباً ما تكون متفوّقة على السيف». كما استقر الرأي على أن

(1) النسخة المطبوعة من الشرعة ص 15.

يزحف حاجي برلاس نحو خراسان وبرفقته القبائل والعشائر، في حين أبقى في المؤخرة لأتولى حماية البلاد إن كان ذلك ممكناً؛ وإن تعذر ذلك فسوف أتبعه.

ونتيجة لهذا العزم فقد منحت حاجي برلاس مباركتي، وأرسلته ومعه جميع القبائل والجحافل، إلا أنني رافقتهم طوال يومين أو ثلاثة من الرحلة. وبعد ذلك قفلت عائداً وحدي، واتخذت كش مقراً لإقامتي. وبعد أن شرح الأمير بيازيد الأمر لقبيلته سار معهم للقاء تغلق تيمور.

أصيب والدي طرقاي بمرض شديد في ذلك الحين، وللعناية به اضطررت إلى أن أرجئ زيارتي لتغلق تيمور. لكن عندما دنا الأجل المحتوم أسلم والدي المبجل الروح إلى باريها، وودع هذه الدنيا الفانية، وواريته الثرى على نحو مشرّف في مدافن الأولياء الصالحين في المقبرة المجاورة لكش. وبعد هذا الحدث زارني كافة الأعيان وكبار الشخصيات في بلاد ما وراء النهر، وأجمعوا على القول لي: «نحن اثنا عشر ألف فارس، ونتمنى عليكم القبول بالسيادة، وإذا ما أذنتم لنا فإننا سنجعل الخطبة باسمكم من فوق المنابر؛ لأن قوانين السياسة والحكم تنصّ على أن كل من لديه اثنا عشر ألف فارس مخلصين وأوفياء له، ويُعرض عن ارتقاء العرش فهو ليس جديراً بالشهرة والمجد». ولما كنت أعلم أن اقتراحهم هذا ناجم عن خشيتهم من تغلق، وأنه لا يمكنني أن أمحض ثقتي لأنصار يعملون بأجر أو معوزين إلى أن أختبرهم فقد اكتفيت بالتأكيد لهم بأنه لا يوجد أي خطر، وبالتالي فلا ضرورة لهذا الإجراء الذي تعوزه الحصافة.

وفي ذلك الوقت تلقيت دعوة ثانية من تغلق تيمور للاجتماع به، ولذلك بينت للقادة والأعيان وكبار الشخصيات في بلاد ما وراء النهر أن مجيء تغلق تيمور كارثة غير متوقعة، ونظراً لما اشتهر عن المغول من الجشع والطمع، فسيكون من الأفضل أن نغدق عليهم الهدايا، فنحملهم على الامتناع عن القتل والسلب والنهب [1].

وفي إثر ذلك دخلت الفرقة العسكرية الأولى للمغول بقيادة محمود يوسوري بلاد ما وراء النهر على رأس قوة كبيرة بقصد نهب البلاد وجعلها قاعاً صفصفاً، وعسكروا في حراز، فحشدت قومي، واصطحبت معي كبار الشخصيات وعدداً من التحف النادرة والهدايا الثمينة، وتقدمت باتجاه جيش المغول.

ولما بلغت حراز التقيت قائد الجند محمود يوسوري، وتعانقنا ونحن على صهوتي جوادينا، ومن ثم انتقلنا إلى خيمته حيث أكرم وفادتي. وبعدما تناولنا العشاء قدمت له عدداً من الأشياء

(1) يجب ألا يخلط المرء بين المغول [مغول منغوليا] والجات القدماء، فهؤلاء هم من الأتراك الذين لم يهتدوا للدين الإسلام، وكانوا يقيمون في ذلك الحين في بلاد المغول أو إقليم المغول؛ وبعدئذ أطلق تيمور عليهم تسمية «مواطني»، والواقع أنهم كانوا أتباع المتحدّرين من نسل جنكيز خان. انظر أيضاً النسخة المطبوعة من الشرعة، ص 25.

الثمينة، وطلبت إليه أن يتوقف في هذا المكان، بينما يتحتم علي الانتقال إلى الفرقة التالية من الجيش، وزيارة أمراء الجند الآخرين. ووفقاً لذلك فقد سرت إلى الأمام باتجاه الخط الأول للجيش، وفي سهول كيشيم زرت القائد العام وسواه من قادة الجند، فتقدموا للقائي، واستقبلوني بحفاوة كبيرة، وأثنوا علي جزيل الثناء. فخدعتهم أيضاً بالهدايا الكثيرة، وأقنعتهم بأن يتوقفوا في الصحراء إلى حين تقديمي فروض التحية والاحترم الواجبة للخان.

وافق قادة الجيش الثلاثة على طلبي، ونظروا إلى زيارتي على أنها بمثابة فأل حسن، وكتبوا إلى سيدهم رسالة في مصلحتي.

وبعد حين قدّمت فروض التحية والاحترام الواجبة لتغلق تيمور الذي كان يعسكر على ضفاف نهر سيحون، وأتيح لرؤساء القبائل وكبار الشخصيات في البلاد شرف تحيته وتقديم كثير من الهدايا. ولما أحيط الخان علماً بأن قادة الفرق العسكرية الأمامية قد قبلوا هدايا ثمينة من سكان بلاد ما وراء النهر ثار غضبه، وأمر بمصادرة الهدايا كلها، وإيداعها في خزينته. وقد ألحق هذا الأمر أذى كبيراً في نفوس أمراء الجند، فتوعدوا بالانتقام منه.

وردت في ذلك الحين أنباء بأن أمراء الجند في بلاد المغول قد شقوا عصا الطاعة وأعلنوا العصيان والثورة على تغلق تيمور، ولذلك طلبوا مشورتي في أن أزحف بنفسي نحو أولئك المتمردين، أم أن أوجه جيشاً لإخضاعهم؟ فأجبتهم: «إن توجهكم إلى الصحراء ينطوي على خطر واحد فقط، لكن تجريدكم جيشاً من دون أن تكونوا على رأسه فمحفوف باثنين من المخاطر» [1]، ولقد سُرّ الخان بنصيحتي هذه أيما سرور، وقفل عائداً باتجاه الصحراء لإخضاع أمراء الجند الذين شقوا عصا الطاعة.

ونصّبني رئيساً لقبيلة قراجار المنسوبة إلى (طومان) وحاكماً لبلاد ما وراء النهر، فضلاً عن سماحه لي بالحصول على خراجها. ونتيجة لذلك فقد عدَّ سكان ذلك البلد أنفسهم الكبار منهم و الصغار والجند والمواطنون مدينين لي بفضل عظيم، ورفعوا أكفهم بالدعاء لي بأن يكون الفلاح حليفي، مكافأة لي على تجنيبهم - بنعمة وفضل من الله - مثل هذه الكارثة. وكان الأمير جلائر ومعه قومه قد قدم فروض التحية والاحترام الواجبة للخان، ثم انضم إلي. وهكذا أصبحت أنا الحاكم المطلق لبلاد ما وراء النهر قاطبة، وعندئذ أرغمت جميع القبائل البدوية بأن تعمل وفق قوانيني الخاصة، واتخذت مدينة كش مقراً لإقامتي، وهي الحاضرة التي كان يطلق عليها اسم شهر سبز أو المدينة الخضراء [2].

---

(1) أولاً: أن يمنى جيشه بالهزيمة على يد المتمردين، وثانياً: أن يلتحقوا بصفوفهم.
(2) تقع على خط العرض 20 . 39 شمالاً.

الفصل الثامن

1361 م: في ذلك الوقت تقريباً؛ أي سنة 762 للهجرة، زارني الأشراف والعلماء ورجال الدين وسواهم من البارزين في بلاد ما وراء النهر، والتمسوا مني أن أسمح بأن تكون الخطبة باسمي، لكنني طلبت إليهم تأجيل ذلك، إذ إنني فكرت ملياً في أن من الضروري في المقام الأول تخليص البلاد من اللصوص والسارقين، وإخضاع جميع القبائل البدوية إخضاعاً كاملاً، وبعد ذلك سيكون من السهل أن تكون الخطبة وتضرب النقود باسمي.

في ذلك الحين وصلت إليّ رسالة من قائد المغول الأمير خضر يوسوري، يبلغني فيها بقدومه وبرفقته قبيلته بأكملها ليصبحوا من رعاياي، فغمرتني البهجة لخضوعه لسلطاني طوعاً، وكنت على قناعة بأن لواء سيادتي آخذ بالارتفاع أكثر فأكثر يوماً بعد يوم.

1361 م: ولما بلغت السادسة والعشرين من العمر في هذا العام تولى الأمير حسين حفيد الأمير كورگين، الذي كنت قد شجعته على غزو بدخشان، الهجوم على حصن شدمان العائد لميان سلدوز، والتمس مني أن أمدّ له يد العون والمساعدة. ونتيجة لصلة القرابة التي تربط بيننا فقد وافقت على مساعدته، فأرسلت فرقة عسكرية بإمرة خضر يوسوري لتنضم إليه، وبعد ذلك ببضعة أيام زحفت على رأس فرقتي العسكرية. وحينما علم سلدوز بتحركاتي أخلى حصن شدمان لأنه وجد أن لا قبل له بمواجهة مثل هذه القوة، وفر إلى بدخشان. وعندما بلغت أنباء هذه الأحداث مسامع بهاء الدين الأمير الشرعي لتلك البلاد فرّ إلى الجبال، واستولى الأمير حسين على بدخشان بأكملها من دون عناء يذكر.

مهما يكن من أمر فقد كان الأمير حسين يشعر بالحسد تجاه تحركاتي، وحينما بلغت شدمان، كتب لي رسالة شكر خوفاً من «أن أفوز بحصة الأسد» قال فيها: إنه بسبب تقديمي يد العون له لم يستول على الحصن فحسب، بل على كافة أنحاء بلاد بدخشان المنبسطة، وأنه بالتالي يلتمس مني ألا أتجشم عناء التقدم مسافة أبعد من ذلك، وأن أتحلى بالطيبة لأقفل عائداً إلى عاصمتي، وأنني السيد، ولعلي أفعل ما يحلو لي، وأنه سوف يبقى أبداً مديناً لي بالفضل العظيم العميم، ويعتبر بدخشان بمثابة هدية منه.

جاء لزيارتي في ذلك الحين كيكوباد شقيق كيخسرو ختلاني الذي كان يلقّب بـ (قاتل الملوك)؛ لأنه قتل ملك بدخشان، وبدأ يتملقني. لكن بما أنني لا أثق به على الإطلاق فقد نفذت فيه حكم الإعدام.

ولما وصلت إليّ رسالة الأمير حسين تصرّفت على نحو ودّي معه، لكنني عينت خضر يوسوري، الذي كنت أعدّه ذراعي الأيمن، قائداً لحصن شدمان، وقفلت عائداً إلى عاصمتي مدينة سبز، واتخذتها مقر إقامتي.

بعد ذلك ببعض الوقت وجهت دعوة لخضر يوسوري لكي يأتي من شدمان لزيارتي. وبعد أسبوعين جاء إلي بعدما تلقى في السابق هدايا ثمينة من الأمير حسين، فاستقبلته بوصفه حلّ ضيفاً علي، وأكرمت وفادته، وبعد أن جعلته يرتبط بي أعدته إلى شدمان من جديد.

جاءت إلي في ذلك الوقت تقريباً سفارة من الأمير حسين، زاعماً أنه كان في ضيق شديد، ويلتمس مني أن أمد له يد العون والمساعدة؛ لأن سلدوز هاجمه، وأهالي بدخشان تخلوا عنه، ويخشى أن يعتقل في أي يوم، وأن الفرصة الوحيدة المتاحة أمامه للنجاة والسلامة أن أهبّ لنجدته.

وبعدما مس وتراً حساساً يتصل بشرفي أمرت فوراً بأن يزحف جيش من سبز نحو بدخشان، ووجهت رسائل إلى الأمير بيازيد وخضر يوسوري تتضمن الإيعاز لهما بأن يهبّا لنجدة الأمير حسين، فتوانى أولهما عن مساعدته، بينما انضم إليه ثانيهما من فوره. وفي غضون ذلك زحفت نحو بدخشان، وحينما بلغت مسامع ميان سلدوز أنباء اقترابي وتقدّم الأمير حسين لملاقاتي ظن أن الفرار عوضاً عن البقاء ينطوي على قدر أكبر من الحكمة. وقد انتظرني الأمير حسين، واستقبلني بحفاوة. وبعدما جعلته يسلم من عدوه على هذا النحو تركته وفي حوزته بلاده، وقفلت عائداً إلى عاصمتي.

ولما بلغت البوابة الحديدية وصلت إليّ أنباء مفادها أن عمّ تيمور حاجي برلاس الذي فر إلى خراسان من فرط رهبته من تغلق تيمور قد عاد، وزار بيازيد جلائر الذي كان قد عصى أوامري بألا يتوجه لنجدة الأمير حسين، وأنهما لم يتفقا على الاستيلاء على مدينة كش العائدة لي وحسب، بل استوليا عليها فعلاً.

وحينما تلقى أنباء اقترابي انطلق بجيشه، وتهيأ لمنازلتي. ولما كنت على الدوام أعتبر حاجي برلاس من أهلي فقد كتبت له رسالة:

[نص الرسالة مكتوب باللغة التركية]

تتضمن تأنيبه على إحداث صدع في الصداقة التي تربطنا، عارضاً أن أمنحه منطقة كش إن انضم إلي من جديد. لكنه بعد تسلمه رسالتي أصدر أوامره بإهلاكي، وزج بجيوشه في ميدان القتال في موضع يعرف باسم أكيار، كي لا أستطيع أن أجتازه. ولما وجدت أنه مصمّم على القضاء علي استقرّ رأيي على أن أخوض معركة نظامية معه، يحدوني الأمل في أن أنتصر عليه بمهارتي الفائقة في المناورة.

وفيما يلي عرض للتدابير التي اتخذتها من أجل قتال حاجي برلاس:

وزّعت قواتي إلى سبع فرق عسكرية، وأمرت كل فرقة بمهاجمة العدو على التوالي، وحسبت أنه بحلول موعد تنفيذ الهجوم السابع ستستسلم قواته بلا ريب. ولما كان خصمي ما يزال مستولياً على أكيار فقد حرّكت قواتي على النحو التالي:

توليت زمام قيادة القلب بنفسي، وأوكلت إلى خضر يوسوري المسؤولية عن الميمنة، وعهدت بالميسرة إلى جاكو برلاس، وقسمت القوات المرابطة في سبز إلى أربع فرق عسكرية. قضينا اليوم الأول في إجراء المناورات، وفي اليوم الثاني شنينا هجمات متكررة على خطهم، وكان ثمة قدر كبير من القتال. في الليلة التي سبقت اليوم الثالث[1] التمست بركات الشخصيات الدينية البارزة، وما إن انبلج فجر ذلك اليوم الذي يمكن اعتباره فجر طالعي الميمون حتى اعتليت صهوة جوادي واندفعت إلى الأمام، لكن حاجي برلاس الذي استولى عليه الفزع فر إلى سمرقند، والتجأ إلى حمى بيازيد جلائر. وبعد هذا الظفر رتّبت قواتي ترتيباً جديداً، واصطحبت بعض القوات المرابطة في سبز، وبعض التي تأتمر بإمرة خضر يوسوري بقيادة أميرهم، وخرجت في إثر برلاس، وتخطيت البلاد حتى إنني بلغت المنطقة المجاورة لسمرقند. لكن عندما وصلنا إلى هناك خذلني جزء من قوات كش، على الرغم من أنني أحرزت النصر، فانشقت عني وانضمت إلى برلاس.

تبين لي أيضاً أن جميع القوات الأخرى كانوا مستائين، حتى إن الأمير جاكو الذي يتحدر من سلفي نويان قراجار قد تناسى الرابطة الأسرية التي تجمعنا، كما أن خضر يوسوري الذي كنت أعده بمثابة ذراعي اليمنى قد تخلى عن صراط الاستقامة وخضع للشيطان، فانشقا عني والتحقا بأعدائي.

وبعد أن احتشد أعدائي راحوا يتشاورون فيما بينهم، واستقر رأيهم على المبادرة بهجوم متزامن لحرماني من مدينة سبز. وعقدوا العزم أخيراً على التقدم نحو سمرقند أولاً حيث ينضم إليهم بيازيد جلائر، وعندئذ ينبغي عليهم مهاجمتي والقضاء علي.

ولا مندوحة عن ذكر أنه لما قدم هؤلاء القادة تحياتهم إلى بيازيد جلائر استقبلهم بحفاوة كبيرة، وأحسن وفادتهم وأكرمهم، وحاول أن يفوز بالحظوة عندهم، لكن كانت تنتابهم الريبة والتوجس من نواياه، ففروا من سمرقند. وما إن بلغ هذا النبأ مسامعي حتى كتبت فوراً رسالة إلى خضر يوسوري، أقنعه فيها بالعودة إلى جيشي، لكنه كان يخشاني أيضاً، ولم يثق بأي من الوعود التي قطعتها له، وقال: «ليكن للسيف القول الفصل في النزاع الدائر بيننا». ولما بلغتني هذه الأنباء حركت جيشي، واستقر رأيي على أن أتخذ موقفاً دفاعياً أولاً، وبعد ذلك أشن الهجوم عليه، وأقتاده أسيراً إذا ما استطعت.

---

(1) يعتبر المسلمون أن اليوم يبدأ من غروب الشمس.

ولما حرك يوسوري جيشه في موضع يدعى سيروز أصدرت الأوامر لقواتي بالبقاء في مواقعها الدفاعية إلى أن يستهلك العدو غضبه، ويستنفد قوته، عندئذ يتعين علينا مهاجمته. في اليوم التالي استعرضت قوات سبز، وبعدما قدمت لهم رايتي أمرتهم بالزحف نحو العدو، وهو ما فعلوه، واشتبكوا معهم. وحينما رأى خضر يوسوري لوائي اعتقد أنني في الخط الأول، فهاجم بقوة، ونشبت على الأرض معركة حامية الوطيس بين الطرفين، شهدت في بعض الأحيان جولات من الكر والفر، والإقبال والإدبار، مما أرهق الجميع وأوقع إصابات كبيرة. وفي غضون ذلك كنت في مؤخرة المعركة، ولما اعتقدت بأن العدو قد أنهك بما فيه الكفاية أمرت بأن ينفخ في الأبواق، وهجمت بقواتي المفعمة بالنشاط والممتلئة بالحيوية، فكانوا عاجزين عن الصمود أمام هذا الهجوم وولوا الأدبار.

وحينما أبلغ بيازيد جلائر حاكم سمرقند بنبأ هذه الحادثة اعتلى العرش فوراً، وخلع على نفسه صفة الأمير المطلق، وبما أنه لم يعد يشعر بالغيرة مني فقد كتب لي رسالة، وأعاد الدفء إلى رابطة الصداقة التي تجمعنا. أما حاجي برلاس الذي كان أيضاً يشعر بالغيرة من يوسوري، وأصبح الآن مطمئن البال، فقد ذهب وتولى قيادة قبيلته. إلا أنّ بيازيد وبرلاس واصلا نسج المكائد والدسائس ضدي على الرغم من كل هذه الأحداث، وعقدا معاهدة خاصة تنص على أنه طالما أن تيمور حيّ يرزق فينبغي عليهما أن يعتبرا السلام والهدوء ضرباً من المستحيل، ويتعين عليهما لذلك بذل قصارى جهودهما للقضاء عليه.

ومن أجل وضع هذه الخطة التي تنطوي على الخيانة والغدر والمكر حيز التنفيذ كتبا لي رسالة مشتركة يقترحان فيها أنه «يتعين علينا نحن الثلاثة أن نتقاسم مملكة ما وراء النهر على نحو ودي، وأن أي قائد يخضع لسلطاننا بهدوء يتعين علينا أن نعامله بلطف، وكل من يعارضنا يجب علينا أن نبيده». كما أنها توددا إلي متظاهرين بالصداقة والمودة بقصد خداعي.

وبعد ذلك بقليل خرج بيازيد من سمرقند، وبعد أن انضم إلى برلاس عسكرا قرب كش، وأقاما حفلاً ترفيهياً ضخماً.

الفصل التاسع

كانت المكيدة التي دبرها لي كل من حاجي برلاس وبيازيد جلائر تعتمد على أنه بعد توحيد قواتهما وإقامتهما معسكراً في سهول كش يتعين عليهما أن يشيعا بأنهما سيغزوا سيحون، وعندئذ سيغرياني بالقدوم إلى المعسكر، وبعد أن يقضيا علي يستوليا على منطقة سبز. ونتيجة لهذا الترتيب فقد أرسلا إليّ رسالة، ذكرا فيها: «بما أن رأيهما قد استقر على إخضاع سيحون فإن

كنت أود المشاركة في هذا العمل، فلسوف يعود ذلك بالنفع على الجميع».

وبما أنني لم أكن على علم بما يبيتانه من نوايا غادرة، واعتبرتهما مسلمين، فقد محضتهما ثقتي، وانطلقت للانضمام إليهما. وحينما بلغت سهول كش، رأيت عدداً كبيراً من الخيام البهية المنظر، ومعسكراً عادياً.

ولما دنوت من المعسكر خرج بيازيد ليلتقي بي، وليكرم وفادتي، وأخذني بيدي واصطحبني أولاً إلى الخيمة العامة، ثم قال: «بما أنه يجب أن يكون حديثنا محاطاً بالسرية، وليس لدينا متسع من الوقت، فمن الأفضل أن نذهب إلى الخيمة الخاصة»، وقادني إليها.

وحين دخلنا رأيت أن السجادة مرتفعة في جزء معين، وعندما اندفعت إلى الأمام، تراءى لي، أن هناك بئراً غطّوه باللباد، مما أثار الريبة والشك في نفسي، فتلكأت بالجلوس، وكنت على قناعة أنهما يعتزمان الغدر بي. في هذا الوقت جلس بيازيد إلى يميني، وبرلاس إلى يساري. عندئذ تظاهرت بأن رعافاً اعتراني؛ فتناولت منديلي ووضعته على أنفي، وخرجت فوراً من الخيمة الخاصة إلى العامة، وواصلت سيري فيها إلى أن انضم إليّ جميع قادة جندي، ولما كانوا مسلحين تسليحاً جيداً فقد نفخوا في الأبواق، وقفلنا عائدين إلى معسكرنا.

بعد ذلك شعر بيازيد بالخجل من سلوكه، ونحى باللائمة على برلاس.

في ذلك الحين لعَنَهما من أجلي الأميرُ سيد علي من ترمذ [1] الذي كان واحداً من أفاضل العلماء في عصره، قائلاً: «اللهم اجعل مثوى فاعلي الشر الدرك الأسفل من النار خالدين مخلدين فيها» فاستجيب دعاؤه، وشاء الله أن يدبّ الخلاف بين هذين النذلين، وبذلك سلمت من خبثهما وغدرهما.

في إثر هذا العمل الذي ينطوي على الخسة انفرط عقد المعسكر، وزحف الحلفاء نحو سيحون، وانطلقت نحو ترمذ. ولما وصلت إلى هذه المدينة انتاب الشيخ علي جرهيري الريبة بأنني أنوي الاستيلاء على هذا البلد واخضاع القبائل البدوية لسلطاني، فزحف بقواته نحوي. ولما كان الشيخ علي من رجال العلم وأحد رفاقي فيما مضى فلم أكن أودّ الشجار معه، لذلك حين حشد كل قبيلته وذوي قرباه واتخذ مواقعه في ترمذ القديمة أرسلت إليه موفداً لتذكيره أنه مدين لي بالفضل العظيم العميم، وإذا عارضني فسوف يستفيض به شعور الجحود بالجميل الذي يطوّق عنقه، وأننا لطالما كنا رفيقين، وأنني من رقّاه إلى قيادة قبيلته، إلاّ أنّه تصرف على نحو ناكر للجميل وخذلني، وانضم إلى بيازيد جلائر. لكن بما أن كلماتي تلك لم يكن لها أي تأثير عليه، وأثبت أنه ليس جديراً بالتقدير الذي أسبغته عليه، فقد لعنته، وتهيّأت لمنازلته. وما إن

---

(1) كانت ترمذ في ذلك الحين جامعة ذائعة الصيت.

وجد شيخ علي أن تعداد أتباعه ومناصريه يفوق تعداد جنودي حتى راح يتصرّف بتيه وخيلاء، ونزل إلى ميدان القتال بجرأة. وقد وزعت قواتي إلى ثلاث فرق، وشنيت هجوماً خاطفاً على العدو، فنزلت فرقتي العسكرية الأولى فكانت بينهم أشبه بحجر بين ظهراني سرب من الطيور، فتفرق شملهم وتبدّد جمعهم. وبعد أن ولى قائدهم الأدبار استوليت على هذه القبيلة بيسر، بينما هرب علي والتجأ إلى بيازيد الجلائري. وفي نهاية المطاف جعله الله تائهاً يهيم على وجهه في أصقاع الأرض إلى أن جاء يلتمس مني العفو والمغفرة. فصفحت عنه بسبب اسمه (علي)؛ لأن الحكماء يقولون: «إذا جاءك العدو متوسلاً متضرعاً جاثياً على ركبتيه فما عليك إلا أن تشكر الله وتحمده أن أوقعه في مأزقه هذا».

الفصل العاشر

1362 م: بلغت في سنة 763 هـ من العمر سبعة وعشرين عاماً، وفي هذه المناسبة قدّم فروض الاحترام لي زعماء القرى والقبائل والعشائر في أنحاء بلاد ما وراء النهر كافة كبيرهم وصغيرهم، وأوضحوا بتذلل أنه لم يكن لديهم عاهل يقوّم المظالم التي حلت بهم ويصلحها؛ إذ إنه كان في كل منطقة وبلدة طاغية يُعمل يد السلب والنهب فيهم من دون وجه حق، ويستولي على ممتلكات المحمّديين، وأن صبرهم قد استنفد تماماً، ومن المؤكد أنه بات يجب عليهم أن يهجروا هذه البلاد، إلا إذا نُصّب على العرش عاهل يحميهم. ونتيجة لهذا التوضيح كتبت رسالة إلى الأمير حسين أخي زوجتي الذي كان في ذلك الحين مستولياً على بدخشان، طالباً إليه فيها إذا كان يتحلى بالشجاعة الانضمام لي في تطهير بلاد ما وراء النهر من جميع الطغاة الصغار، وتخليص عباد الله البائسين من أيدي ظالميهم المتوحشين، وأنه إن فعل ذلك فباستطاعتنا عندئذ أن نتقاسم المملكة بيننا على نحو ودّي، وبذلك نحقق الشهرة العظيمة وذيوع الصيت. وقد وعدني بذلك، لكنه ما لبث أن دخل في مكائد غادرة تحاك ضدي يحدوه الأمل في أن يطيح بي أولاً، ثم يخضع الأمراء الصغار الآخرين. وبعدما وجدت الأمير حسيناً عاقداً العزم على القضاء عليّ على هذا النحو، وتوافرت لدي براهين جلية على خيانته، كتبت رسالة إلى تغلق تيمور خان أمير المغول، وسليل جنكيز خان، الذي كانت له السيادة المطلقة على التتار، تنص على أن «بلاد ما وراء النهر قد باتت الآن مقفرة، ولا يسكنها إلا المخادعون والغربان، لكنّه إن مدَّ لي يد العون فلسوف أجعلها منتجة».

وما إن وصلت رسالتي إلى الخان حتى حرّك قواته وزحف نحو بلاد ما وراء النهر على رأس جيش لا عدّ له ولا حصر، وحين بلغ ضفة نهر سيحون أرسل إليّ رسالة جاء فيها: «أنه عسكر

وجيشه الباسل الذي لا يعد ولا يحصى على ضفاف نهر سيحون، ويتعين عليّ أن أنضمّ إليه، ولكن في غضون ذلك يجب أن أحيطه علماً بالتدابير الأخرى التي يُستحسن اتخاذها». وفي ذلك الوقت أظهر بيازيد جلائر الولاء، ومضى لتقديم فروض الاحترام الواجبة لعاهله، لكنه خلّف مدينة سمرقند وراءه في عهدة نائب له. وما إن حضر بنفسه إلى البلاط حتى طلب إليه أن يسلّم مفاتيح المدينة، وعندما تلكأ في تقديمها أمر الخان بضرب عنقه، فنُفّذ أمره فوراً، وأرسل رأسه إلى سمرقند. أما حاجي برلاس الذي كان في البداية ينوي معارضة الخان فقد استبدّ به الخوف الشديد جراء معاقبة جلائر وولى الأدبار، والتجأ إلى مدينة كش، لكنه أرسل أوامره إلى قبيلته وأهل بيته بمغادرة البلاد. وقد ندم الآن على سلوكه تجاهي، واعترف بحماقته، والتمس مني العفو والمغفرة، ومن ثم عبر نهر جيحون.

في ذلك الحين، أرسل تغلق تيمور خان جزءاً من جيش المغول في مهمة مطاردة فلول حاجي برلاس، فدارت رحى معركة حامية الوطيس بين هذين الطرفين المتنازعين على ضفاف نهر جيحون. أبلى في هذه المناسبة شغهام برلاس - وهو أحد أمراء القبيلة - بلاء حسناً، وهكذا شاغل الجيش الملكي لتمكين القبيلة ومعها ماشيتهم من عبور النهر بأمان، ما عدا نفسه، فبينما كان يدافع عن الحرس الخلفي لقي مصرعه على يد بعض جنود المغول. وفي غضون ذلك عبر حاجي برلاس النهر بأمان، وزحفت القبيلة نحو خراسان. وحينما دخل تلك البلاد عامل سكانها بقسوة، وبدأ يقترف إثم التعسف والظلم، وراح ينتزع الإتاوة من القبائل الرحل في سبزوار، وبسبب ذلك نشبت مناوشات عدة. وبعد أن أمسك القرويون على حين غرة بآيدكو بهادر شقيق حاجي برلاس نفذوا حكم الإعدام فيه، كما أنهم أمسكوا بحاجي وأنهوا حياته. ولما كنت في تلك الفترة مستولياً على خراسان فقد خصصت منطقة جاسر لدعم عائلة حاجي وأتباعه وإعالتهم [1].

ولما بلغتني رسالة تغلق تيمور المتضمنة رغبته بحضوري فوراً بلغني أيضاً أن الأمير حميداً الذي كان كبير مستشاري الخان قال له: «إن في كل مدينة ومنطقة من بلاد ما وراء النهر حاكماً مستقلاً، لديه ما لا يقلّ عن ثلاثين ألفاً من الفرسان، ومن أجل مناهضتهم كنا مضطرين إلى تشكيل العديد من الفصائل، لذلك فمن الضروري إلى حد بعيد أن تقنع الأمير تيمور بأن ينضم إليك؛ لأنه إذا ما اتّحد مع أولئك الحكام الصغار فلسوف يكون عددهم أكبر مما لنا قدرة على مواجهته، لذلك ينبغي أن نستعجل وصوله، وبما أنه رجل عاقل جداً فلنتشاور معه بشأن أفضل التدابير التي يجب اتخاذها».

---

(1) كان حاجي برلاس عمه.

ونتيجة لهذه النصيحة كتب الخان إلي رسالة شبه أخوية يحثني فيها على اتخاذ استعدادات فورية للانضمام إليه.

وذلك هو ما عقدت العزم عليه بشأن موضوع زيارة تغلق تيمور؛ إذ استقر رأيي على كتابة رسائل إلى كافة الأعيان، وكبار الشخصيات، وأعيان القرى، وزعماء العشائر والقبائل من بلاد ما وراء النهر، ومما جاء فيها: «على كلّ من يرغب في الحفاظ على حياته وممتلكاته من الدمار والسلب والنهب على يد جيوش المغول، أن يلوذ بي فوراً، لكن أولئك الذين سيرفضون هذا العرض يتعين عليهم أن يغادروا البلاد من دون أن يضيعوا الوقت سدى». ونتيجة لهذه الدعوة جاء إلي معظم الزعماء والأعيان والبارزين من السكان حاملين معهم عدداً من التحف النادرة والهدايا، وما إن اجتمعوا جميعاً حتى اصطحبتهم وجميع جنودي وأتباعي وقدّمنا فروض الاحترام الواجبة للخان على ضفاف نهر سيحون، فاستقبلني بحفاوة بالغة، وحينما رأى الهدايا، سر كثيراً. ثم طلب مشاورتي في ما ينبغي القيام به، فقلت له: «إنني قبلت لأن خَرَاج بلاد ما وراء النهر يبلغ آلافاً عديدة من مسكوكات الدرست[1]، وأنه يجب عليه تعيين جباة للتحقق من نصيب كل منطقة، ومعاقبة أولئك الذين يرفضون تأدية ما يترتب عليهم»، وقد وافق على نصيحتي.

وبعد استيلائه على عرش بلاد ما وراء النهر طلب مشاورتي من جديد بشأن أفضل طريقة للحفاظ على سلطته، فقلت له: «إن السيادة أشبه بخيمة؛ يجب أن تكون أعمدتها العدالة، وحبالها الإنصاف، وأوتادها الإحسان، لكي تستطيع الوقوف بثبات في وجه رياح المحن والبلاء»، فغمره سرور عظيم بهذا التشبيه، وأردفت قائلاً: «يجب أن تستميل الجنود في هذا البلد بروابط الفضل والإحسان، فإن بقوا أحياء بعد الحرب فقد تجدهم يتصرّفون مثل الرجال، وإذا ما لقوا مصرعهم فقد يموتون وهم في خدمتك»، وقلت له أيضاً: «إن الخيرين في بلاد ما وراء النهر هم على جانب عظيم من الفضل، أما الأشرار فهم في غاية السوء؛ أتراك تكافئ الخيرين بالخير، وتترك السيئين وحدهم؟ دع السيئ للسيئ».

جاءتنا في ذلك الحين أنباء مفادها أن الأمير حسيناً قد جمع جيشاً عرمرماً في بدخشان، وما إن بلغ مسامعنا ذلك حتى شعر الخان بالخجل من سلوكه السابق تجاهي، والتمس مني العفو، وعهد إلي بقيادة البلاد بأكملها، وجميع جحافل بلاد ما وراء النهر، مع مدينة سبز، وشمرغانات، وصولاً إلى مدينة بلخ، وترك لي كذلك الحيازة الكاملة لجميع حقوقي الوراثية على قبيلتي برلاس وسواها من العشائر.

ولما بات من المؤكد الآن أن رأي الأمير حسين قد استقر على معارضة تغلق تيمور، وزحف

---

(1) قطعة نقود ذهبية.

بجرأة حتى بلغ نهر فاهش من أجل تحقيق هذه الغاية أصبح الخان مستغرقاً في التفكير، وطلب إليّ النصح، فقلت له: «ذلك هو واقع الحال، فإضافة إلى قوات بدخشان انضم إلى الأمير حسين حاكما ختلان وبكلان، ولذلك يشعر بأن لديه قدراً من الجرأة يكفي ليزاحمك، وإن أفضل خطة هي أن تُسند منصب آمر قلعة شدمان، وحاكم منطقة ختلان إلى كيخسرو، وهو القائد الذي يتولى قيادة الخط الأول للأمير حسين». ولقد وافق خان على هذه النصيحة، وأرسل هذا التفويض بوساطة رسول موثوق به، ومن ثم زحف على العدو. وحينما بلغ البوابة الحديدية، بعدما أقام معسكره، تبدّى أمامه الحرس الأمامي للأمير حسين، فأمر الخان فوراً بأن يزحف جيشه بإمرة بيكجوك لقتال العدو، بيد أنه حينما تلاقى الخط الأول لكلا الجيشين انشق كيخسرو وأتباعه، وانضموا إلى أنصار الخان.

ولما رأى الأمير حسين الحال الذي آل إليه خطه الأول حاول سحب بقية جيشه، لكن ميمنته وميسرته وليا الأدبار بعد أن استولى عليهما الذعر، وهكذا حقق تغلق تيمور نصراً يسيراً، وعمل جيش المغول سلباً ونهباً في جحافل تلك المناطق وقبائلها، بينما تراجع الأمير حسين نحو سمرقند[1]. وبما أن الخان أصبح مرتاح البال بشأن الأمير حسين فقد قفل عائداً إلى سمرقند، وبعدما دخل المدينة نفّذ حكم الإعدام بميان كولي سلدوز. ولما استولى على مملكة بلاد ما وراء النهر بأكملها اضطر زعماء المدن ورؤساء القبائل البدوية كافة إلى الخضوع لسلطانه، بينما سحق أولئك الذين شقوا عصا الطاعة وجميع الطغاة الصغار الذين يحسبون أنفسهم سلاطين. وكان ثمة قلة منهم ممن لم يرتكبوا أي مخالفات جسيمة وقد نالوا الحظوة، وأمروا بالالتحاق بصفوف جيشي.

وحينما جرى تطهير بلاد ما وراء النهر على هذا النحو من الطغاة الصغار كافة عدت وحمدت الله الذي بأمره تَحقّق ما كنت أرغب في القيام به، وأنزل العقاب بجميع خصومي.

تدارست في قرارة نفسي في ذلك الحين كيف لي أن أقنع تغلق تيمور أن يترك البلاد في حوزتي، لذلك اقترحت عليه أن فتح خراسان الآن سيكون أمراً يسيراً، وأنه في الواقع لا يتعين عليه إلا أن يرسل جيشه عبر نهر جيحون، ولن يلقى أي معارضة. فوافق على نصيحتي إلى حدّ بعيد، على أن يترك لي المسؤولية عن بلاد ما وراء النهر حين يتقدم للاستيلاء على خراسان.

جاءتنا في ذلك الوقت تقريباً أنباء مفادها أنه نتيجة للأمر الإلهي فقد شق رؤساء إقليم قبجاق عصا الطاعة وأعلنوا العصيان، ورقوا بيشكي أغلان وهو سليل آخر لجنكيز خان ليتولى الخانية.

---

(1) كنا قد ذكرنا من قبل، أن كلمة قُند Kund تستخدم للدلالة على بلدة ما، وكان سمر أحد أبطال بلاد فارس القديمة. وهي تعرف عند الإغريق باسم ماراكاندا، وتقع عند خط العرض 39.37 شمالاً وخط الطول 64.9 شرقاً. انظر: Edinburgh Gazetteer.

وفي هذه المناسبة طلب الخان مشاورتي من جديد؛ فقلت له: «إذا انطلقت فوراً وزحفت نحو الإقليم قبل أن يكتسب المتمردون القوة فقد تقضي عليهم بيسر، وتحافظ على سلطتك على جميع أنحاء البلاد، لكن إن ماطلت في ذلك فلسوف تلمّ بك المحن وتحيط بك النكبات». ولما استحسن نصيحتي أفرط في الإشادة بميزاتي، وعهد إلي بالإدارة الكاملة لبلاد ما وراء النهر، لكنه عين ولده إلياس خواجا حاكماً اسمياً.

وعندما عارضت هذا الإجراء أبرز لي الاتفاق المبرم بين جدينا قاجولي بهادر وقبلاي خان[1]، ونتيجة لذلك فقد قبلت منصب قائد الجيش، وأصدر أوامره لجميع أمراء الجند المغول بالانصياع لسلطتي. و انطلق بعد ذلك ليقمع تمرد الجند في إقليم قبجاق.

وبما أن إلياس خواجا كان يفتقر إلى المواهب في الحكم فسرعان ما بدأت قوات المغول بممارسة القسوة والظلم بحق سكان بلاد ما واء النهر، فعملوا قتلاً ونهباً في سكان المدن والمزارعين، ولذلك لم أضع الوقت سدى، وأبلغت الخان عن هذه الأحداث، وتذمّرت عنده من سوء سلوك جنوده، فتضمنت رسالته الجوابية مرسوماً إمبراطورياً «أنه يتعين علي أن أمارس السلطات المخولة لي بصفتي القائد العام، وينبغي أن أضع ولده تحت أي قيد يحلو لي، وأن أعاقب بشدة أياً من أمراء الجند المغول الذين يعصون أوامري، وأن كل شخص يجرّم بارتكابه أعمالاً ظالمة يجب أن يعاقب بما يتناسب وجريمته». وهكذا وجدت نفسي الحاكم المطلق لبلاد ما وراء النهر بأكملها، إلى جانب الجحافل والقبائل البدوية، فحظرت على إلياس خواجا، أو أي من أمراء جنده ممارسة السلطة على أبناء البلد. وبسبب ذلك ناصبوني العداء، وامتلأ قلبهم حقداً، وانتفخت أوداجهم غضباً، وأخذوا بممارسة ضروب القسوة والظلم. وبلغ بهم الطغيان حد أنهم نقلوا بالقوة أربعمئة من بنات سمرقند العذراوات، وأسروا سبعين رجلاً من أهل بيت محمد صلى الله عليه وسلم وحولوهم إلى عبيد لهم يسهرون على خدمتهم.

ونتيجة لهذه الأحداث أحاط بي البارزون في بلاد ما وراء النهر قائلين: «يجب أن يضع المسلمون نصب أعينهم أن هؤلاء المغول أقدموا على سَوْق أربعمئة من بناتهم من سمرقند، وجعلوهن جواري لديهم، وإذا لم يكن هذا عملاً مشيناً بما فيه الكفاية فما هو أسوأ من السماح لهم بالإمساك بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والشبان الراسخ إيمانهم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، من دون أي نقيصة، أيجب علينا نحن الذين نكرر يومياً عقيدته المقدسة، ونرجو شفاعته لإدخالنا الجنة، أن نسمح لأولئك المغول الأنذال أن يأخذوهم عبيداً من دون بذل أي جهد لتحريرهم؟!».

---

(1) انظر النسخة المطبوعة من الشرعة، ص 25.

وما إن سمعت هذه الكلمات حتى ثارت حميتي الإسلامية، وأرسلت أولاً رسالة إلى بيكجوك الذي كان يقود قوات المغول مفادها أنه يجب عليه أن يعيد فوراً السادة الأشراف جميعاً، وأطفال المسلمين كافة، الذين أسرهم. وبما أنه لم يكن لهذه الرسالة أي تأثير فقد تحدثت إلى إلياس خواجا بهذا الموضوع، وبما أن المغول لم يعيروا أي اهتمام لأوامره فقد فرضت عليهم الأمر بالقوة عبر امتطاء فرساني صهوات جيادهم وتحرير السادة الأشراف.

ونتيجة لهذا العمل التقي، حلمت في تلك الليلة أنني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي: «مكافأة لك على مدك يد العون والمساعدة لأهل بيتي فإن الله سبحانه وتعالى سيجعل سبعين شخصاً من ذراريك يعتلون عرش السيادة». فكتبت رسالة تتضمن هذه التفاصيل إلى قريني الذي أرسل لي الرد التالي: «إن الله تعالى أسبغ على ذرية سبكتكين من وافر نعمه مكافأةً له على إشفاقه على ظبي، أما أنت فقد مددت يد العون والمساعدة لأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وحسبك أن مكافأتك هي أعظم من ذلك، إلى درجة أنه اتسع نطاقها ليشمل سبعين من ذراريك»، فغمرني رده هذا بالحبور العظيم، وكنت في كل يوم أزيد في تقديم فروض الاحترام والتقدير الواجبة لأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وأنير على الدوام مجالسي بحضور هؤلاء؛ لأن قريني قال: «ما لم يكن في أي قبيلة أو مدينة أي من السادة الأشراف، وما لم يكن يسمح لرجال العلم بدخول أي قصر من دون أي قيد فليس ثمة بركة ولا خير ولا ورع ولا عفة».

ولما كنت قد بذلت قصارى جهدي في مقاومة جور المغول وقسوتهم فقد أخذ زعماؤهم يدبرون لي المكائد والخدع، وكتبوا رسالة لتغلق تيمور مفادها: «إن تيمور قد شق عصا الطاعة، واستولى على إقليم ما وراء النهر بأكمله، وهو يعتزم أن ينفذ حكم الإعدام بابنك إلياس خواجا». ولما وصلت الخان رسائل الزعماء، ولا سيما تلك التي وجهها بيكجوك، الذي يعد نفسه القائد الأعلى لقوات المغول، صدّق ما تضمنته من أكاذيب على أنها الحقيقة، فأصدر مرسوماً يقضي بتنفيذ حكم الإعدام بي. وكان ذلك ثالث مرسوم يصدر يقضي بقتلي.

وما إن تلقى زعماء المغول هذا الأمر حتى تشاوروا فيما بينهم، ونصبوا الأفخاخ لتدميري. وقد كنت على اطلاع تام بنواياهم، لكني تظاهرت بالجهل، إذ إنني لا أستطيع أن أمحض سكان بلاد ما وراء النهر ثقتي ليكونوا عوناً لي في مواجهة خصومي، لذا عقدت العزم على مشاورة قريني، وكتبت له رسالة بشأن هذا الموضوع، فأجاب وفقاً للأحاديث النبوية الشريفة: «عليك بالفرار عندما لا يكون البقاء آمناً». ثم رجعت إلى القرآن الكريم، فطالعتني الآية: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [يس: 38].

لذلك رحلت عن سمرقند، ويممت وجهي شطر جبل سالان، حيث مكثت ثمانية أيام. وفي نهاية ذلك الوقت وصلت إليّ إشارة من السيد الولي كُلال بأنّ علي التوجه إلى بلاد خوارزم.

الفصل الحادي عشر

جاء في ذلك الحين رسول من الأمير حسين، الذي كان في ذلك الوقت هائماً على وجهه في الجبال والصحارى، مشيراً إلى أنه لما كان كلانا هارباً فمن المستحسن أن نوحد جهودنا؛ فكتبت له رسالة بتعيين بئر ساجائي (أو ساجوش) مكاناً للقائنا، فيممت وجهي شطر ذلك المكان. وفي غضون بضعة أيام انضم إليّ؛ ومن ثم شرعنا بالتشاور في شؤوننا، واستقر رأينا على أنه يتعين علينا أن نقصد توكل بهادر حاكم خيوك، ونقنعه بالانضمام إلينا. ولما بلغنا خيوك تظاهر ذلك النذل بأنه نسي سابق تعارفنا، مصداقاً للمثل القائل: «الناس على دين ملوكهم،» وأراد اعتقالنا. وحينما تكشفت لي نواياه بيّنتها للأمير حسين الذي لم يصدقني في البداية، لكني قدمت له من البراهين التي جعلته مقتنعاً بها، وأخذنا نعدّ العدّة للذهاب إلى خوارزم، ونحن نعتزم بعد استيلائنا على هذا البلد أن نجلس على العرش، وأن نسعى لفتح بلاد ما وراء النهر.

وتلك هي الخطة التي وضعناها لفتح خوارزم[1]: بعدما وجدنا أن توكل بهادر قد تصرف على نحو غادر وناكر للجميل فقد غادرنا خيوك في منتصف الليل، وزحفنا بسرعة شديدة نحو خوارزم. وحينما بلغنا بانات (أو باياب) أرحنا جيادنا، وعقدنا العزم على محاولة الاستيلاء على قلعة أوركنج على حين غرة، لأنّ من شأن ذلك أن يؤدي إلى إخضاع خوارزم كلها، وبينما كنا نتداول بشأن هذه المسألة لاحت أمامنا سحابة من الغبار ترتفع في الصحراء، وسرعان ما استطعنا تبيّن كوكبة من الفرسان يقبلون نحونا، فامتطينا جيادنا فوراً، وأرسلت توغي برلاس ليستطلع لنا الأمر. ثم أخذت طريقي إلى قمة تل في الصحراء، وانتظرت هناك. عاد توغي برلاس بعد برهة من الزمن وأبلغني أن العدو كان توكل بهادر الذي جاء ليطاردنا وبرفقته قرابة ألف فارس. فأرسلت في طلب الأمير حسين فوراً، وسارعنا بصفّ قواتنا على التلة على نحو جعلها تبدو أكثر عدداً مما كانت عليه، والواقع أنه لم يكن لدينا سوى ستين فارساً وزّعتهم على خمسة فصائل، فعهدت بإمرة أولها إلى توغي برلاس؛ وثانيها إلى سيف الدين؛ وثالثها إلى بلخي بهادر؛ وكان رابعها للأمير حسين وأتباعه؛ وخامسها تضم أتباعي الذين استوليت معهم على قمة التلة، وبعد أن أجريت هذا الترتيب أعطيت كلاً منهم راية لتمييزهم.

---

(1) خوارزم مملكة مترامية الأطراف على الجانب الشرقي لبحر قزوين، يفصلها عن بلاد ما وراء النهر نهر جيحون، الذي يصبّ في بحيرة آرال.

بعد أن حرك توكل بهادر فرسانه البالغ عددهم ألف رجل شن الهجوم علينا، لكنه لقي مقاومة شديدة من جانب توغي برلاس وسيف الدين، فتراجعت فرقه العسكرية الأمامية وقد أصابها الذهول. فواصل هذان القائدان تقدمهما، وقاتلا بجرأة إلى درجة أن جواديهما أصبحا عاجزين عن الحركة، إلا أنهما واصلا القتال راجلَيْنِ إلى أن أرسلت لهما اثنين من جيادي، فامتطياهما. كما أن جواد بلخي بهادر لقي مصرعه فاضطررت إلى أن أقدم له جوادي. وفي هذا الوقت لم يبق لدى العدو سوى ثلاثمئة رجل، وأما البقية فبعضهم لقي مصرعه وبعضهم الآخر أثخنته الجراح أو ولى الأدبار. وفي غضون ذلك استل الأمير حسين سيف الشجاعة، وبعد أن شن هجوماً على قلب خط العدو اقترب من توكل بهادر، لكن جنود الأخير أحاطوا به، وبعد أن رأيت صهري في هذه الحالة أسرعت إلى الأمام حاملاً السيف بيدي وحرّرته.

ولما حان موعد صلاة المغرب كبح قادة العدو جماح أنفسهم إذ لم يكن قد بقي لديهم إلا مئة وخمسون رجلاً فقط، بينما تناقصت قواتي إلى اثني عشر رجلاً [1].

عقب ذلك انطلق توكل بهادر بقواته وهاجمنا، فنذرت مع الأمير حسين ومن تبقى من رفاقنا أنفسنا للموت، وحينما حاولوا الإمساك بنا أجهدت نفسي فأطحت بعدد من أبطالهم. في هذه اللحظة وبعد أن أصاب سهم جواد الأمير حسين ألقى به، إلا أن زوجته دلشاد آغا ترجلت فوراً وأعطته جوادها، وساعدتُها على ركوب الجواد الذي كانت تمتطيه زوجتي أخت الأمير حسين. عندئذ بدأنا بإطلاق سهامنا، ولم يخطئ أي منها هدفه، لكن فرغت جعبنا من السهام. ولم يبق منا سوى سبعة أشخاص يمتطون الجياد، إلا أن عدد أفراد العدو قد تناقص كثيراً، وانسحب معظمهم من المعركة، وترجلوا في السهل، فاغتنم فريقنا الصغير الفرصة للمضي قدماً في رحلته. وسرعان ما تبعنا الخصوم، لكنهم قصروا عن اللحاق بنا، وضلوا طريقهم في الصحراء. وبعد أن قطعنا مسافة طويلة في هذه السهول المترامية الأطراف وصلنا إلى بئر، ولما أضنانا الجوع والعطش ترجلنا، ومن حسن طالعنا أن مياه البئر كانت عذبة.

قضينا ليلتنا بجوار البئر، وفي الصباح أحصيت رجالنا فوجدت أنهم كانوا سبعة فرسان وثلاثة جنود راجلين من بلخ، فأمضينا النهار كله قرب البئر، ومن حسن طالعنا أن راعياً كان يرعى قطيعه في الصحراء قد جلبه لينهل من ماء ذلك البئر. ولما كانت مؤونتنا قد نفدت فقد ابتعنا عدة رؤوس من الماعز، وشوينا أجزاء منها، ووضعنا أجزاء أخرى منها بين الحجارة، وقضينا وقتاً ممتعاً جداً، ونمنا هناك ليلة أخرى. وفي غضون ذلك سرق الجنود الثلاثة من بلخ ثلاثة من خيولنا بكل جحود، وانطلقوا بها، وبالتالي فقد تناقص عددنا وأصبحنا سبعة أشخاص،

---

(1) انظر النسخة المطبوعة من الشرعة، ص 35.

ومعنا أربعة جياد فقط. لكن عزيمتي لم تفتر في ذلك الحين، حتى إنني طمأنت رفاقي، وحافظت زوجتي الموقرة أولجاي توركان آغا على معنوياتها أيضاً، وقالت: «لا ريب في أن حظوظنا قد وصلت الآن عند أدنى نقطة لها، ويجب أن ترتفع، ولذلك يجب علينا أن نسير».

ومما زاد شعورنا بالأسى أن أياً منّا لم يكن يعرف الطريق، ولحسن الطالع أننا صادفنا راعياً دلّنا على الطريق قائلاً: «سيقودكم هذا الطريق إلى أكواخ عائدة لبعض التركمان»، فشعرت بالسرور لهذا النبأ، وانطلقت سيراً على قدميّ. ولما أصبحنا على مقربة من تلك الأكواخ وجدنا أن سكانها قد غادروها ورحلوا بعيداً على ما يبدو، ولذلك دخلناها واستولينا على إحداها، لكن بعض التركمان الذي تخلّفوا عن اللحاق بغيرهم ظنوا أننا لصوص حينما شاهدونا، فهاجمونا. فوضعت زوجتي شقيقة الأمير حسين في أحد الأكواخ ومعي ثلاثة من رجالي أو أربعة، واتخذنا مظهر المتصدّين لهم حاملين الأقواس والنبال، لكنّنا كنا من دون نبال، وبعد أن استنفرنا قواهم للمعركة جردنا عندئذ سيوفنا، لكن حينما دنوا منا تذكّرني أحدهم ويدعى السيد محمد، الذي كان أحد معارفي القدامى، فجاء إليّ وعانقني، وأشفق على وضعي، ولما اطلع على جميع الظروف التي أحاطت بي نهى التركمان عن إلحاق أيّ ضرر بنا، وقال لهم: «ذلكم هو تيمور حاكم بلاد ما وراء النهر» وبعد أن شعر الرجال بالخجل من سلوكهم جاؤوا إليّ وانحنوا أمامي، فاصطحبني السيد محمد إلى مسكنه، وقدم لي فروض الاحترام والإجلال، وأظهر لنا كل ما في وسعه من الاهتمام.

كنت في ذلك الحين أرتدي سوارين من الياقوت، فأعطيته إحداهما، ومقابل ذلك ابتاع ثلاثة جياد لي، إلى جانب بعض تجهيزات السفر، والدروع، والأسلحة، وقدم لنا عشرة فرسان ليواكبونا بإمرة كل من أجيرشي وفلانشي.

ومن بين الجياد التي قدمها لي أعطيت اثنين للأمير حسين، ولما كنت مجهزاً بصورة جيدة فقد عقدت العزم في قرارة نفسي على أنه يتعين علي الرحيل، والبقاء في صحراء محمودي، إلى أن يحصل أتباعي على معلومات عن الظروف التي تحيط بي، فلعلهم يأتون وينضمون لي.

ولقد جعلت فلانشي دليلنا، وأخذنا نتجول في الصحراء لمدة يومين وليلتين من دون ماء أو خبز، إلى أن وصلنا بعد حين إلى قرية محمودي، بيد أننا وجدناها خراباً يباباً خاوية على عروشها، ومع ذلك فقد ترجلنا بين الركام. وبما أننا لم نتمكن من العثور على الماء فقد اضطررنا لحفر بئر، وبقينا هناك لمدة شهر.

الفصل الثاني عشر

في نهاية هذه المدة انزعج علي بك غرباني زعيم التركمان عندما أُبلغ أن تيمور كان في الصحراء وأنه يسعى لجمع أتباعه لنهب التركمان، فأرسل فصيلاً من الجنود لإلقاء القبض علينا على حين غرة.

وبينما كنا في غفلة من أمرنا شنوا هجوماً ليلياً علينا، وأمسكوا بي، واقتادوني إلى معسكر التركمان. وحينما وصلت إلى هناك أمر علي بك باحتجازي في زريبة للبقر تعج بالبراغيث وسواها من الهوام، من دون أن يراني، حيث أبقاني وزوجتي من دون أي رفيق لنا سوى الحشرات طوال ثلاثة وخمسين يوماً؛ وفي ذلك الحين عاهدت الله أنني لن أبقي أي شخص سواء أكان مذنباً أم بريئاً مدة طويلة سجيناً أو مكبلاً بالسلاسل [1].

عزمت بعد حين، وبدافع من نبوءات ارتقائي السيادة، على الهرب من هذا المكان البغيض، أو إنهاء وجودي، وبناء عليه صممت على محاولة الهرب، فإما أن يكتب لي الظفر، وإمّا أن أموت بشجاعة، فسعيت في البداية لأن أكسب الحراس إلى جانبي عبر تقديم الوعود لهم بالحصول على المكافآت، إلا أنني أخفقت في ذلك، فاستوليت على سيف أحد الخفراء وهاجمت الحراس، ففروا من أمامي، وطاردتهم حتى في وجود زعيمهم. ولما شاهد علي بك ما أبديته من الشجاعة وما بذلته من الجهد أصابه الندم، وأسف على سلوكه، وأعاد كل ما كان قد نهبه مني.

تسلم في ذلك الحين رسالة من أخيه محمد بك غرباني تضمنت: «لقد بلغنا في خراسان أنك ألقيت القبض على الأمير تيمور وأودعته السجن، إن هذا السلوك ليس لائقاً وخاطئ جداً، فيتعين عليك أن تعتذر إليه فوراً وتعامله بأكبر قدر من التبجيل والاحترام، وتسلم سموه التحف النادرة والهدايا التي أرسلتها». ونتيجة لهذه الرسالة زارني علي بك في كوخ قد خُصّص لهذا الغرض، والتمس مني الصفح، وأعطاني بعض الهدايا التي أرسلها أخوه، لكنه كان حقيراً وضيعاً وجشعاً، فاختلس كثيراً منها.

وبعد أن هربت من براثن علي بك على هذا النحو تمكنت من أن أجمع اثني عشر فارساً، ومهما يكن من أمر فقد رفعت بهؤلاء لواء الملكية من جديد، وعقدت العزم على التقدم باتجاه صحراء خوارزم. وبعد يومين بلغنا إحدى القرى، فترجّلت واستوليت على أحد المنازل، لكن ما كدت أفعل ذلك حتى خرجت جماعة من التركمان من المنازل الأخرى وتهيؤوا لمهاجمتي؛ فأغلقت الباب على زوجتي أخت الأمير حسين وهاجمتهم. في ذلك الحين تذكرني أحدهم

(1) انظر النسخة المطبوعة من الشرعة، ص 37.

ويدعى أحمد، وصاح بهم أن يكفّوا عن ذلك، وجاء وبرفقته أتباعه الذين كان قد جلبهم للانضمام إليّ، فانحنوا أمامي، وقدموا لي التحية، وانضموا إلى قواتي، فوضعت قلنسوتي على رأسه، ونتيجة لهذا التكريم وعدني بأن يُحضِرَ لي خمسين فارساً.

انضم إلي في ذلك الوقت تقريباً مبارك شاه سنجري وبرفقته مئة فارس، وجلب لي أيضاً عدة رؤوس من الخيل هدية. وباختصار فإن عدداً من السادة الأشراف وسواهم من سكان خراسان انضموا إليّ وجلبوا كثيراً من الهدايا.

ولما جمعت قرابة مئتين من الفرسان والمشاة في الصحراء استاء مني الأمير حسين وتركني وانطلق نحو غرمسير وقندهار. وفي ذلك الحين زارني مبارك شاه وبعض الزعماء الآخرين، وقال: «من شأن بقائنا هنا في الصحراء أن يكون هداماً لشؤوننا، ومن المحتمل أن إلياس خواجا قد جرد جيشاً من المغول علينا، لذا فإن من الأفضل أن نهجر هذه الصحراء، ونتوجه إلى خوارزم أو بلاد مرو شاه جهان[1] أو بدغويش لإخضاع إحداها» فاستحسنت نصيحتهم، لكنّي فكّرت ملياً بأن خريطة بروجي كانت قد تنبأت بارتقائي عرش بلاد ما وراء النهر موطن أسلافي الأمراء العظام، فأطلعت مبارك شاه وأمراء الجند الآخرين على خريطة بروجي، فسروا بها جميعاً.

عقدنا العزم بعد حين على أن نصطحب الجنود البالغ عددهم مئتي رجل وننزلهم قرب كش، حيث يمكن أن يبقوا هناك إلى حين طلبهم، بينما يتعين علي الذهاب إلى العشائر البدوية والسعي لجمع مزيد من الأنصار.

انطلقنا بعد أن كررنا الدعاء من أجل النجاح، وحين وصلنا إلى قرية كريندان من أعمال بخارى وقع اختياري أولاً على المعسكرات من أجل جنودي وأمرائهم، وتركت زوجتي أولجاي توركان آغا هناك. ولما أصبحت وحيداً على هذا النحو ذهبت وأمضيت وقتي بين القبائل والعشائر.

بعد أن تناهى إلى تيمور كوجي الذي كان أحد أصدقائي خبر وصولي في ذلك الحين انضم إليّ وبرفقته أربعون فارساً، وأولاني كثيراً من اهتمامه. وبناء عليه أطلعته على سري، وأرسلته ليبقى مع قواتي الأخرى، وزودته بأوامر تقضي بأنه يتعين عليه أن ينضم لي فوراً عندما يبلغ مسامعه نبأ رفعي لواء الاستقلال في سمرقند. وحينما وافق عدد من الأشخاص من العشائر والقبائل على الانضمام إليّ استقر رأيي على أن أصطحب معي ألف رجل من أكثر أتباعي بسالة، وأن نخفي أنفسنا في مدينة سمرقند، وأنه يتعين على ألف رجل آخرين أن يتبعوني ويتخذوا

---

(1) أطلق عليها الإغريق اسم (أنطاكيا)، وتقع على نهر المورغاب، وتخضع لخان بخارى. انظر: Edinburgh Gazetteer.

مقراً لإقامتهم بجواري. ونتيجة لهذا الترتيب فقد زحفت نحو المدينة في منتصف الليل، وفي الليلة التالية دخلت سمرقند قرابة موعد صلاة العشاء، وجعلت مقامي في دار شقيقتي الكبرى قتلغ توركان آغا. أمضيت ثمانية وأربعين يوماً في مدينة سمرقند، لكن عندما تهيأت الأسباب للانقضاض على قوات المغول والقضاء عليهم اكتشف بعض السكان المكيدة التي كنت أدبرها، فأطلقوا لألسنتهم العنان في إفشاء سري. ولما باتت نواياي معروفة على هذا النحو كان لزاماً علي الرحيل عن سمرقند، لذلك غادرتها في منتصف الليل، ويمّمت وجهي شطر جوار كش. ولمّا وجدت أنه ليس من الحكمة أن أبقى هناك فقد تقدمت وبرفقتي خمسون رجلاً من أتباعي نحو خوارزم. إلا أني وجدت السفر سيراً على الأقدام ليس مريحاً لأن بعض رجالي كانوا من دون خيول. ومن حسن الطالع أننا اكتشفنا قطيعاً من الجياد تتخذ سهل الأجفر مرعى لها، فأرسلت للاستفسار عن مالكيها، وبعد أن تأكدت من أنها عائدة لقبيلة من التركمان كتبت مرسوماً ملكياً إلى أصحابها، واستوليت على القطيع. وبعد أن وزّعت الخيول على جنودي الراجلين أصبحوا الآن فرساناً، فعَدَونا بسرعة نحو ضفاف نهر جيحون، وأقمنا مخيماً عند طرف هذا النهر. وبعد أسبوع عبرناه. وبعد أن وصلنا إلى قرية آشفي حيث كانت البلاد عبارة عن تل وواد وكان الطقس حاراً جداً فقد بقينا مدة شهر نستظل ببعض الأشجار على ضفة نهر جيحون، وأمضينا وقتنا في ممارسة الصيد والرماية. وانضمت إلي في هذه البقعة زوجتي ومبارك شاه وبرفقتهما أمراء الجند الآخرون ومعهم قواتهم الذين كنت قد خلفتهم ورائي في كريندان.

ولما تعززت جماعتي وأصبح تعدادها ألف رجل، وكانت تعوزني المؤن، فقد طلبت مشورة أمراء الجند بشأن ما يتعين علينا فعله، فنصحوني بالتوجه إلى بلاد بدغويش والاستيلاء عليها، وعندما تؤول إلينا نستطيع أن ننهب إقليم مرو شاه جهان، وبذلك سنخفف من محنة أتباعنا وفاقتهم، فقلت لهم: «ذلك أمر حسن جداً، لكن يبدو لي أن من الأفضل لنا أن نتوجّه إلى باختر وقندهار، وإن استطعنا الاستيلاء على قندهار فلسوف نصبح عندئذ حكام كل من كابلستان والسند وملتان». فاستحسنوا جميعاً هذه النصيحة، ووافقوا على أن يهتدوا بها. ثم كررنا دعاءنا من أجل النجاح، وتهيأنا للمسيرة.

وقبل أن أحاول اتخاذ هذا الإجراء البالغ الجرأة فقد اعتقدت أن من الضروري أن أتفقّد قواتي، وأن أعدّهم على أكمل وجه ممكن، فوجدت أن لدي ألف جندي فقط من المشاة والفرسان على حد سواء. ولمّا كان العديد منهم في حالة بائسة فقد بعت كثيراً من الحلي التي كانت لدي ووزعت المبلغ بينهم، ثم انطلقت على رأس فرساني. وحين بلغنا ضفاف نهر هيرمون أقمت معسكراً، ودعمت مواقعي هناك، وأصدرت الأوامر بأنه يتعين على كل فرد في الجيش بناء منزل

أو كوخ لنفسه. وصممت كذلك على الاستيلاء على غرمسير وقندهار، وتنصيب نفسي ملكاً. وبناء على هذا المبدأ وجهت دعوات لحاكم غرمسير المير مهدي، وتابعت الأمر بنفسي.

وحينما تلقى مير مهدي الدعوات، وأُبلغ باقترابي بفعل صوت أبواقي، تقدم للقائي خاضعاً طائعاً. وعندما مثل بين يدي وضعت قلنسوتي فوق رأسه، وجلب لي كثيراً من الهدايا. وهكذا أصبحت حاكم غرمسير، وأخضعتها لسلطاني. وفي ذلك الحين جاء الأمير حسين، الذي كان قد آثر التخلي عني، وانضم إليّ من جديد، وقدمت إليه نصف خَرَاج غرمسير.

وبعد أن بقينا على هذه الحال لبعض الوقت بعث والي سيستان سفيراً لي، ووضع أسس الصداقة، وأرسل لي أيضاً هدايا نفيسة تليق بمنزلته.

وقع اختياري على إقليم غرمسير ليكون مقراً لإقامتي، وتحينت الفرصة المواتية لإخراج قندهار من أيدي سلالة غوري الحاكمة ورفع لوائي عليها.

الفصل الثالث عشر

1362 م: بلغت من العمر في سنة 764 هـ ثمانية وعشرين عاماً، وبعد أن خاض والي سيستان غمار حرب مع بعض أعدائه هزم فيها، وفقد العديد من حصونه، ونهب كل ما لديه من مستودعات السلاح. عندها كتب لي رسالة يلتمس فيها أن أمد له يد العون والمساعدة، ويرجو مني أن أحرره من أيدي مضطهديه، لأنه لا سبيل آخر أمامه إلى الخلاص. وسرعان ما تلقيت رسالة ثانية منه يذكر فيها «عجزه المطلق، وإذا ما حميته، فلسوف يزود فرساني البالغ عددهم ألف رجل بالمؤن». فاستشرت الأمير حسين بشأن هذا الموضوع، فأبدى رغبته في الذهاب وحده، يحدوه الأمل بالاستيلاء على الحصون لنفسه، ومع ذلك فقد وافقت، وعهدت بقيادة مقدمة جيشه إلى بهرام جلائر، لكن حسيناً لم يزحف نحو سيستان إلا مرة واحدة فقط. وعندما لم يعد جلائر يثق به على الإطلاق تخلى عنه، ويمم وجهه شطر هندوستان. عد حسين ذلك الأمر نذير شؤم، فأرسل إليّ رسالة يبلّغني فيها بما جرى، ويلتمس مني الانضمام إليه ومعي قواتي حتى نستطيع إخضاع حصون سيستان معاً.

حينما توجهنا معاً نحو سيستان أعدّ والي ذلك الإقليم جلال الدين محمود مراسم لقائنا، وقدّم لي عدداً من الأشياء النادرة مما أثار غيرة الأمير حسين، لذلك أرسلت إليه الهدايا جميعها. كما زوّد الوالي ألف فارس بالمؤن وفقاً لاتفاقه معي، وأخذ على نفسه عهداً مغلّظاً بالإخلاص والولاء. وبما أن هذه الوعود كانت تبدو صادقة فقد استقر رأيي على أن أمدّ له يد العون والمساعدة، وبعدما رتبت قواتي العسكرية ترتيباً ملائماً شرعنا نزحف على نحو منظم.

كان الأسلوب الذي عقدت العزم على تنفيذه من أجل إخضاع حصون سيستان هو التالي:

كان عدد الحصون التي استولى عليها أعداء الوالي بالقوة سبعة حصون، وقد استولينا على أولها في غضون ليلة واحدة ويوم واحد؛ فتسلقت قواتنا الأسوار والمعاقل، واقتحمت القلعة، ووجدنا في الحصن كمية من المؤن استولى عليها كلها الأمير حسين، ونصّب حاكماً من طرفه.

أما الحصن الثاني الذي هاجمناه فخرجت الحامية وقاتلتنا، ولما كان في تلك البلاد كمية من الشجيرات التي تنمو تحت الأشجار الكبيرة، فقد أمرت رجالنا بأن يصنعوا منها عيداناً طويلة، ويقتربوا بوساطتها من الأسوار، وعندما شاهد العدو ذلك طلب منا الرحمة، وسلّمنا الحصن، فسبقني الأمير حسين ثانيةً ونصّب حاكماً من طرفه فوراً، ووزّع الغنائم بين رجاله، ولم يقدم لي حتى الشكر على ما بذلته من جهود.

وحين زحفنا نحو الحصن الثالث وصلنا إلى هناك في منتصف الليل، ولما كان الحصن مقاماً في سهل رملي فقد أمرت القوات بالترجل وتهيئة أقواسهم وسهامهم، ثم دنونا من الأسوار بصمت، واكتشفنا أن جميع الحراس كانوا نائمين باستثناء واحد، فألقى رجالي سلالمهم المصنوعة من الحبال على شرفات الحصن وارتقوها بسرعة، وبعد أن أخضعوا الحامية جلبوهم إليّ مكبلين بالحديد، واستولينا على الحصن. وقد جرى هذا كله قبل أن يصل الأمير حسين ومعه جيشه.

لما رأى متمردو سيستان ما حققناه من نجاح سريع انزعجوا أيما انزعاج، وتقدموا إلى حاكمهم بمقترحات، قائلين: «ليس لدينا اعتراض على التخلي عن المواقع المتبقية لك، لكن إن أتيح لتيمور الاستيلاء عليها فلن يحتفظ بها في حوزته فقط بل بالبلاد بأسرها»[1]، ولما أزعجتِ الوالي هذه الأنباء سار من دون إعطائي أي إخطار. بعد أن وصل إلى موطنه وانضمت إليه قواته الأخرى كافة زحف نحونا، فوزعت جيشنا إلى ثلاث فرق، فتولى حسين إمرة الفرقة المتمركزة في مواجهة ميمنة العدو، وعهدت بإمرة الفرقة الثانية المتمركزة في مواجهة ميسرة العدو إلى أحد أمراء الجند، وكانت الفرقة الثالثة وقوامها القوات الخاصة بي تشكل الخط الأول، فوضعت رماة السهام في المقدمة، ومن خلفهم الفرسان المزودون بالسيوف، فأمطر رماة السهام العدوّ بوابل من السهام. وبعد أن شن الفرسان هجوماً شديداً تملكت العدو الحيرة والإرباك، ثم انقضضت عليهم وبرفقتي اثنا عشر فارساً. في هذه المرة أصابني سهمان؛ أحدهما في ذراعي والآخر في رجلي، وبما أنني كنت منهمكاً في القتال فلم أشعر بهما، بل واصلت القتال إلى أن ولّى العدو الأدبار. بعد أن أحرزنا النصر قفلنا عائدين نحو غرمسير. وفي أثناء

(1) انظر النسخة المطبوعة من الشرعة، ص 47.

مسيرتنا قلت للأمير حسين: «لقد كان سبب هذه المحنة كلها الشهوة التي استبدت بك» مما جعله يشعر بالخجل الشديد. واعتقدت بأن من المستحسن الآن أن نتقدم نحو غرمسير ونبقى هناك حتى تندمل جروحي، وفي غضون ذلك يستطيع الأمير حسين فتح بكلان وإخضاعها لسلطانه. لذا وقع اختياري على مئتي فارس أرسلتهم معه، إلا أنني نصحته بأن يسعى لكسب سكان بكلان، وإن جابهه جيش المغول فعليه أن يتجنب قتالهم.

وحين دخل حسين بكلان تصرف على نحو غير ملائم، ولم يشجّع الجنود الذين عرضوا الانضمام إليه في تلك البلاد، بل أثار اشمئزاز أعوانه القدامى بفعل جشعه وتقتيره، ولم يخش أعداءه أيضاً، إلى درجة أنه شرع في جمع الثروات الطائلة ومراكمتها.

بعدما أخرج أجاني بك شقيق بيكجوك جيش المغول من مكمنه في ذلك الحين شن هجوماً لم يكن متوقعاً على حسين، وهزمه، بحيث اضطر الى الفرار وبرفقته أربعة فرسان فقط واثنا عشر راجلاً إلى قرية شيركو. لقد شعرت بالغيظ الشديد، وتألمت من هذه المصيبة، وتمنيت أن أذهب وأخرج المغول من بلاد ما وراء النهر، لكني كنت مضطراً إلى أن أبقى هادئاً إلى أن تندمل جروحي. شرعت بعد ذلك في اتخاذ ترتيبات من أجل استرداد ذلك الإقليم، لكن عدد جيشي في هذه الفترة كان قد تناقص كثيراً، إلى درجة أنه لم يبق برفقتي سوى أربعين فارساً.

كان أول إجراء اعتزمت اتخاذه أن أجعل مُقامي إما في وادي أرصوف وإمّا في وادي كوز اللذين كانا على مقربة من بلخ، وبعد أن أجمع هناك جيشاً أشن هجوماً على قوات المغول. ونتيجة لهذاالقرار تقدمت من غرمسير وبرفقتي تيمور خواجا أغلان الذي كان قائد قواتي. وفي هذه المناسبة أولاني مير مهدي حاكم ذلك الإقليم جل اهتمامه عبر تهيئته أكواخاً لإقامة أولئك الذين اضطررت إلى أن أخلفهم ورائي، وتوفير المؤن لنا جميعاً، ولما أصبحت الآن مرتاح البال انطلقت بسرعة كبيرة.

وما إن تفحصت فرساني الأربعين حتى وجدت أنهم كانوا جميعاً يتحدّرون من عائلات كريمة المحتد، ولم يكن بين ظهرانيهم أي فرد وضيع، فحمدت الله وشكرته على أنه ما زال هناك كثير من الأشخاص كريمي المحتد يربطون مصائرهم بمصيري في محنتي هذه، وكنت على قناعة بأن العناية الإلهية كانت تعدّني لبعض الأعمال المجيدة، وذلك بأن منحتني كثيراً من الأصدقاء النبلاء والمنزهين عن أي أغراض شخصية.

خرج في ذلك الحين صادق برلاس[1]، الذي كان سليل قراجار نويان، ومعه فصيل من الجنود للانضمام إليّ، ولما شاهدهم رجالي على بعد مسافة منا اعتقدوا أنهم أعداء جاؤوا يطاردوننا،

(1) انظر النسخة المطبوعة من الشرعة، ص 49.

وبناء عليه فقد أرسلت سوبيك بهادر الذي كان قائداً لحرسي الأمامي ليتبيّنهم ويتعرّف إليهم. وسرعان ما عاد وأبلغني أن صادق برلاس قد جاء بحثاً عني وبرفقته مئة مقاتل، فتوجهت نحوه. وما إن رآني حتى تأثر أيما تأثر لأنه كان واحداً من أصدقائي الحميمين، كما أنني تأثرت كثيراً، وتأثر جميع الحاضرين، وتضرّعت إلى الله أن يمنحني القوة لأحرّر بلاد ما وراء النهر من ظلم المغول وجورهم.

غادرنا بعدئذ معسكرنا وزحفنا نحو وادي أرصوف، وإبان مسيرتنا وصل رسول من الأمير حسين، والتمس مني أن أرسل بعض القوات لمرافقته، وأنه سينضم إلي من جديد. فأرسلت صادق برلاس فوراً وبرفقته أربعون فارساً لحمايته، وطلبت إليه أن يلتقي بي في وادي أرصوف، ثم مضيت في رحلتي. بعد مدة وجيزة شاهدت جماعة كبيرة من الجنود الذين اتخذوا مواقعهم على قمة تلة، حيث كانت أعدادهم تتزايد باطراد، وبناء عليه توليت السيطرة على زمام الأمور، ونظمت صفوف جماعتي من أجل المعركة، وعقدت النية إن كانوا أعداء على مهاجمتهم. وفي الوقت ذاته أرسلت قائد حرسي الأمامي وبرفقته فصيل من الجنود ليتعرف إليهم، ولما كان رجلاً باسلاً فقد جرى بالفرس إلى التل، وصاح بهم قائلاً: «من أنتم أيها الجنود؟» فأجابوه: «نحن خدم الأمير تيمور، وقد جئنا نبحث عنه»، فما كان من قائد جندي إلاّ أن ذهب وزار زعيمهم، وسرعان ما حمل إليّ النبأ أنه كان كرانشي بهادر، وهو أحد أعواني القدامى الذي كان قد انشق عن جيش المغول قبل ثمانية عشر يوماً وبرفقته مئة فارس، وأتى للانضمام إلي. وقد سجدت شكراً لله على نعمته التي أنعم بها علي، وأصدرت أوامري بأن يؤذن لهذا الزعيم بالدخول إلى مجلسي. وحينما دنا عددت قدومه فألاً حسناً، ولذلك عانقته ووضعت قلنسوتي فوق رأسه، ثم تقدمنا نحو وادي أرصوف [1].

ظهر أمامنا إبان مسيرتنا اثنان من السباع؛ ذكر وأنثى، فعزمت على قتلهما بنفسي، وبعد أن أصبتهما بسهامي عددت هذا الحدث فألاً حسناً.

أقمنا في تلك الليلة معسكراً في غابة تزخر بالعشب والمياه، وبعد أن سرنا في اليوم التالي بلغنا أرضاً وعرة في الوادي يجاورها تل، فجعلت مُقامي على التل، ومن هناك كنت أرى لمسافة بعيدة في كل اتجاه من حولي، ولما كان هناك غدير يجري أسفل التل فقد أمرت الفرسان بأن يعسكروا على ضفافه. بقينا على هذه الحال ثلاثة أيام نتوقع بين الفينة والأخرى وصول الأمير حسين. كان مقاتليّ طوال هذه المدة يقتاتون بالطرائد التي كنا نصطادها. بعد حين أرسلت جماعة من رجالي إلى بلخ، وقد زودتهم بأوامر بالبحث عن قطيع من الأغنام، وجلبه لي مع أصحابه.

---

(1) الشرعة، ص 51.

وجد رجالي بعد يومين عدة قطعان من الماعز والأغنام، فجلبوها إلى معسكري ومعها أصحابها. كان هؤلاء الأشخاص المساكين يشعرون بالخوف والرهبة، لكنني دفعت لهم ثمن حيواناتهم ببعض قطع النقود الذهبية الصغيرة التي كانت بحوزتي، ثم عمدت إلى توزيع رؤوس الذكور على جنودي، وأمرت بالاحتفاظ بالإناث من أجل الحصول على الحليب والزبدة التي كنت أقدم يومياً مخصصات منها لكل فرد. وحين علم المزارعون في بلخ بما أتصف به من العدل والإنصاف جلبوا إلى معسكري الحبوب وسائر أنواع المؤن، التي أنعشت قواتي إلى حد بعيد.

وبينما كنا نترقب الأمير حسيناً هنا راح رجالي يرفّهون عن أنفسهم في حمى التل وضفة الغدير، ونصبت مع أصدقائي الموثوقين خيمة على قمة التل. في الليلة الرابعة عشرة حين كان القمر يتلألأ في السماء لم أستطع النوم، فرحت أتمشى، ولما عدت إلى التل أوشك النهار أن ينبلج، فسجدت في الصلاة، وبما أنني تأثرت أيما تأثر فقد تضرعت إلى الله عز وجل أن ينجيني من هذه الشراك، ويجعلني من الفائزين الظافرين [1]. ثم وقفت نفسي على الصلاة على الرسول وأهل بيته. وبعد ذلك غطيت في النوم، فحلمت أنني سمعت إنساناً يقول: «النصر صبر ساعة!» فغمرتني بهجة كبيرة بذلك، إلى درجة أنني استيقظت.

أبصرت حينها على مرمى قوس من التل عدداً من الجنود، يبدو أنهم كانوا قادمين من بلخ، ويتجهون نحو قمرود، فخشيت أنهم كانوا من الأعداء، لكنني قررت أن أذهب وحيداً للتعرف إليهم، فامتطيت جوادي، وبعد أن دنوت منهم، سألتهم: «من أين أنتم آتون، وإلى أين تذهبون؟» فأجابوا: «نحن خدم الأمير تيمور، وقد جئنا نبحث عنه، لكننا لم نعثر عليه على الرغم من أنه تناهى إلى سمعنا أنه غادر قمرود، وهو في طريقه إلى وادي أرصوف» فقلت لهم: «إنني أيضاً واحد من خدم الأمير، وإن شئتم فسوف أقودكم إليه». وحين سمعوا كلامي هذا جرى أحدهم ممتطياً صهوة جواده إلى أمراء الجند، وقال لهم: «لقد وجدنا الدليل الذي سيقودنا إلى الأمير» فما كان من أمراء الجند إلا أن أصدروا أوامرهم بجلبي إليهم، وكانوا ثلاثة أمراء؛ أولهم تغلق خواجا برلاس؛ وثانيهم سيف الدين؛ وثالثهم توبوك بهادر، وعندما رأوني غمرتهم السعادة والفرح، فترجلوا عن خيولهم وجثوا على ركبهم وقبلوا ركائبي، وترجلت بدوري عن صهوة جوادي وعانقت كلاً منهم، ووضعت قلنسوتي فوق رأس تغلق خواجا، ولفيت حزامي المطرّز على نحو كثيف حول وسط الأمير سيف الدين، وألبست توبوك بهادر معطفي، فبكوا، وبكيت أيضاً. وحين حان موعد الصلاة صلينا بعقول هادئة ساكنة، ثم امتطينا صهوات خيولنا وتوجهنا

(1) الشرعة، ص 53، 55.

إلى معسكري ومكثنا بعض الوقت، وجمعت كبار القوم لدي وأقمت مأدبة. وبعدما اصطدت كمية كبيرة من الطرائد كانت لدي وفرة من اللحوم، فحمدنا الله على نعمه علينا.

بعد أن اتخذت وادي أرصوف مقراً لقيادتي أرسلت الفصائل في الاتجاهات كافة للحصول على المعلومات، ورحت أمتع نفسي برفقة أصدقائي. في أحد الأيام جلب لي جواسيسي أنباء مفادها أن مفرزة من الجنود كانت تتقدم بسرعة من قمرود، فأمرت رجالي بأن يصطفوا للمعركة فوراً، واتخذت لنفسي موقعاً على قمة التل، ومن ذلك المكان كان في استطاعتي رؤية مجموعة ضخمة من الجنود تتقدم بسرعة، فقلت لنفسي: «كان الله في عوننا» وبعد أن وزعت قواتي على ثلاث فرق زحفت على رأس إحداها، فأبصرت فارساً يقبل نحوي بأقصى سرعة، وحينما دنا مني ترجل عن صهوة جواده، وبعد أن جثا على ركبتيه قال لي: «إن هؤلاء الجنود بإمرة شير بهرام»، وكان أحد مناصري القدامى، وقد ترك الجيش بنية التوجه إلى هندوستان لكنّه شعر بالندم، وهو الآن في طريق عودته إلي ملتمساً الصفح عن الإساءة التي بدرت منه، ويطلب الإذن لتقديم فروض التحية والاحترام»، فقبلت هذا الاعتذار، وتقدمت للقائه. وحين دنا مني أطرق برأسه إلى الأرض من الخزي والعار، لكنني عانقته ووضعت قلنسوتي فوق رأسه، وشددت جعبة سهامي إلى خاصرته. وبعدما وصلنا مقرّي ترجلنا عن جوادينا، وأقمت حفلاً ترفيهياً ضخماً.

بعد ذلك بأربعة أيام أتتنا الأنباء بأن صادق برلاس الذي عهدت إليه بمواكبة الأمير حسين كان يدنو من المعسكر، وبناء عليه فقد امتطيت جوادي وخرجت للقاء الأمير، وبعد أن تعانقنا قدته إلى خيمتي، وتجاذبنا أطراف الحديث عن كل الأحداث التي وقعت منذ انفصالنا، وأقمت بعد ذلك حفلاً ترفيهياً له. وبقينا لبعض الوقت في وادي أرصوف، وأرسلت العيون والأرصاد ليجلبوا لي المعلومات عن جيش المغول.

عقدت العزم في ذلك الحين على الاستيلاء على حصن أولاجو، الذي كان تحت سلطة مُنغُلي بُغاي سلدوز، لكي أودع فيه أمتعتي الزائدة، ومن ثم أشن هجوماً مباغتاً على جيش المغول. ولما كان مُنغُلي بُغاي أحد معارفي القدامى فقد أوفدت شير بهرام إليه لإقناعه بأن يناصرني، وحينما دنا شير بهرام من الحصن أرسل الحاكم رسالة إليه يقول فيها: «على الرغم من أن الأمير تيمور هو أحد معارفي القدامى إلاّ أن قائد المغول إلياس خواجا قد عهد إلي بقيادة هذا الحصن، فكيف يمكن أن أكون ناكراً للجميل، وأسلم المكان للأمير[1]».

بيد أن هذا التدبير نتج عنه خير كثير؛ إذ خرج ثلاثمئة رجل من أفراد قبيلة دولان جون ممن

---

(1) الشرعة، ص 57.

كانوا سابقاً يعملون لدي وانضموا لي، وذلك الأمر تسبّب في تخلي مُنغُلي عن هذا الحصن. ومن هذه البقعة زحفنا نحو وادي صوف، وأقمنا معسكراً هناك. في ذلك الحين أقام عُلُم علي ومحمود شاه كابولي اللذان كانا قادمين من قندهار على رأس مئتي فارس مدججين بالأسلحة معسكراً في بقعة تبعد مسافة فرسخين عني، وأبلغاني من فورهما بوصولهما، وما آلت إليه أحوالهما. ونتيجة لذلك امتطيت صهوة جوادي، وخرجت للقائهما. كما أنهما امتطيا جواديهما وجاءا نحوي، وما إن اقتربا حتى ترجلا وجثيا على ركبهما، وترجلت عن صهوة جوادي أيضاً ووقفت إلى أن أنهيا انحناءة الاحترام. بعد ذلك أنعمت على كل منهما بمعطف، واصطحبتهما إلى معسكري.

بعد أن بقينا بضعة أيام في وادي أرصوف استقر رأيي على أن أرسل أمليس بهادر على رأس مئتي فارس لتطهير البلاد المجاورة لبلخ إلى حين موعد وصولي. وبعد أن أوفدته أرسلت تيموك بهادر ومعه ثلاثة فرسان إلى خولكه؛ ليأتيني بالمعلومات عن جيش المغول، وقد حاول هذا الرجل الشجاع، أن يعبر النهر في ترمذ ممتطياً جواده، ومع أن حصانه غرق إلاّ أنّه استمر يعمل لبلوغ غايته. وبعدما التحق بأقربائه، وحصل على تقرير دقيق عن المغول، لم يبق لزيارة أولاده، بل عاد إلي فوراً في الوادي. وكانت المعلومات التي جلبها أن جيشاً قوامه عشرون ألف رجل من المغول قد عاث فساداً ونهب البلاد الواقعة على مقربة من ترمذ بأكملها. وحينما تناهى إلي هذا الخبر حشدت جيشي، ووجدت أن تعداده يبلغ ألف فارس فقط، لذلك اتضح لي أن من المستحسن أن أذهب وأقيم معسكراً في وادي غوز على ضفة نهر جيحون. نتيجة لهذا القرار سرت من أرصوف، فأقمت في اليوم الأول معسكراً في وادي غوز، لكنني في اليوم الثاني واصلت تقدمي نحو سهل إلشي بُغا الذي يقع على ضفة نهر جيحون، وتوقفت هناك. عاد في ذلك الحين أمليس بهادر وانضم إلي، وكنت قد أرسلته لكي ينهب البلاد الواقعة على مقربة من بلخ.

وصلت إليّ في ذلك الحين رسائل من الأمراء سليمان برلاس، وجاكو، وموسى، وجلال الدين، وهندوكيه، يقولون فيها: «إنهم عند سماعهم بوصولي إلى وادي أرصوف تنازعوا مع زعماء المغول، ووصلوا وبرفقتهم ألف فارس إلى ترمذ، وأنهم قد أرسلوا توكل بُغا للحصول على معلومات تتصل بي»، وما إن تناهى إلى مسامع قواتي اتصال أولئك الأمراء ذوي الشهرة الذائعة حتى غمرتهم بهجة عارمة.

وإبان هذه الفترة بلغتني أنباء مفادها أن مُنغُلي بُغا الذي تخلى عن حصن أولاجو، ومعه كل من أبو صائب وحيدر انديخودي قد عرضوا على أمير المغول إلياس خواجا أنه إذا أرسلهم في

مهمة عسكرية فلسوف يمسكون بي وبالأمير حسين، ويجلبانا مكبلين بالحديد إلى حضرته، ونتيجة لذلك وعد إلياس خواجا كلاً منهم بأن ينصبه حاكماً على أحد البلدان، وأرسلهم على رأس ستة آلاف فارس، وحين وصلوا المنطقة المجاروة لترمذ راحوا بدافع من الجشع يعيثون فيها فساداً ونهباً، ومن ثم انتقلوا إلى بلخ، وأنزلوا بالمسلمين كثيراً من الاضطهاد، ولذلك فرّت الحشود والقبائل كافة في ذلك الإقليم وعبرت نهر جيحون، وهم في طريقهم للجوء إلي.

الفصل الرابع عشر

وصل الزعماء الثلاثة إلى ضفة نهر جيحون قُبالة معسكرنا بعد ثلاثة أيام في الصباح الباكر، ومعهم فرسانهم البالغ عددهم ستة آلاف رجل، ولما كان النهر يفصل بيننا فلم تسنح الفرصة لأيّ منا لشن هجوم على الآخر، ولذلك اعتقدت بأنّ من المستحسن أن أوفد إليهم تيمور خواجا، وهو رجل شديد الذكاء وخطيب مصقع، ليطرح عليهم هذه المقترحات الثلاثة:

«أولاً- بما أننا أبناء بلد واحد وأقرباء فليس من المناسب أن تكون هناك أي عداوة بيننا.

ثانياً- يذكر لهم أن الهدف من حضوركم هو اعتقالي مع الأمير حسين والاستيلاء على حصن شدمان وبلخ.. ها نحن هنا، تعالوا خذونا، وقيدونا إن كان ذلك في استطاعتكم، ولكن تذكروا أنكم بذلك ستتسبّبون بدون وجه حق بمصرع الآلاف.

ثالثاً- لن يبقى جيش المغول في هذه البلاد على الدوام، ولسوف أفرق جمعهم وأشتت شملهم قريباً، بعدئذ يتعين علينا أن نسكن معا في هذه البلاد».

ولما سلمهم تيمور خواجا رسالتي انطفأت نار ثورة غضبهم، وفي صبيحة اليوم التالي قصدت ضفة النهر وطلبت الاجتماع بهؤلاء الزعماء، وحينما جاؤوا سقت البراهين على افتقار سلوكهم للحكمة، إلى درجة أنهم باتوا مقتنعين، ثم عدت إلى خيمتي وقضيت ذلك اليوم بأكمله في ذلك المعسكر.

وفي اليوم التالي نشب نزاع بين الزعماء الثلاثة، قائلين: «لقد تعهدنا بأن نقبض على الأمير حسين وتيمور، فكيف نستطيع الآن أن نرفع رؤوسنا بين أمراء الجنود المغول ونحن لم نبذل أي محاولة لتنفيذ هذا التعهّد». وبعد ذلك جدّدوا تهديداتهم لي، وتقدموا على طول ضفة النهر بحثاً عن موضع من النهر يسهل خوضه، أو مكان ملائم من أجل اجتيازه لكي يهاجموني. وما إن تناهى إلى سمعي ما يبيّتونه من نوايا تقدمت أيضاً على طول ضفة النهر المقابلة لهم، وحين وصلوا إلى بلخ أقاموا معسكراً من جديد، وفعلت الشيء ذاته.

في اليوم التالي وزع الزعماء الثلاثة جيشهم إلى ثلاث فرق، وبعد أن اكتشفوا موضعاً من النهر يسهل خوضه عبروه، وأقاموا معسكراً، وكان الغدير أمامهم.

حشدت جيشي في ذلك الحين، ووجدت أن تعداده يبلغ ألفاً وخمسمئة فارس فقط، وبما أنهم كانوا جميعاً جنوداً من الطراز الأول يزون إلى حدّ كبير جنود خصومي فلم أكن منزعجاً، وبناء عليه فقد سمحت للعدو وهو في كامل أعداده باجتياز النهر من دون أن أتحرك من معسكري، أو أظهر علامات الاضطراب. وحين أرخى الليل سدوله أراد أمراء جنودي اقتحام معسكر المغول، فلم أوافق على شن هجوم ليلي لأن تعداد جيشي كان أقل، وبعد الاتكال على المعونة الإلهية، قضيت الوقت في الصلاة.

وفي الصباح الباكر هبط العدو بفرقه الثلاث بقصد تطويقي، فتوليت والأمير حسين توزيع قواتنا إلى فرقتين، وتهيأنا للتصدي لهم، وبينما كنا في هذه الحالة جاءني فارس بأقصى سرعة ليبلغني أن الأمير سليمان برلاس وسواه من الزعماء ممن أثار المغول اشمئزازهم كانوا قد عبروا أعلى النهر ومعهم ألف وخمسمئة فارس، وسينضمون إليّ فوراً، وما إن سمعت هذه البشرى حتى سجدت وحمدت الله العلي العظيم على نعمته وفضله. ثم امتطيت جوادي وتقدمت للقاء حلفائي، وعندما التقينا حيّيتهم بمنتهى الود، ورفعت آمالهم في النجاح والفلاح. وفي اليوم التالي وبعد أن أدرك خصومي أن قوتي آخذة بالتعاظم يومياً اعتمل الغضب في نفوسهم، وزحفوا نحوي على رأس عشرين ألف رجل موزعين إلى ثلاث فرق.

أمّا الترتيب الذي اتّخذته لمجابهة جيش المغول فهو كالتالي:

وزّعت رجالي البالغ تعدادهم ثلاثة آلاف رجل إلى ستة أفواج، وبعد أن تقدمت نحو حافة الغدير استوليت على الجسر، ثم عبرته، ورتّبت جنودي قبالة العدو، وقررت أن أشن هجوماً عليهم في ثلاث نقاط.

كانوا في ذلك الحين يتقدمون، لذلك أمرت الأفواج الثلاثة الأولى أن يحيّوهم بوابل من السهام، ثم أرسلت الفوج الرابع ليكون عوناً لهم، وأمرتهم أن يشنوا هجوماً مباغتاً بالسيوف. وسرعان ما اضطرمت نيران الحرب بين الطرفين المتنازعين. تواصل الصراع من الصباح وحتى وقت متأخر من اليوم، وإن تفاوتت نسبة الغلبة لهذا الطرف أو ذاك، وقد تشبث كل منهما بعناده، ولم يتراجع أي منهما. بعد حين كان الإنهاك قد بلغ بكلا الطرفين مبلغاً شديداً، فأمرت والأمير حسين بأن ترفع راياتنا، وينفخ بأبواقنا، وتشنّ فرقنا من ضفة الغدير هجوماً مباغتاً على العدو، فاستلوا سيوفهم وهم يرددون هتافات «الله يار» أي:(الله معنا)؛ وفي الهجوم الأول والثاني بدأ المغول بالتراجع، ومع ذلك حافظ زعماؤهم على مواقعهم في أرض المعركة، بل تبادلوا

ضرب السيوف معنا، بيد أنهم بعد حين أخذوا يولون الأدبار، وتخلوا عن هذا الصراع تاركين معسكرهم لينهب على أيدينا [1].

وما إن تقدمت إلى وسط السهل، حتى برز الزعماء والوجهاء وهنؤوني على نجاحي، فأمرت بإقامة المعسكر وتوقفت هناك لبضعة أيام.

وحينما بلغ إلياسَ خواجا نجلَ الخان خبر الهزيمة التي نزلت برؤساء الفرق الثلاث أمر بإعداد قوة ضخمة بقيادة جون بهادر شقيق بيكجوك، وبأن تزحف نحوي، ولما كنت ممتلئاً غروراً وعجباً بالنصر الذي حققته، فلم أهتم ببذل أي جهد للحصول على معومات عن تقدمهم.

عقدت العزم في ذلك الحين على ترك الأمير حسين ومعه قواته في منطقة مجاورة لبلخ، والتقدم على رأس قواتي نحو خولكه. ونتيجة لهذا القرار تقدّمت على طول ضفة نهر جيحون، وبعد أن اجتزت النهر على متن القوارب في ترمذ أقمت معسكراً على ضفته، وأرسلت فرقتي الأمامية نحو حصن خولكه.

كان الموقع الذي أقمت فيه المعسكر أشبه بجزيرة تحيط بها المياه من ثلاث جهات، وانتظرت هناك مترقباً عودة فَيلقي الأمامي، لكن المفرزة المتقدمة كانت تتصف بالإهمال بقدر اتصافي به، فلم تتخذ أي تدابير وقائية لسلامتنا، بحيث تجاوزهم جون بهادر على رأس جيش المغول وهم نيام، وهاجمني على نحو مباغت، ومن حسن الطالع أنني اتخذت موقعي في شبه الجزيرة، لأن جميع الخيام التي نصبت خارجها نُهبت فوراً، واضطر أصحابها إلى التراجع إلى الجزيرة.

ولحسن الحظ كنت قد صنت جميع القوارب من الخطر بأن جعلتها خلفي، وبناء عليه فقد أصدرت الأوامر بإرسال كافة أمتعتنا وأتباعنا عبر النهر، بينما أبقيت الجزيرة بحوزتي، وأزعجت العدو بوابل من سهامنا. بعد حين تمكن كافة الرجال والأمتعة من عبور النهر من جديد، فاستقليت القارب ورحت أمخر عباب النهر. وأصدرت الأوامر أولاً بإغراق جميع القوارب، ثم إقامة معسكر على ضفة النهر، وبقيت مقابل جيش المغول مدة شهر كامل [2].

بعد أن بلغ الأمير حسين خبر تراجعي اقترح مرة أخرى الانضمام لي، لكنني رغبت إليه أن يبقى في خولم، وواصلت التزام جانب الحذر في أثناء وجودي على مقربة من العدو. وبعد حين تحرّك العدوّ فزحفت نحو بلخ، ولما وصلت إلى خولم حرك الأمير حسين جيشه وتقدم للقائي، وأقمنا معاً معسكراً في سهول خولم، وأمضينا عشرة أيام أخرى تخللتها الولائم ومظاهر البهجة والفرح.

---

(1) انظر الشرعة، ص 63.

(2) انظر الشرعة، ص 67.

اعتبرنا في ذلك الحين أن من المستحسن اتحاد أمراء بدخشان معنا لإخراج المغول من البلاد، وبعد أن اتفقت آراء الزعماء كافة مع رأيي ورأي الأمير حسين حشدنا قواتنا جميعاً، وزحفنا نحو بدخشان، ولما بلغنا المنطقة المجاورة لمدينة قندز انضمّ رؤساء قبيلة بورالتاي إلينا ومعهم ألف فارس، فخاطبتهم بودّ بالغ، وخلعت على كل منهم ثوب الشرف، وعددت مجيئهم فألاً حسناً.

وحين بلغت أنباء اقترابنا أمراء بدخشان شعروا بانزعاج شديد، وحركوا قواتهم كافة لمجابهتنا. عقدت العزم في بادئ الأمر على شن هجوم مباغت عليهم، وإخضاعهم قبل أن يكون في استطاعتهم جمع قواتهم، لكن حينما وصلنا إلى طلخان التقينا بمبعوث من أولئك الأمراء جلب إلينا عدداً من الهدايا، وفتح أبواب السلام والوئام، ولما كانت المقترحات التي حملها تقوم على الاتحاد والوئام، وليس على التنافر والنزاع، فقد وافقنا، شريطة أن يعدونا بالانضمام إلينا في طرد المغول من بلاد ما وراء النهر، ومن أجل ذلك ينبغي أن يزودونا فوراً بألفي فارس.

وحين انضم إلينا فرسان بدخشان استقر رأيي ورأي الأمير حسين على عبور النهر عند سالي سراي، ودخول بلاد ختلان، وإجبار أهالي تلك البقعة على الانضمام إلينا في مواجهة العدو.

الفصل الخامس عشر

1363 م: ولما بلغت من العمر تسعة وعشرين عاماً في سنة 765 هـ دخلنا إقليم ختلان، وجاء أمراء تلك البلاد فوراً وانضموا إلي، ولما كانوا وحلفاءنا جميعاً قد أظهروا تفضيلهم لي فقد أثار هذا حسد الأمير حسين، لكنه لم يجد مخرجاً لذلك سوى الصمت. وحين بلغنا سهل كولك بلغ عدد أتباعي ستة آلاف رجل، وبسبب تقتير الأمير حسين الشديد وسوء إدارته، جاءني شير بهرام وبولاد بغو وتشكّيا لي، وبعد وقت وجيز التمس الأمير حسين مقابلتي، وعندما التقينا وجه اتهامات خطيرة بحق هذين الزعيمين، فعملت على تهدئة روعه، لكن ذلك كله لم يُجدِ نفعاً، وحضيتهما أيضاً على ألا يسمحا لأي خلافات خاصة بالتدخل في القضية المشتركة، فوعداني بلقائه، لكنهما ما إن غادرا المجلس حتى التحقا بجحفليهما.

بينما كنا نعسكر في سهول كولك أرسلت العيون والأرصاد ليجلبوا لي المعلومات عن جيش المغول، وبعد عشرة أيام أو اثني عشر يوماً عاد الجواسيس وأفادوا بأن كاش تيمور نجل بيكجوك كان يقود جيشاً ينضوي تحت قيادته كثير من الزعماء، يبلغ تعداده عشرين ألف فارس، وأقاموا معسكراً في ممر يصل بين قريتي هلاني وسرياني والجسر الحجري، وأن تغلق سلدوز

وكيخسرو اللذين كانا قد انشقا عني ويتوليان الآن قيادة ستة آلاف فارس من المغول سينزلان ويأخذانني على حين غرة.

أمرت فوراً باستعراض قواتي، ووجدت أنه لم يكن لديّ سوى ستة آلاف فارس، وبأنه لم يكن لدى الأمير حسين ذلك العدد، إذ إن كثيراً من قواته كانوا قد انشقوا عنه نتيجة بخله الشديد وسوء معاملته لهم، وانضووا تحت رايتي.

وصلت إليّ معلومات في ذلك الحين أن جماعة قوامها ستة آلاف من فرسان العدو قد سبقت الكتلة الرئيسة وتقدمت نحونا، وهي على مسيرة يوم واحد من الجسر الحجري. وبناء عليه قررت أن أعهد للأمير حسين بالمسؤولية عن الكتلة الرئيسة، وأن أتقدم بسرعة على رأس فيلق يقتصر على فئة مختارة من الجند، وآخذ العدو على حين غرة، وأقطعهم إرباً.

لكنني فكرت ملياً أن جيش المغول يتألف من ثلاثين ألف رجل، في حين لم يكن لدي سوى ستة آلاف لمواجهتهم، وبحثت عن آي من الذكر الحكيم تكون بمثابة فأل حسن، فطالعت الآية التالية: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: 249) فتملكتني الشجاعة بفعل هذه البشارة.

وحين وصلت الفرقة الأمامية للعدو بعد مسيرة يوم واحد إلى هذه الجهة من الجسر الحجري بلغهم الخبر أنني كنت قد تراجعت ومعي قواتي نحو بلاد ختلان، لذلك دعوني بالرعديد والفارّ، وبدؤوا بإقامة الولائم وإشاعة مظاهر البهجة والفرح.

ولما كنت مستاء من ابتهاجهم فقد قفلت عائداً من ختلان، وسرت مسافة طويلة ومعي ألفا فارس فقط، وبلغت معسكرهم مع انبلاج الفجر، فوجدتهم نياماً، وسرعان ما دق حرسي الأمامي أوتادهم، وبعد أن استولى العقوق والجحود على كيخسرو وتغلق سلدوز أمسك بهما جنودي، وأتوا بهما إليّ أسيرين، لكنني لم أعاقبهما. وبعد أن أنزلت مفرزتي الأمامية الهزيمة بالخط الأول للعدو أرغمتهم على التقهقر إلى الخط الثاني. لكن قبل أن يتحرك الخط الثاني وصلت وبرفقتي بقية فرقتي، وبعد مواجهة محدودة ولوا الأدبار جميعاً نحو الجسر الحجري. وقد خرجت في إثرهم، وواصلت ضربهم والاستيلاء على خيولهم، إلى أن دفعتهم بالقوة عبر الجسر، وحين اختفوا والتحقوا بجيشهم الكبير الذي يقوده إلياس خواجا شخصياً توقفت في تلك الليلة على ضفاف النهر، وأوفدت رسولاً ليزفّ لحليفي الأمير حسين خبر انتصاري.

بعد أن أديت صلاتي في صباح اليوم التالي تقدمت على طول ضفة النهر، وبعدما أرسلت الكشافة وحرساً أمامياً قوياً أقمت معسكراً في صحراء ختلان، وكانت عبارة عن تلة وواد، حيث أخذ رجالي وخيولُهم قسطاً من الراحة. وقد توقفت هناك في اليوم التالي، مما أتاح الفرصة أمام

الأمير حسين للانضمام إلي. بعدئذ أغلقت الطرق كافة على نحو لا يمكن لأحد المرور فيها.

وبما أنني حشدت الآن كل ما عندي من القوات التي ناهز عددها تسعة آلاف فارس، فقد وافق أمراء الجند من أعماق قلوبهم على مقارعة جيش المغول، فتقرر أنه ينبغي أن يكون قوام الخط الأمامي ستة آلاف رجل ينضوون تحت قيادتي، على أن يشكل البقية الخط الثاني، وتناط إمرتهم بالأمير حسين.

وبمجرد أن تناهى إلى سمع قائد المغول نبأ توجهي إلى ختلان عقد العزم على أن يجرد علي جيشاً ليخرج في إثري ويطاردني، بيد أن الخوفَ داخَلَ أمراء جنده وهم يستذكرون كيف أنني هزمت توكل بهادر في سهل خوارزم، وبرفقتي ستون فارساً فقط، فلم يقبل أي منهم تسلم قيادة مفرزة الجند.

كان القرار الذي توصلت إليه بما يتصل بمقارعة جيش المغول بقيادة إلياس خواجا التالي:

خاطبت أمراء جندي قائلاً: «لا فائدة مرجوة من اشتباكنا في مناوشات أو خوضنا المعارك مع المغول، إنما يتعين علينا وضع خطة لكي نخوض غمار حرب عامة نطهر أرض بلاد ما وراء النهر من دنس ظلمهم واضطهادهم»، ثم أمرت مؤاوي آرلات، وكيرا بهادر، والأمير موسى أن يتخذوا مواقعهم، وبرفقتهم خمسمئة فارس أعلى الجسر الحجري في مواجهة إلياس خواجا، في حين أنني وبعدما عبرت النهر اتخذت موقعي على تل مطلّ على معسكر العدو على رأس خمسمئة فارس؛ وبعد أن نُصبت خيمتي على حافة التل دخلت إليها، وأصدرت الأوامر بأن تضرم النيران في جوانب التل كافة، وحين أبصر المغول العدد الوافر من النيران المضطرمة انزعجوا لذلك كثيراً[1].

أمضيت تلك الليلة كلها في خيمتي أصلي وأتضرع إلى الله عز وجل بأن ينزل عقابه على أولئك الظالمين. ومع انبلاج الفجر غفوت، فكنت بين المستيقظ والنائم عندما سمعت أحدهم يقول: «تيمور! النصر والفتح لك»، فأفقت من نومي، ونظرت حولي، لكن لم يكن هناك أحد في الخيمة، ولا خارجها، ولكي أقطع الشك باليقين ناديت بصوت عال: هل هناك أحد، فلم أتلق أي جواب.. عندئذ صرت مقتنعاً أن ذلك كان صوت هاتف الغيب، فسجدت على الأرض وحمدت الله، وشعرت أن قلبي يمتلئ قوة. وحين انبلج الفجر أديت مع أصدقائي صلاة الفجر.

سمعت في ذلك الحين قرع طبول إلياس خواجا، وما إن أشرقت الشمس حتى أبصرت جيشه يفرّ جماعات، فالتمس رؤساء جندي الخروج في إثرهم ومطاردتهم، قائلين: «سنخضعهم بيسر»، لكني أجبتهم بالقول: «تلك خدعة حربية من جانب العدو لحثنا على النزول إلى السهل،

---

(1) الشرعة، ص 79.

بحيث تكون الأفضلية لهم إن هاجمونا، عليكم بالصبر، إلى أن تتبيّن لنا ماهية هدفهم الحقيقي»، وحين قطعوا مسافة أربعة فراسخ (تعادل اثني عشر ميلاً) ووجدوا أننا لم نتحرك من التل أقاموا معسكراً لهم، بعدئذ أرسل إلياس خواجا في طلب أمراء الجند الذين كنت قد أنزلت الهزيمة بهم وأساء معاملتهم.

عندما وجد إلياس خواجا في اليوم التالي أنني حصّنت التل حرك جيشه، وشن عدة هجمات على حواف التل، إلا أنني حافظت على موقعي أعلى المنحدر، وركزت قواتي في أنحاء سفحه كافة. ولما دنا العدو منا أمطرهم رجالي بوابل من السهام، حتى إن العديد منهم أصيب بجراح، وأخذوا يحتمون بالزوايا المظلمة، وخلف الحجارة الكبيرة. وحين أرخى الليل سدوله تخلوا عن فكرة شن هذا الهجوم، لكنهم واصلوا ترتيب صفوفهم بشكل دائرة حول التل.

في ذلك الوقت تقريباً دعوت إلى عقد اجتماع للقادة لديّ، وأوضحت لهم أنه «لما كانت قوة الأمير حسين الآن منفصلة عنا، وبما أنه لا تتوافر لدينا المياه ولا المؤن على هذا التل، وإن بقينا هنا فسنهلك لا محالة؛ فدعونا نوزع قواتنا إلى أربع فرق، وقبل انبلاج الفجر نشن هجوماً على العدو، فإذا نجحنا في حملهم على الفرار نكون بذلك حققنا نصراً سهلاً، وإذا تعذر ذلك فيتعين علينا أن نشق طريقنا للإفلات من براثنهم، ونمضي إلى حيث نريد».

وما إن حظيت نصيحتي بموافقة جميع القادة حتى ارتديت درعي، وأمرت بعدم إحداث أي ضوضاء، ومع طلوع الفجر تقدمنا بصمت نحو أربعة أجزاء من معسكر العدو. وبما أننا أخذناهم على حين غرة فإن الفرقة التي كانت قد وُضعت قبالة الجزء الأساسي الذي يتولى قيادته إلياس تجاوزتْ حرسه، وكاد يقع في الأسر، لكنني عندما دنوت منه صحت به، وألقيت عليه التحية [1]، بعدئذ منعت الإمساك به واعتقاله. ولما كان كثيرون قد لقوا مصرعهم أو أصيبوا بجراح في ذلك الحين من كلا الطرفين فقد كف المحاربون عن القتال على نحو متبادل.

وعندما سمع إلياس خواجا صوتي صاح بقواته، فعاد العديد من محاربيه، وتجدد القتال الذي استمر بضراوة حتى بعد شروق الشمس من دون أن تكون الغلبة لأي من الطرفين. وبعد حين فرغت جعبنا، فاستل جنودي سيوفهم، وشنوا هجوماً على العدو الذي كان منهكاً بفعل المبارزة الطويلة، وأصيب العديد منهم بجروح، فقالوا: «دعونا نولي الأدبار»، وبعدئذ انطلقوا، ولم يتوقفوا إلى أن وصلوا إلى معسكرهم الذي يبعد مسافة أربعة فراسخ.

بما أنني كنت أعتقد بأنه ليس من المناسب الخروج في إثرهم وتعقبهم فقد بقيت حيث كنت، ولما نما خبر النصر الذي حققته إلى الأمير حسين انضم إلي وهنأني على نجاحي.

(1) انظر الشرعة، ص 83.

ولما وجد جيش المغول أنفسهم وقد حلت بهم الهزيمة، وأخضعوا على يد جيش دونهم عدداً شعروا بالخجل الشديد، وألقوا قلنسواتهم أرضاً، قائلين: «اللعنة على قلنسواتنا، فبمثل هذه القوة ولّينا الأدبار هاربين من جيش دوننا عدداً!» ولما كان إلياس خواجا يشعر بالخجل أيضاً فقد أقسم على أنه لن يوقف القتال إلى أن يوقعني في الأسر. ثم حرك جيشه وتقدم نحو كش، وأقام معسكراً يبعد عن المدينة مسافة أربعة فراسخ.

وزّعت في ذلك الحين مبالغ من المال على جميع الجرحى لدفع تكاليف علاجهم، ورصدت مخصصات لورثة أولئك الذين قتلوا. بعدئذ ارتديت درعي، وبعدما حركت قواتي ذهبت مع الأمير حسين واتخذنا مواقعنا، ونظمنا صفوفنا للمعركة مقابل جيش المغول. حين استطلع إلياس خواجا جيشي نسي محاولاته العقيمة السابقة، وبعد أن وضع قدمه من جديد في الركاب لامتطاء حصانه تقدم مسافة قصيرة نحونا.

وصل في هذه اللحظة ألوغ تيمور والأمير جمشيد من إقليم قبجاق حاملين معلومات مفادها أن تغلق تيمور خان لم يعد موجوداً، وأنه قد عين إلياس خواجا وريثه وخلفاً له. بعد أن سلم هذان الزعيمان رسالتهما، قدما احترامهما، ثم قدما التهاني للأمير على هذا الحدث، ثم أمسكا بعنان جواده، واصطحباه إلى معسكره. بعد مدة وجيزة زحف إلياس خواجا على رأس جميع قواته نحو ذلك الإقليم، تاركاً لي المضي قدماً في الخطط الخاصة بي. وبعد أن استشرت الأمير حسيناً في ما إذا كان يتعين علينا الخروج في إثر المغول ومطاردتهم وإخراجهم من البلاد أعطاني رأيه القائل إنه ليس من الحكمة أن نطارد جيشاً مهزوماً، فقلت له: «إنهم ليسوا جيشاً مهزوماً، ذلك لأنهم لم يتيحوا لنا الفرصة لمعاقبتهم، إلا أنني أخشى أنهم سيقتلون السكان، وينهبون البلاد التي يمرون بها»، وبما أن جميع الزعماء الآخرين اقتنعوا بما سقته من براهين وحجج فقد تخلى حسين عن رأيه.

تلقيت في ذلك الحين تقريراً يفيد بأن جيش المغول يعود من أجل مقارعتنا، وأنهم بعد ذلك سيخلفون وراءهم قوة لدعم حكامهم وسواهم من رجال الحكومة في بلاد ما وراء النهر، ومن ثم سيزحفون نحو هذا الإقليم. بيد أن الحقيقة لم تكن كذلك فحسب؛ إذ إن إلياس خواجا أرسل الأوامر إلى حكامه جميعاً بتعزيز مواقعهم والبقاء في وضع دفاعي، بانتظار عودته قريباً.

نتيجة لما أبديته من تصميم في المجلس فقد حركت جيشي وأخذت أطارد فلول جيش المغول، وبعدما وصلت إلى خولكه توقفت هناك، واستعرضت قواتي، فوجدت أنه ليس لدينا سوى نحو سبعة آلاف رجل إلى ثمانية آلاف، بما في ذلك فرقة الأمير حسين، وقد أصيب العديد منهم بجروح. وبناء عليه فقد منحت إجازة لجميع الجرحى ليذهبوا بعيداً إلى أن يتم

شفاؤهم، وبعدئذ أعدت تشكيل قواتنا، مع تصميمي على مهاجمة المغول. كانت قوات حسين بقيادته، بينما احتفظت بمسؤوليتي عن أتباعي جميعاً.

بعدما انطلقنا من خولكه بلغنا هرار ليلاً، فخرج أعيان المدينة للقائي، وانشق عن إلياس خواجا عدد كبير من الأشخاص من أهالي كش الذين كانوا يخدمون في جيشه، والتحقوا بي، وقد جلب لي هؤلاء معلومات مفادها أنه في اليوم السابق كان قد أرسل قوة إلى كش، وأنه أرسل الحكام والقوات إلى جميع البقاع المنيعة في بلاد ما وراء النهر.

وما إن تلقيت هذه المعلومات حتى أرسلت الأمير سليمان وسيف الدين على رأس قوة في مهمة لإخراج المغول من كش، وأمرتهما أن يوزعا قواتهما لدى وصولهما قرب كش، وأن يجعلا الجياد تعدو بسرعة مثيرة غباراً كثيفاً. ومن أجل تحقيق هذه الغاية أصدر القائدان آنفا الذكر الأوامر لرجالهما بقطع أغصان الأشجار وتثبيتها إلى الجياد وجرها على الأرض، وبينما كانوا يتحركون بسرعة كبيرة أثاروا سحابة هائلة من العجاج، وقد شوهد ذلك من المدينة، مما حمل حاكمها المعين من المغول على الاعتقاد بأن قوة ضخمة كانت تزحف نحوه، فتملّكه رعب شديد، وآثر الفرار على البقاء، فولى الأدبار بعد أن جمع قواته.

أما جند المغول الآخرون الذين كانوا متشتتين في أرجاء الإقليم كافة فقد راحوا يعملون نهباً وسلباً وقتلاً في السكان التعساء، واستعرضوا جندهم لمواجهتي، لكن ما إن دنا جيشي منهم حتى خانتهم الشجاعة وولوا الأدبار، فخرج جنودي في إثرهم يطاردونهم، واستعادوا كميات ضخمة من المنهوبات.

عاد الأمير سليمان وسواه من قادة الجند الذين كنت قد أرسلتهم في المهمة، فالتحقوا بي من جديد بعد ستة أيام أو سبعة، وأتى جنود كش جميعاً وانضووا تحت لوائي.

في ذلك الحين، وبعدما كان الأمير بهرام - الذي غادرني في سهول كولك وانضم إلى قوات ختلان- غائباً طوال ثلاثة وأربعين يوماً عاد والتحق بي من جديد؛ كما جاء الشيخ محمد نجل بايان سلدوز وانضم إليّ على رأس قوة قوامها سبع مفارز، وحذا حذوهم جند خولكه كافة.

ولما كنت في تلك الفترة متضايقاً من مسلك الأمير حسين وإدارته فقد اصطحبته إلى ضريح الشيخ شمس الدين، حيث أقسم كل منا على تبادل الصداقة والمودة والدعم، وجعلته يضيف إلى ذلك أنه إذا لم يفِ بوعده فلسوف أعتقله وأنزل به عقابي، وذلك هو ما وقع في خاتمة المطاف.

وبعد أن اتخذت هذا التدبير الوقائي من أجل الدفاع عن نفسي طاردت فلول جيش المغول،

وحينما دنوت منهم حرك إلياس خواجا قواته، وعهد بإمرة الميمنة إلى الأمير جمشيد، بينما أناط قيادة الميسرة بطوق تيمور، أما الخط الأمامي فكان بقيادة بيكجوك، وكانت لديه أيضاً مفرزتان من الفرسان تحيطان بقواته. وحينما وجدت أن المغول كانوا يعدّون على هذا النحو العدة من أجل المعركة بحثت في القرآن الكريم عن بشير، فطالعتني هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: 1]؛ فكررت فوراً دعاء النصر بصوتٍ عال، وأمرت الجند بالاندفاع إلى الأمام.

ولما بلغنا تاش أريغي استعرضت جيشنا، ووجهت الأمير حسين بأن يعرج على المكان الذي كنا فيه آنذاك، ويشكل الخط الثاني، وإذا أصبح وضعي سيئاً فليهبّ لنجدتي. وبعدئذ وزعت قواتي إلى سبع فرق عسكرية، وتوليت قيادة الخط الأول. وحين وصلنا إلى قرية قبي أصبح الخط الأول للعدو بقيادة بيكيجيك على مرمى النظر، ولما وجدت أن تعداد جيش المغول ضخم، وكانوا متحدين في طابور صلب، ويبدون مخيفين وأشبه بالجبل، فقد رجعت إلى القرآن الكريم من جديد، فطالعتني الآية الكريمة التالية: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ (الحجر: 17) [1]، فامتلأ قلبي بالقوة، وأمرت الخط الأول في جيشي بالهجوم على الفرقة التي يقودها بيكجوك، وفي الوقت ذاته أمر ذلك القائد جزءاً من قواته بمقارعة قواتي، ولما دنا كل منا من الآخر أمرت الميمنة بالهجوم، ثم الميسرة [2]، وبعد أن شنت سريتا الخيالة هجومهما أمرت بأن تقرع الطبول، وتقدمت على رأس الخط. وعندما دنا كل منا من الآخر شنت ميمنتنا هجوماً على ميسرتهم، ولما اشتد الذبح والقتل على هذا النحو، وتلاطمت أمواج بحر المعركة، رأيت أن وضع رجالي قد أصبح سيئاً، لذلك جعلت لوائي يتبدّى للعيان، وبعدما عزفت الموسيقى الملكية توليت بنفسي شن هجوم يائس على رأس قلب قواتي، كما تصرف كافة الأبطال في كل جزء من أجزاء الخط بشجاعة ما بعدها شجاعة، وجعلوا العدو يشعر بآثار سيوفهم الحادة.

ولما بدأ خصمي بيكجوك بالتقهقر والتراجع هب نائباه إسكندر وطوق تيمور وسواهما لدعمه. وفي ذلك الحين لقي جواد بيكجوك مصرعه، فأخذت بيكجوك أسيرا، ولما شاهد ذلك الأميران جمشيد ويوسف شنا هجوماً عنيفاً من أجل إطلاق سراحه، لكن ما إن دنا جمشيد مني، حتى جعل سائس خيولي عادل الذي كان راجلاً جواده عاجزاً، ونتيجة لذلك خرّ القائد أرضاً، وقبضنا عليه. وفي إثر ذلك لكز الأمير يوسف جواده بالمهماز للخروج من هذا الحشد، لكنه أخفق في وضع قدمه في الركاب، فوقع عن صهوته، وأصبح سجيناً أيضاً.

في أعقاب ذلك الحدث زحف إسكندر على رأس فرقته العسكرية نحوي، وبما أن حراسي

---

(1) انظر ترجمة سيل Sale للقرآن الكريم، ص 68.

(2) انظر خطة الجيش، الصفحة الأخيرة من الشرعة.

كانوا يساندونني جيداً فقد اندفعت إلى شن هجوم قوي عليهم، وأرغمتهم على التراجع والالتحاق بقائدهم الأعلى.

وبعد أن أنزلت الهزيمة بالخط الأول للعدو على هذا النحو فقد أمرت بأن ينفخ في الأبواق، وتوقفت في السهل، وأمرت بعد ذلك أن يرفع لوائي كي يستطيع جنودي الذين تفرقوا في ميدان المعركة رؤيته، فينضموا إليّ من جديد.

في ذلك الحين صاح إلياس خواجا بقواته الاحتياطية بأعلى صوته أن يتقدموا، وعندما رأيت أنه كان مرتبكاً، قلت: «الله أكبر»، ثم أخذت بشن هجوم ساحق على قلب العدو على رأس ثلاثمئة وستين فارساً هم كل من تجمع من حولي، وأسقطت لواءهم. وعندما فقد جيش إلياس خواجا اللواء الملكي ولوا الأدبار هاربين، في تلك اللحظة كنت على مقربة من إلياس خواجا، إلا أن إسكندر أغلان ألقى بنفسه بيننا، فاعتقلناه، لكن سيده لاذ بالفرار.

وما إن ولى جيش المغول الأدبار حتى أمرت عدداً من فرقي العسكرية بالخروج في إثرهم ومطاردة فلولهم، ونتيجة لذلك غنموا كثيراً من الجياد والأسلحة، كما قتلوا وجرحوا عدداً من الهاربين. بعدئذ أرسلت فرقتين أخريين لتبقيا في مؤخرة العدو للحيلولة دون إقامتهم معسكراً أو بقائهم، وزوّدت هاتين الفرقتين بأوامر تقضي بألا يقتلوا مزيداً من المغول، بل أن يمسكوا بهم ويجلبوهم إلي لكي أستطيع التعامل معهم وفق ما تقتضيه الظروف.

بعدئذ عسكرت في سهل قبي، وأصدرت أوامري بالإعداد لإقامة حفل ترفيهي ضخم احتفاء بذكرى إنزالنا الهزيمة بالأمير إلياس خواجا وثلاثين ألفاً من المغول على يد ستة آلاف خيال فقط، وبذلك طهرنا بلاد ما وراء النهر من دنس المغول[1].

وبعد أن توقفت في سهل قبي الذي يمكن أن يطلق عليه مقر النصر أمرت بأن تنصب خيامي من كل نوع وصنف، وأنه ينبغي إعداد كميات كبيرة من الحساء واللحم، ودعوت جميع قادة الجحافل والأفواج، وبعدما وصل القادة العسكريون جاء الأمير حسين أيضاً وانضم إلى الوليمة. وفي أثناء الاحتفال أمرت بمثول كبار السجناء من المغول أمامي، وبعدئذ خاطبت بيكجوك الذي كان القائد الأعلى للمغول وكان قد سدد إليّ عدة ضربات قاسية وخاطفة، قائلاً: «لقد أثبت أنك مقر بفضل إلياس خواجا عليك، وذلك بعد أن رفضت عروضي لك، ووقوفك إلى جانبه حتى النهاية»، كما أنني أثنيت على الأمير حميد الذي كان شاباً شجاعاً جداً، وقلت لإسكندر أغلان: «لقد خاطرت بحياتك من أجل إنقاذ حياة سيدك، وإنك بذلك قد تصرفت على نحو جدير بالثناء». ومن ثم سألتهم: «كيف اتفق أنني على رأس قوة ضئيلة أنزلت الهزيمة بجيشهم

(1) يختلف هذا الوصف للمعركة كثيراً عن ذلك الذي عرض له بيتي دي لا كروا Petis de la Croix، ص 71 وما تلاها.

كثير العدد؟» فأجابوني بالقول: «إن حسن طالعكم قد قهرنا، وشتت شمل قوات المغول، وفرق جمعهم؛كذلك بلغ الاتحاد والوئام بجيشكم مبلغاً عظيماً حيث إن ألف سيف كانت تضرب معاً كأنها ضربة سيف واحد؛ في حين أن الخلاف الذي كان سائداً بيننا فرق شملنا، وشتت جمعنا، وبعثر كلمتنا، وجعلنا لقمة سائغة لذراعيك المنتصرتين».

بعد ذلك قلت لهم: «ماذا تتوقعون أنني فاعل بكم؟» فأجابوا: «إن قتلتنا فلن تجعل أعداد جيش المغول تتناقص كثيراً، بل ستقوي الآلاف من الأعداء، ولسوف تسعى جحافلنا وقبائلنا كافة للانتقام لدمائنا، لكن إذا عفوت عنا وتركتنا نذهب، فستسبغ علينا بذلك نعمة وفضلاً كبيراً، ولسوف تثني عليك قبائلنا، وتعدّ نفسها مدينة لك بالفضل، وتصبح صديقاً لها. وسموكم خير من يحكم في ما إذا كانت صداقتنا أو عداوتنا الأجدر بالتفضيل. أما بالنسبة إلينا فنحن لا نأبه إذا قتلتنا أم لا، لأننا في اليوم الذي اتحدنا فيه وهيأنا سيوفنا عددنا دماءنا مسفوحة، ورؤوسنا مفصولة عن أجسادنا». وقد طربت لكلامهم، وسررت أيما سرور، وحاولت إقناعهم بالانضمام إلي، لكن على الرغم من أنني قدمت لهم عروضاً عظيمة إلاّ أنني لم أتمكن من إقناعهم بالانضمام إلي، لذلك خلعت عليهم أثواب الشرف[1]. كما أنني قدمت معاطف لجميع الأسرى الآخرين وأطلقت سراحهم، وأوليت اهتماماً خاصاً بجميع أمراء الجند لدي وجنودي الذين كانوا قد أصيبوا بجروح في المعركة. بعد ذلك أوفدت الأميرين سيف الدين وجاكو ليستوليا على مدينة سمرقند.

أتاني كشّافتي عقب هذا الحدث بأنباء مفادها أن إلياس خواجا على رأس جيش المغول كان قد أقام معسكراً على الضفة الجنوبية من نهر سيحون، إلا أنه أجل موعد عبوره له، لذلك عهدت إلى شير بهرام بإمرة الخط الأول، وأرسلته، وبعد ذلك امتطيت صهوة جوادي وزحفت نحوهم. وما إن بلغ الأعداء خبر اقترابي حتى عبروا النهر من فورهم، وعندما وصلت إلى النهر لم أعثر لهم على أثر. فأمرت بإقامة معسكري على ضفة النهر. لكن بما أن الجو كان شديد الحرارة فقد آذاني ذلك، وضربتني الريح، لكنني تماثلت للشفاء بعد مضيّ ثلاثة أيام.

ولما أصبحت الآن مطمئن البال فيما يتعلق بالمغول فقد استقر رأيي على تسلية جيشي بممارسة الصيد حتى بلغنا منطقة مجاورة لسمرقند. فخرج سكان سمرقند للقائي، وبلغوا حد الإفراط في ثنائهم علي وإشادتهم بي، قائلين: «جاء الحق وزهق الباطل»، ورفعوا أكفهم بالدعاء لي بالفلاح؛ وبعد أن رسخت نفسي في سمرقند، أرسلت مرافقة لجلب زوجتي ألجاي توركان آغا مع ما تبقى من أتباعي من غرمسير في سيستان.

---

(1) أراد تيمور تحريرهم، ولكن جرى تنفيذ حكم الإعدام فيهم بأمر من الأمير حسين. انظر: تاريخ شرف الدين.

الفصل السادس عشر

1364 م: في سنة 766 هـ كنت قد بلغت من العمر ثلاثين عاماً، وبعد أن حررت بقوة سيفي أنحاء بلاد ما وراء النهر كافة من المغول اعتبرت أنه طالما ليس هناك سوى إله واحد في هذا الكون، فينبغي ألا يكون هناك سوى عاهل واحد في المملكة، ويتعين على جميع السكان أن يطيعوه، ويتحتم عليه أن يقطع دابر الفتنة.

لما وجد جميع قادة الجحافل والقبائل في ذلك الحين أن بلاد ما وراء النهر وتركستان قد تحررتا من ربقة المغول المستبدين فقد أخذ كل منهم بالاستقلال متكلاً على قوة أتباعه ودعمهم، فكان لزاماً عليهم أن يعلموا أن كل من يطيع أوامري ينبغي أن يكون تحت حمايتي، وأنني سأعاقب بشدة كل من تسول له نفسه الخروج على طاعتي.

ولما كان العدد الأكبر من الجحافل والقبائل قدموا ولاءهم لي، وأقروا بأني حاكمهم الأعلى، فقد أصبح الأمير حسين غيوراً، وتاق إلى أن تكون السيادة له وحده دون سواه. لذلك جمع عدداً من الزعماء الأدنى مكانة، وبعدما تداولوا في الأمر قرروا أنه نظراً لأنني لست سليل الأسرة السلطانية بل أنتمي إلى أسرة من ذرية القائد العام، فإنني لا أملك الحق في تسنم المُلك.

عندما بلغني هذا الخبر أرسلت إليهم الرسالة التالية: «لا بد لمن يرغب في معانقة العروس الملكية من أن يقبّلها عبر حد السيف البتار. لقد أنزلت الهزيمة بإلياس خواجا وجيش المغول من دون أي حليف، والمملكة هي ملكي وحدي دون سواي». فأجابوني: «يجب أن يكون ملكنا سليل جغتاي خان»، ونتيجة لهذا القرار رقوا كابل شاه أغلان إلى منصب الملك أو الخانية، ومع أنه سليل جغتاي خان إلاّ أنه أصبح درويشاً. لكن بعدما جردوه من أسمال المتسولين، ألبسوه رداء الدولة، وزودوه بكافة متطلبات الملكية، ونصبوه على عرش السيادة.

وما إن علمت بذلك، حتى دعوت إلى عقد اجتماع لجميع الأعيان ورؤساء القبائل ممن يشايعونني، وبعد أن زحفت نحو كش اتخذتها مقراً لإقامتي طوال فصل الشتاء، كما انتقل الأمير حسين في الوقت ذاته إلى سالي سراي مقامه السابق[1].

ومع الربيع تلقيت خبراً مفاده أنه بعدما تحرك جيش المغول من إقليم قبجاق حيث كانوا على وشك غزو إقليم بلاد ما وراء النهر من جديد، وما إن بلغ هذا النبأ الأمير حسيناً ورؤساء القبائل الآخرين الذين كانوا قد رقوا كابل شاه إلى منصب الملك حتى قالوا فيما بينهم: «إذا أردنا من جديد أن نصد المغول فيجب أن نصالح الأمير تيمور ونضمه إلينا بعد نزاعنا معه، وذلك عبر الإقرار بأنه الأرفع مكانة، وعلينا طاعته إلى أن نخرج المغول». نتيجة لهذا القرار كتبوا لي رسالة

(1) تقع على الضفة الشمالية من نهر جيحون، قرب ترمذ.

مشتركة تتضمن الاعتذار عن سلوكهم السابق، وألقوا أنفسهم علي مستدرين عطفي وإحساني.

عندما نقلت الأنباء عن توحيد جميع رؤساء القبائل إلى ملك بهادر تولى مؤدب الخان الشاب كابل شاه قتل هذا الخان بدون وجه حق، وجاء يهنئني على تسنمي الملك، فقرّعته قائلاً: «ليس من المناسب أن يبقى قاتل الملك على قيد الحياة». وبناء عليه سلّمته إلى ورثة الأمير القتيل لكي يكون باستطاعتهم الانتقام منه، ووجهت رسالة إلى الزعماء قلت فيها: «بما أنكم أقررتم الآن بتبوئي المكانة الأرفع، فلسوف أزحف على رأس أتباعي ومشايعي نحو ضفة نهر سيحون، وأدافع عنه على نحو لن يتمكن المغول معه من عبوره واجتيازه».

الفصل السابع عشر

كان الترتيب الذي اتخذته من أجل الحرب الثالثة التي خضت غمارها مع المغول هو التالي:

حينما حشدت ستة آلاف فارس وزعتهم إلى سبع فرق، وزحفت نحو المغول، وعندما وصلت إلى قرية أكيار بلغني أن العدو كثير العدد، وهو يتقدم بسرعة كبيرة، وبناء عليه توقفت في أكيار، وأوفدت رسولاً يحمل رسالة مستعجلة إلى الأمير حسين أستحثه الخطى، وعندما اقترب تقدمت من جديد وعبرت نهر سيحون، وحصنت بعدئذ ضفته الشمالية. كما أنني أرسلت العيون لتزويدي بالمعلومات، وسرعان ما عادوا ليبلغوني أن جيش المغول كان يعسكر على ضفاف نهر بادام، وأن شكنم بهادر كان يتولى إمرة الميمنة، وحاجي بيك الميسرة، وإلياس خواجا القلب، وقبجاق بهادر الخط الأمامي.

نتيجة لهذه الأنباء نظمت الآن قواتي؛ فعهدت بقيادة الميمنة، التي كانت تتألف من قوات الأمير حسين، إلى بلانشي أرلات؛ بينما كان الخط الأمامي بقيادة ملك بهادر؛ والميسرة ومعها قبيلة قبجاق بإمرة الأمير ساربغا؛ وتوليت زمام قيادة الميسرة، تاركاً الأمير جاكو وسواه من أمراء الجند مع الجنود الاحتياطيين؛ وأبقيت قلة من أمراء الجند الذين أثق بهم حولي. عندما اتخذت هذا الترتيب عبر الأمير حسين النهر وبرفقته ألف فارس، وحرك جيشه.

ولما كان كل شيء يجري وفق الترتيب الصحيح قلت للأمير حسين: «ليس من المناسب أن نخوض معركة عامة، وسأتقدم لأهاجم العدو بقواتي، إن وعدتني بإخلاص بحماية مؤخرتي، أو إن شئت أن تتولى القيادة فسأدعمك». في ذلك الحين كنا أكثر عدداً من العدو، وكانت قواتنا أكثر جرأة؛ ولكن جرياً على العادة رجعت إلى القرآن فطالعتني هذه الآية الكريمة: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ

عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (التوبة: 26/ 25)، فامتلأ قلبي قوة.

بيد أن الأمير حسيناً لم يصغ إلى طلبي بتقسيم جيشينا، قائلاً: «لا تدعنا ننفصل عن بعضنا بعضاً، بل لنتقدم في صف واحد، ونهاجم عدونا»، فأجبته من جديد: «ليس في صالحنا محاربتهم على هذا النحو، دعنا نهاجمهم بأسلوب القوزاق»، لكنه لم يعر نصحي أذناً مصغية.

لم يكن لدي أي خيار سوى الخضوع لرأيه وتحريك جيشينا. وفي برهة من الزمن دنا منا جنود العدو المستخدَمون في المناوشة، وهاجمت القوات الخفيفة من كلا الجانبين بعضها بعضاً، بعدئذ تبادلت الخطوط الأمامية ضرب السيوف، وشنت بعض سرايا الخيالة بإمرة زنده خشم هجوماً ضخماً على ميمنة الأمير حسين، فتفرق شملهم وتبدد جمعهم، لكن بعضاً من أمراء جنده تشبثوا بمواقعهم. بعدئذ جرد إلياس خواجا فرقة بقيادة الأمير شمس الدين لمعاودة الهجوم، وبات هذا القائد على مقربة شديدة من حسين، ولما رأيت أن الهزيمة ستحل بهم على الأرجح توليت على رأس سبع عشرة سرية خيالة شن هجوم يائس على شمس الدين. بُعيد ذلك خشي مقارعتي، فكبح جماح فرسه وولى هارباً يجرّ أذيال الخزي. وبعد أن ألحقت به الهزيمة على هذا النحو هاجمت قلب قوات إلياس خواجا، وبعدما أنزلت بهم الهزيمة وجهت رسالة بوساطة تابان بهادر إلى الأمير حسين: «أرغب إليك في الحضور إليّ، ولسوف ننتصر بفرار العدو بأكمله».

وقد تصرف الأمير حسين على نحو أشبه بالأبله، فقرّع رسولي، وقال: «أيحسب أنني جبان ليستدعيني على هذا النحو أمام الجيش؟» فأوفدت من جديد ملك مهدي، الذي كان أحد أقربائي، ملتمساً منه المجيء، إذ إن العدو كان على وشك أن ينهار، فغضب الأمير حسين مني مجدداً، وقال: «تحلَّ بالصبر إلى أن أستطيع توحيد قواتي التي تقطعت أوصالها». فأجابه ملك مهدي: «لقد أنزل الأمير تيمور الهزيمة بالخط الأول للعدو، وهو يشتبك الآن مع الجنود الاحتياطيين الذي أوشكوا على الانهيار، فإن برز للعيان جنودك الاحتياطيون فلا شكّ في أن العدو سيولي الأدبار». فما كان من الأمير حسين إلا أن ضربه وأعاده إلي.

ولما عاد ملك مهدي إلي رأيت أنه كان مهيض الجناح، لكنه لم يخبرني أنه قد تعرض للضرب، بل اكتفى بالقول: «إنّ من الحماقة مد يد العون والمساعدة إلى هذا الشخص الغبي، فهذا الوغد يودّ أن نعرّض حياتنا للخطر بلا جدوى، بحيث ينجو هو من دوامة الخطر».. من هذا التلميح أدركت أن رغبة الأمير حسين هي أن أقع لقمة سائغة بين فكي العدو. وبما أنني كنت في ذلك الحين قد ألحقت هزيمة منكرة بميمنة العدو، ولم أجد إمكانية الحصول على مساعدة من الأمير حسين فقد كففت عن المضي في القتال. وبعد أن نظّمت صفوف قواتي من أجل المعركة

اتخذت موقعاً لي على ضفة الغدير الذي كان يمر عبر السهل.

وعندما رأى العدو أنني توقفت عن القتال، وأنني بعدما جمعت رجالي اتخذت موقعاً لي في الميدان، ولما كانوا يشعرون بالإرهاق الشديد، فقد امتلؤوا حبوراً، وأخذوا موقعاً لهم في الميدان أيضاً.

في تلك الليلة اتخذت من صهوة جوادي سريراً، وشكل أمراء جندي دائرة من حولي، ومع ذلك فقد أرسلت الكشافة في كافة الاتجاهات ليأتوني بالأخبار. وبينما كنت على هذه الحال جاءني رسول موفد من الأمير حسين ليعتذر عن سوء سلوكه، مبدياً ندمه وأسفه على ما سلف، ويلتمس مني أن أستأنف القتال، فأعدت الرسول ليقول له: «إنّنا ضيعنا الفرصة، وأنني عندما قطعت أوصال العدو كان من اليسير إخضاعهم آنذاك؛ أما وأنهم أعادوا الآن تجميع قواتهم ونظموا صفوفهم فليس من المجدي أن نحاول مواجهتهم».

قضيت الليلة في ميدان المعركة على هذا النحو، وأخذت الخيول قسطاً من الراحة. وما إن انبلج الفجر حتى قمنا لتأدية صلواتنا، وحينما أشرقت الشمس أصبح في مقدور العدو أن يرى وضع جيشي، فقرعوا طبولهم وشرعوا يرددون تعويذاتهم[1].

هطلت بعد ذلك أمطار غزيرة جداً، وأصبح السهل أشبه بالمستنقع، وأصبحت الجياد لا تستطيع التحرك؛ ومع ذلك فإن محاربي من فرط شجاعتهم وشعورهم بالشرف قرعوا طبولهم، واستلوا سيوفهم، واستحثوا خيولهم، وتقدموا، وخاضوا في الطين والأرض الموحلة، كما أمرت بأن ينفخ في الأبواق، وانطلقت إلى الأمام.

أمسك رجالي في ذلك الوقت تقريباً بساحر؛ وحينما ضربوا عنقه توقفت العاصفة[2]. وبعد ذلك أمرت قواتي بالهجوم، وهو ما فعلوه، فشتتوا شمل العدو، وواصلوا مطاردة فلولهم، بينما توقفت في السهل، وجعلت موسيقى النصر تعزف.

وبينما نحن على هذه الحال ظهر في الأفق لواء الأمير شمس الدين قائد جيش المغول، تتبعه قواته كلها. لم يكن برفقتي في هذه اللحظة سوى ألفي فارس، فأمرت ألفاً منهم بمهاجمة العدو، فنهضوا بذلك بمنتهى الشجاعة، إذ إنهم قطعوا أوصال الخط الأول وبلغوا اللواء، لكن الخط الثاني هبّ لنجدة الأول، وتواصلت المعركة من الصباح حتى الليل، وفي النهاية قتل قرابة ألف من رجالي البالغ تعدادهم ألفين.. «لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم».

---

(1) انظر: Petis de la Croix's History, page 84. ومما هو جدير بالملاحظة أن تيمور لم يأت على ذكر هذه الموقعة التي يطلق عليها اسم «الأرض الموحلة» في خططه.

(2) يطالعنا في مذكرات بابُر ذكر لقدرات سحرة تركستان، وما لحجر اليشب الأخضر (الجاد) من تأثيرات عجيبة.

وما إن أرخى الليل سدوله حتى انضمت إليّ من جديد قواتي التي تبعثرت، ووجدت أنني بسبب هذه الكارثة فقدت ألف محارب، وبناء عليه ارتأى قادة جندي أنه نتيجة لهذه المصيبة والحاجة إلى تعاون الأمير حسين ينبغي أن نتراجع نحو كش، حيث تنضم إلينا جميع فصائلي، وعندئذ يكون في استطاعتي مواجهة العدو، لذلك انطلقنا نحو كش.

تبين لي بالتجربة من هذه الواقعة أن وجود قائدين في أي جيش من الجيوش لا بد وأن يترتب عليه النزاع، واعتزمت ألاّ أتحد والأمير حسيناً ثانية، أو أن أعيّن اثنين من القادة في جيش واحد.

عندما بلغنا منطقة مجاورة لكش انضمت إلي جميع قواتي التي كانت مشتتة، فأعدت تشكيل جيشي من جديد. جاء في ذلك الحين الأمير حسين وعسكر في بقعة تبعد عنا مسافة أربعة أميال، ولما كان يشعر بالخجل الشديد جراء سوء سلوكه فقد أوفد مبعوثاً ليبلغني أنه يرى ضرورة اصطحابنا لجميع جحافلنا وقبائلنا لنعبر نهر جيحون، وندخل خراسان. لم أكن أرغب برؤية الرسول، لكنني أخبرته أن شرفي لا يسمح لي بأن أتخلى عن بلادي ليدوسها المغول الهمجيون، وأنني سأحشد جيشاً من جديد، وأجابههم وأقارعهم بكل ما أوتيت من قوة، إلى أن أطردهم من بلاد ما وراء النهر.

لما خاب أمل الأمير حسين سار بعيداً نحو مقر إقامته في سالي سراي، وجمع قبيلته، وأقام معسكراً على الضفة الجنوبية لذلك النهر بانتظار معرفة ما إذا كان المغول سيسلكون ذلك الطريق أم لا، واعتزم أنه في حال حصول ذلك سيتراجع نحو هندوستان.

بقيت بكل جرأة حيث كنت، وحصنت جوار كش، وأصدرت الأوامر بحشد جيش ضخم. وبعد حين جمعت لحسن الطالع اثني عشر فوجاً، عهدت بقيادة ثلاثة منها إلى كل من تيمور خواجا، وجانجي بهادر، وعباس بهادر.

على أثر ما بلغني من وصول جيش المغول إلى كوكينغ، وهي بلدة في إقليم سمرقند، وتوقفهم هناك، أرسلت هذه الأفواج الثلاثة ليكونوا بمثابة خط أمامي نحو سمرقند، وبعدئذ أنطت قيادة فوجين آخرين بكل من داود خواجا وهندو شاه، وأرسلت كلاً منهما إثر الآخر، لكن بعدما التحقوا ببعضهم بعضاً قضوا وقتهم في إقامة الولائم ومعاقرة الخمرة. لما أصبحوا ثملين بعد حين قال قادة الجند الأوائل إلى الأخيرين: «أتعلمون بأن نية الأمير تيمور متجهة إلى القضاء عليكم بعد إنزاله الهزيمة بالمغول؟» وبعد أن صدق أولئك الثملون البائسون ما تناهى إلى سمعهم استبدّ بهم الرعب، وهجروا الحرس الأمامي، وانطلقوا نحو معسكر المغول.

وعندما علمت بهذه الواقعة لعنت أولئك الأنذال. واتفق أن الحرس الأمامي للمغول التقى مصادفة مع أولئك المنشقين الذين قادوا بالخيانة العدو إلى تيمور خواجا وعباس بهادر اللذين بعد بضع مناوشات وجَدا ألاّ قِبَل لهما بمواجهة أعدائهما، فوليا هاربين.

ولما بت على قناعة بأن النبيذ كان هو السبب وراء النزاع، أمرت بأن يصب الرصاص المذاب في حلق كل من يشربه من الآن فصاعداً، وأن تصادر موجوداته كلها. ونتيجة لهذه المحن، شعرت أن ما يتوقع لي من حسن الطالع والسؤدد قد تأجلا.

وعندما أتممت لَمَّ شمل قواتي المبعثرة وتجميعها من جديد زحفت على رأسهم نحو بلخ، وبعد أن بلغتها أقمت معسكراً على ضفة نهر جيحون لإتاحة الوقت أمام مختلف الجحافل التي كانت مشتتة لتحتشد من حولي، وسرعان ما انضمت إلينا قبيلتا تومك خان وإيلشي بُغا سلدوز.

وبعدما علمت ببلوغ المغول جوار سمرقند عبرت نهر آمو، وجعلت القوات تتمركز عند أماكن العبور المختلفة.

جاء في ذلك الحين تيمور خواجا الذي كان سوء سلوكه السبب الرئيس وراء محنتي الأخيرة، فسلم نفسه. في بادئ الأمر أصدرت الأوامر بتنفيذ حكم الإعدام به، لكن بعد أن ركع قادة الجند الآخرون على ركبهم ملتمسين له العفو صفحت عنه.

وصلت إليّ في ذلك الحين رسائل موجهة من العلماء ملا زادة السمرقندي؛ وخوردك البخاري؛ وأبوبكر؛ وسواهم من كبار الشخصيات في سمرقند، تتضمن الإعلان عن بلوغ جيش المغول جوار سمرقند، وأنه على الرغم من أن المدينة ليس بها قلعة إلاّ أنهم مع ذلك حصنوها، وأنهم يناوشونهم يومياً، والتمسوا مني أن أهب فوراً لنجدتهم، عندها سيرغمون المغول عما قريب على التراجع بإذنه تعالى.

ونتيجة لهذه الأنباء حشدت جيشي الذي يضم سبعة آلاف فارس، وعبرت النهر من جديد. ومع ذلك كان يتنازعني رأيان: أينبغي أن أتقدم فوراً لنجدة سمرقند فأصون بذلك ممتلكات المسلمين وشرفهم وحياتهم؛ أم يتعين علي القيام بهجوم ليلي على معسكر المغول بأسلوب القوزاقيين، وأجعل البلاد من حولهم أثراً بعد عين.

بينما كنت متردداً على هذا النحو تلقيت رسالة من سكان سمرقند مفادها أن العناية الإلهية، بوصفها عقاباً للأعمال الاستبدادية والظالمة التي مارسها المغول بحق المسلمين، قد شاءت أن تبتلي المغول بوباء خطير أتى على عدد منهم، وقتل خيولهم كافة. وبناء عليه حركت جيشي، وانطلقت نحو سمرقند بعد أن عهدت إلى عباس بهادر بإمرة الخط الأمامي.

عندما بلغ المغول نبأ اقترابي فضلوا الفرار على القتال، وانطلقوا جميعاً نحو الصحراء بعد أن ربطوا دروعهم في رزم على ظهورهم، فأرسلت قوة لتطاردهم، وزودتهم بأوامر تقضي بإخراج أولئك البائسين المبتلين بالوباء من إقليم بلاد ما وراء النهر، كما أنني خرجت في إثرهم، لكن حينما التقيت بهم وجدتهم في حال يرثى لها، إلى درجة أنني رثيت لحالهم هذه. وبناء عليه

توقفت عن مطاردتهم، وقفلت عائداً إلى سهول بكلان. ومن هناك أرسلت الأمير جاكو ومعه قادة جنود آخرون للاستيلاء على سمرقند.

وبينما بقيت في سهل بكلان كان الأمير حسين قد ترك مقر إقامته الشتوي، وبعدما قصد سالي سراي أولاً حيث ترك أهله وعياله جاء وانضم إلي في بكلان. ولما كان الشتاء آنذاك في مقتبله فقد تشاورنا في أفضل ما يمكن أن نفعله، واستقر رأينا على ضرورة أن أمضي إلى قارشي وأتخذها مقراً لإقامتي الشتوية، بينما يتعين عليه العودة إلى سالي سراي والبقاء فيها. كان الأمير حسين يشعر بالحسد الشديد لاستيلاء قواتي على سمرقند، لكن بما أنه لا سبيل إلى إصلاح أمره فقد اضطر لابتلاع حسده، لذلك افترقنا فيممت وجهي نحو قارشي[1] حيث أمضيت فصل الشتاء بأكمله، كما أذنت لجنودي بالذهاب إلى ديارهم لينالوا قسطاً من الراحة إبان هذا الموسم العاصف، على أن يعودوا للانضمام إليّ مع بداية فصل الربيع.

الفصل الثامن عشر

1365 م: لما كنت قد بلغت الحادية والثلاثين من العمر في سنة 767 هـ فقد أعددت العدة للزحف نحو سمرقند، بيد أنني أصدرت الأوامر أولاً بترميم قصر كبك خان الذي يعرف بالتركية باسم قارشي، وأوعزت بتشييد حصن عند باب المدينة، وإقامة بضعة أبنية أخرى. وما إن حلّ فصل الربيع حتى زحفت نحو سمرقند امتثالاً للوعد الذي قطعته للأمير حسين، وحين وصلت إلى هناك أقمت معسكري بجوارها.

كان الأمير حسين قد سبقني واتخذ تلك المدينة مقراً لإقامته. وأول ما قام به من أعمال طمعه في ثروة الأمير جاكو وسواه من قادة جنودي الذين كنت قد أرسلتهم للاستيلاء على المكان، وبعد أن اعتزم نهبهم عين جباة عليهم. وبما أنه تصرف على هذا النحو المخزي فقد اتجه رأيي إلى تجريد سيف الانتقام من غمده، لكنني تذكرت صلة القرابة الوثيقة بيننا، والعرفان بالجميل الواجب تقديمه إلى أسرته، فكبحت جماح غضبي، وكظمت غيظي من كل ما قاله أو فعله. ولما كان قادة جنودي قد أنفقوا كل ما جنوه على إعداد رجالهم وخيولهم من جديد، ولم يعد لديهم المال، فقد أرسلت رسالة إلى الأمير حسين مفادها أنه «إذا أراد اقتسام ثروة سمرقند على نحو ودّي، فلسوف أفعل ذلك»، وبناء عليه أرسلت له بعضاً من الخيول والإبل التي لدي، لكن لما كان جشعه عظيماً فقد أرسلت له إضافة إلى ذلك مبلغاً ضخماً من المال، كما أرسلت

---

(1) اسمها الأصلي «نخشب»، لكنه تبدل فأصبح «قارشي» بسبب تشييد قصر فيها على يد أحد أمراء المغول. تفصلها الصحراء عن نهر جيحون، وتقع على خط عرض 38.45 درجة.

له زوجتي أخته ألجاي توركان آغا بعضاً من مجوهراتها، وعندما رأى حلي أخته وكان قد نسي حتى عاطفته الأخوية، لم يكتف بأخذها كلها، بل طالب بالمزيد. ومن أجل أن أضع حداً لجشعه أرسلت له مبلغاً ثانياً من المال، لكن ابتزازه أثار سخط قادة جنودي جميعهم، كما أثارت دناءته اشمئزازهم، وبالتالي زرع بذور العداوة له في قلوبهم.

حين استعرت نيران جشع الأمير حسين وعلا لهيبها بدأ يشتهي ما لدى سكان سمرقند من ممتلكات، واعتزم أن ينتزع منهم مبالغ من المال. ولكي يضع ذلك موضع التنفيذ حث بعض الميّالين لإثارة الفتن لتقديم شكوى بحق الملا خوردك والملا أبي بكر اللذين كانا قد جمعا من السكان مبلغاً من المال في سبيل صون المدينة من المغول، وقد أنفقاه على إقامة تحصينات جديدة، لذلك استدعى هذين الرجلين الجليلين للمثول بين يديه. وفي دفاعهما عن نفسيهما قدما له أمري الخطي المتضمن توجيههما ببذل كل ما في وسعهما للذود عن المدينة، وأنهما نتيجة لذلك جمعا هبات أنفقاها على أكمل وجه، وأفلحا في صد العدو، وأن الحسابات كلها جاهزة، ويستطيع أن يتفحصها، وإن وجد أنهما مذنبان بارتكابهما جرم الاختلاس أو التدليس فبمقدوره أن يفرض عليهما تأدية هذا المبلغ. لكنه لم يأبه لالتماسهما، ولم يتفحص الحساب، بل أمرهما بتأدية المبلغ بأكمله، وحين لم يمتثلا لهذا المطلب الجائر أنزل العقاب بالعديد من العلماء بيديه. وقد أثار سوء سلوك الأمير حسين وجشعه المفرط اشمئزاز الناس جميعاً، وراحوا ينشدون القضاء عليه. ونتيجة لهذا السلوك أحدث أعداؤه صدعاً بيني وبينه، وعلى الرغم من قسمي بأنني لا أكنّ له سوى الشعور بالمودة، إلا أنه لم يصدقني وثابر على بث العداوة والبغضاء.

وبعد حين خرج عليه الفريق الذي كان يرغب في القضاء عليه وأخذوا يشايعونني، ومع ذلك واسيتهم، ورجوتهم أن يعودوا، وكتبت رسالة إلى الأمير حسين تتضمن «التماسي منه أن يصلح ذات البين مع قادة جنده، وأن يعاملهم بلطف»، لكنه بأسلوبه الانفعالي المعتاد لم يصغ إلى نصيحتي، إلى أن ثار عليه أخيراً أخوة لزوجات الأمير حسين: الأمير موسى، وعلي درويش، وفرهاد بهادر، واعتزموا أن يقضوا عليه. ولكي يضعوا هدفهم هذا موضع التنفيذ عقدوا العزم على توسيع الصدع بيني وبين الأمير حسين، فأرسلوا له بالاشتراك مع إحدى قريباته الأميرة أودو رسالة من نسج الخيال صيغت في هذه الألفاظ: «أيها الأحمق! استيقظ من نومك، الأمير تيمور هو عدوك المبين، وقد ناصبك العداوة، وفي غضون مدة وجيزة من الزمن، وبالاتحاد مع قادة جنودك، سيقضي عليك، ويجعلك أسيره، شأنك في ذلك شأن الملك في الشطرنج». وحينما بلغت هذه الرسالة الزائفة الأمير حسيناً ناصبني العداء والبغضاء، وأرسل إلي تلك الرسالة.

وبعد ذلك استدعيت الأمراء موسى، وعلي درويش، وفرهاد ليمثلوا بين يدي، لكنهم حين

أدركوا خيانتهم شعروا بالخجل، وولوا هاربين. وعلى الرغم من أن فرارهم كان برهاناً واضحاً على كذبهم فإن الجرح كان ما يزال يعتمل في كبد حسين، فزاد في عداوته لي، ونتيجة لذلك راح يدبر المكائد للقضاء علي.

من أجل الحيلولة دون وقوع هذه المحنة استشرت شير بهرام جلائر بشأن أي من الوسائل التي يمكنني اتباعها لإرضاء الأمير حسين، ولما كان شير بهرام يناصب الأمير العداوة فإنه لم يخف ذلك عني، بل قال لي بصراحة: «حسين ليس عدوك المبين فحسب، بل عدوي أيضاً، ولا ريب في أنه سيقضي علينا معاً إذا سنحت له الفرصة، لذلك فإنني لا أثق به على الإطلاق».

أخذ الجزع ينتابني لدى سماعي حديث بهرام، لكنني لم أفُه بكلمة عن هذا الموضوع، واكتفيت بالرد: «لما كان ثمة صداقة طويلة وصلة قرابة وثيقة بيني وبين الأمير حسين فكيف يمكن أن أعارضه، أو أناصبه العداء. لن أصدق اتهامك له، إلا إذا قدمت لي دليلاً ما على خيانته»، فقال بهرام: «إذا كنت لا تصدقني فاختبره، واسمح لي أن أكتب له رسالة تتضمن التماسي منه الصفح، وإذا كان لا يحمل ضغينة تجاهي فلسوف يعفو عني ويسامحني، وإلا فإنه سيرفض». وقد وافقت على ذلك، وكتب الرسالة، لكن الأمير حسيناً مزقها من فوره إرباً إرباً، واعتراه الاضطراب، وأرسل إليه رسالة قال فيها: «إنه يأمل القضاء عليه عما قريب».

وحينما بلغني ما جرى بت على قناعة بأن الأمير حسيناً أصبح الآن عدوّي اللدود، لذلك حشدت جيشي، وأوفدت شير بهرام إلى ختلان ليستطيع جمع قواته هناك، وأرسلت برفقته عادل بهادر، لكنني جعلت الأخير يترك ولده طاش خواجا معي ضماناً لسلوكه.

بعد أن وصل شير بهرام إلى ختلان جمع عدداً كبيراً من الجنود، واستولى بنفسه على حصن بيلاق سوتورغ، وشق عصا الطاعة، وأعلن العصيان والثورة على حسين. بيد أن الأخير رأى أنّ من المناسب أن يخدعه ويتظاهر بخلاف ما يضمر له، وفاز به إلى جانبه. أقنعه بعدئذ بأن ينسى كل ما قطعه من وعود وما حلفه من أيمان بالولاء لي، وبناء عليه كتبت لشير بهرام رسالة حادة، أنّبته فيها على نكرانه للجميل وافتقاده للإخلاص والأمانة، وختمتها بالقول: «بما أنه هو من الذي ألهب نيران الخلاف بيني وبين الأمير حسين، فإنني أتضرع إلى الله تعالى أن تلتهمه النيران ذاتها، وأن يكون لديه سبب للتوبة من خيانته»، وبعد حين طوى النسيان كل ما كان له من ذكرى في ذهني، وسحقته المحن التي توالت عليه.

ولما وجدت أن الأمير حسيناً أصبح الآن عدوي اللدود، وأن من الضروري أن أُعنى بسلامتي الذاتية، فقد أرسلت بهرام جلائر والأمير جاكو وعدداً من قادة الجند الآخرين عن طريق سيحون لضمان قبيلة جلائر، ولوضع بعض الأعمال الأخرى ذات الأهمية موضع التنفيذ. وقد أفلح

بهرام في انتزاع زعامة قبيلة جلائر من ابن عمه، وتولى قيادتها بنفسه، لكنه تلكأ في عودته لأن الشكوك كانت تراوده حيال ما إذا كانت العداوة القائمة بيني وبين الأمير حسين ستستمر، وأنه ربما يكون متورطاً في الصعوبات بين هذين الطرفين.

الفصل التاسع عشر

1366 م: في سنة 768 هـ كنت قد بلغت من العمر اثنين وثلاثين عاماً، وقد كنت منهمكاً في تنظيم صفوف جيشي على نحو لائق، وعندما نفذت ذلك زحفت على رأس جنودي كافة من قارشي، وهدفي التوجه إلى سمرقند، من أجل زيادة عدد قواتي. في نهاية اليوم الأول للمسيرة انشق عني الأمير سليمان وجاورشي اللذان كانا المحرضين الرئيسين على النزاع بيني وبين صهري، وانضما إلى الأمير حسين. لكن بالتزامن مع ذلك كان رئيس قبيلة يوسوري قد توفي، وخلفه إخوته علي درويش، وإلياس خواجا، وحاجي محمود الذين انضموا إلي جميعاً وبرفقتهم قبيلة يوسوري بأكملها، والتحقوا بجيشي. وعاد للانضمام إلي أيضاً الأمير جاكو وعباس اللذان كنت قد أرسلتهما برفقة بهرام جلائر إلى سيحون، ومعهما فرقتاهما العسكريتان.

ولما كان جيشي قد تعزز إلى حد كبير فقد تقدمت نحو سمرقند، وعندما أوشكت على بلوغ ذلك المكان خرج أعيان المدينة للقائي، والتمسوا مني تنصيب حاكم عليهم، ونتيجة لذلك عيّنت كيرا هندوكه برلاس حاكماً على سمرقند، وقفلت عائداً إلى معسكراتي في قارشي. ولكن بعدما قطعت مرحلتين نحو موطني تنحى ذلك الشخص الأشبه بالهندوس عن حكم سمرقند، والتحق بالأمير حسين.

بلغني في هذا المكان خبر مفاده أن زوجتي ألجاي توركان آغا الذائعة الصيت، التي تركتها مريضة جداً، قد توفاها الله وغادرت هذه الحياة الفانية، وعند سماعي ذلك الخبر قلت: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

وحينما نمي إلى الأمير حسين خبر وفاة أخته أحزنه ذلك كثيراً، وأدرك أن الرابطة التي تجمع بيننا قد انفصمت عراها الآن، وأن صلة القرابة بيننا لم تعد قائمة. ومع ذلك فقد كان شديد العنف تجاهي، وراح يعدّ العدة للحرب، فحشدت قواتي أيضاً، ولم أتراخَ في اتخاذ إجراءاتي الوقائية. أرسلت في بادئ الأمر الأمير سيف الدين على رأس قوات من جيشي المظفر إلى شوغتايان، حيث كان يعسكر الأمير حسين، وذلك للحصول على المعلومات. وما لبث أن بعث إلي نبأ مفاده أن الأمير حسيناً عاقد العزم على خوض غمار الحرب، لكنه يرغب في مواصلتها متوسلاً بالمكيدة والحيلة، ونصحني بأن أتوخى الحذر.

وحينما علم الأمير حسين بمغادرتي قارشي، وإرسالي مفرزة نحو معسكره، أوفد ولده عبد الله حاملاً رسالة خطية، وأخرى شفهية تنطوي على الخداع. وقد نصت الرسالة على «أن مقترحاته نابعة عن القلب لا اللسان، وأنه يكنّ لي أصدق المودة، وأستطيع أن أضع ثقتي المطلقة في وعده هذا».

عندما وصل عبد الله إلى معسكري، الذي كان مقاماً في خولكه، نقل لي الرسالة الشفهية، وقدم الرسالة الخطية، فرفضت قراءة هذه الرسالة، ولم أعر أي اهتمام للرسالة الشفهية، وكان السبب الذي حداني إلى ذلك أن معظم قادة جنودي كانوا رجالاً خرجوا على الأمير حسين، والتحقوا بي، لذلك كانوا يخشون إذا حصل السلام بيننا أن يقعوا ضحية لمصالحتنا. وبما أنني كنت أرتاب بأن ذلك هو الدافع الذي حث الأمير حسيناً على التقدم بمقترحاته، فقد أرسلت في طلب رؤساء قبيلة يوسوري، وخاطبتهم قائلاً: «لقد قرع الأمير حسين باب الصداقة، وإنني أعلم أن هدفه إحداث خلاف بيني وبينكم، لكن لم يبق بيني وبينه الآن سوى السيف». ولدى سماع رؤساء القبيلة قولي هذا امتلأت قلوبهم قوة، وهم الذين كانوا متردّدين حيال ما يتعين عليهم فعله، ووجدوا أنني عازم على مواصلة الحرب، وهكذا استرضيت رجال قبيلة يوسوري جميعاً، وبعدئذ منحتهم العطايا والهدايا.

وعندما وجد الأمير حسين أنني لن أعقد أي معاهدة معه أحجم عن الإتيان بأي أعمال عدائية، كما أنني قفلت عائداً إلى قارشي، لكنه ما لبث أن زحف نحو قارشي بعدما حشد جيشه، وعين شير بهرام قائداً على قواته الأمامية، تحدوه الرغبة في إلقاء القبض عليّ متوسلاً بالخداع والحيلة. وبينما كنت معسكراً في هرار أرسل إلي خازنه خضراً ومعه القرآن الكريم، وزعم أنه أقسم عليه بأنه لا يضمر لي العداوة، وتضرع إلى الله تعالى إن كان مذنباً بارتكاب جرم الحنث باليمين أن ينزل عليه القرآن الكريم العقاب والخراب، ولكن من أجل تأكيد صداقتنا يتحتم علينا أن نعقد اجتماعاً، واقترح لذلك أن نجتمع في ممر جكجك الجبلي ونجدّد تعهداتنا السلمية، وعلى هذا النحو فإن أي خسيس محرض على الفتنة لن يكون قادراً بعد الآن على إثارة النزاع بيننا. وعلى الرغم من هذه التوكيدات فقد تبين لي أنه أرسل المفارز إلى طرفي الممر الجبلي بعدما زودهم بأوامر تقضي بإخفاء أنفسهم، وأن يغلقوا الممر بعد دخولي إغلاقاً تاماً من الأمام والخلف، وأن يقبضوا علي. ومع ذلك فقد أنصتّ للمقترح الذي عرضه رسوله ومفاده: «أنه يجب أن أترك جيشي حيث يتمركز، وأن يترك الأمير حسين قواته في جوكانيان، ويتعين على كل منا أن يتقدم على رأس مئة رجل فحسب إلى بقعة مبهجة في الممر الجبلي، تزخر بالمياه والخضرة، حيث يستطيع كل منا الاستمتاع بصحبة الآخر، وتجديد عهود الصداقة، وتقاسم

إقليم بلاد ما وراء النهر بيننا على نحو ودي[1]».

وبعدما استمعت إلى رسالة الأمير حسين هذه التي تنطوي على الخداع أصدرت الأوامر سراً بأن يتقدم جزء من قواتي ليلاً ليتخذوا مواقعهم على الطريق أمام الممر الجبلي، وأن يتخذ الجزء الآخر موقعاً قوياً في مؤخرته. ثم تقدمت على رأس ثلاثمئة فارس نحو المكان المعين، بينما تقدم الأمير حسين على رأس ألف من الفرسان.

حين وصلت إلى البقعة التي كان الأمير حسين قد أخفى فيها فرقته الأولى توقفت، لكن العدو هرع إلي فوراً، وفي الوقت ذاته هاجم جنودي الذين كانوا مخفيين، ونشبت معركة حامية الوطيس. كان وضع رجالي في بادئ الأمر سيئاً، لكنني عززتهم، وسرعان ما وضعنا العدو على الطريق، وقتلنا كثيراً منهم، وأسرنا عدداً منهم.

وفي غضون ذلك بقي الأمير حسين عند أحد طرفي الممر الجبلي مترقباً أن أجلب إليه مقيداً بالأغلال، وقد فوجئ حين شاهد جيشه المهزوم يتراكض في الاتجاهات كافة، وهذا ما جعله يشعر بالخجل وبخيبة أمل كبيرة [2]، ولكن لما كان على قناعة بأن ستار الخداع الذي يمارسه قد تمزق الآن فقد ارتاب في أن مَنْ زودني بالمعلومات هو شير بهرام الذي كان قد انشق عني ووظفه سراً، وبناء عليه فقد أمر بأن ينفذ به حكم الإعدام، وذلك كان حدثاً أتى مصداقاً لتنبؤاتي حين ترك العمل لدي، على نحو ما رويته آنفاً.

نتيجة لهذا النصر قفلت عائداً إلى قارشي وقد غمرتني البهجة والسعادة، وأقمت معسكراً في المناطق المجاورة لها.

الفصل العشرون

بتّ الآن على قناعة تامة بالعداوة الشديدة التي يضمرها لي الأمير حسين، فشرعت جدياً في إعداد جيشي من جديد وتعزيز قدراته. ولكي أضع ذلك موضع التنفيذ أرسلت في طلب القادة الذين لدي، وقابلت كل واحد منهم على حدة، وجعلتهم يقطعون لي الوعد ويقسمون الأيمان على الإخلاص لي، وخاطبتهم قائلاً: «كل من يبقى معي سأعامله معاملة الأخ، وكل ما أملكه الآن سأتقاسمه معكم، وكل ما سأحصل عليه في المستقبل سيجري تقاسمه أيضاً، أما كل من هو كاره للعمل معي فليتركني في هذا اليوم بالذات، وأسأل الله العظيم رب العرش الكريم

(1) انظر الشرعة، ص 101.

(2) ثمة اختلاف بين هذه الرواية وبين ما أورده بيتي دي لا كروا في تاريخه.

أن يجازيه حسب نيته». وقد أعلن كل منهم بمفرده ارتباطه بي، ودونوا أسماءهم في السجل العسكري، وأقسموا اليمين، ومهروا الوعد الخطي التالي بتوقيعاتهم: «نشهد الله أننا إن ارتكبنا جرم نقض العهد وإخلاف الوعد الذي قطعناه، أو خرجنا على الأمير تيمور، أن ينزل الله غضبه علينا». وبما أنني أصبحت الآن مطمئناً لحال جيشي ارتأيت أنّ من المستحسن أن أسير إلى ماخان لأستميل قبيلة سنجوري إلى جانبي، وهي قبيلة تقع منازلها في الجوار، وبعد ذلك ابدأ الزحف نحو الأمير حسين، وأنتظر ما يخبئه لي المستقبل.

بلغتني معلومات في ذلك الحين تفيد بأن الأمير حسيناً كان قد حشد جيشاً ضخماً، وأنه زجّ باثني عشر ألف فارس بقيادة الأمير موسى وملك بهادر لمهاجمة قارشي ومواجهتي. وعندما وصلت هذه الأنباء بدأت عزيمة الضباط في جيشي تضعف وتتراخى، فاستدعيت القادة وطالبتهم من جديد بالوفاء بوعدهم. وبعد أن ترددوا بعض الشيء، أجابوا: «إن أعطيتنا مكاناً حصيناً نأمن فيه على عائلاتنا ومؤننا فعندها سننذر حياتنا لخدمتك». وبناء عليه أرسلت المراسيم إلى زعماء قبيلة سنجوري الذين كانوا يدينون لي بفضل عظيم، وعرضت عليهم القضية، فأثبتوا أنهم شاكرون لي أياديّ البيضاء عليهم، وأرسلوا لي ألف رجل، ووعدوا بأن يفتحوا أبواب حصونهم أمام عائلات قبيلة برلاس بأسرها، ومعهم ممتلكاتهم المنقولة.

بات قادة جنودي الآن مطمئنين لما آلت إليه حال عائلاتهم وذخائرهم، فوافقوا على الزحف معي، لكنني لم أكن أثق بهم كثيراً، وعندما علموا بذلك جاؤوا إلي وبيدهم القرآن الكريم الذي كانوا قد أقسموا عليه، وقد تدلت سيوفهم حول أعناقهم، وقالوا: «تلكم هي نسخ القرآن الكريم، وهذه هي سيوفنا، فإن حنثنا في أيماننا، فعليك أن تقتلنا». وكان أولهم الأمير جاكو، أما الآخرون فكانوا أيك تيمور، وساربُغا جلائر، والأمراء داود، ومؤاوي، وسيف الدين وسواهم. وعندما رأيتهم في هذه الحال أجهشت بالبكاء، فبكوا أيضاً، وبعد ذلك تعهدوا بأن ينذروا حياتهم لخدمتي، فأشدت بهم وأثنيت عليهم، وامتطيت صهوة جوادي بعقل هادئ، وقد عقدت العزم على قتال الأمير حسين، لكني ارتأيت من المناسب أن أقصد قبيلة سنجوري أولاً، وأودع لديهم جميع الأمتعة الثقيلة. لذلك فقد رحلت عن قارشي، وزحفت نحو ماخان[1].

غمرت السعادة والبهجة الأمير موسى والأمير هندوكه القائدان العسكريان عند الأمير حسين بعد أن بلغهما خبر رحيلي عن قارشي، فزحفا نحو ذلك الحصن، ووجدا أنه ليست فيه حامية عسكرية، فاستوليا عليه بيسر وسهولة، بعدئذ كتبا رسالة إلى سيدهما تتضمن إنزالهما الهزيمة بي، وإرغامهما إياي على الفرار إلى خراسان، وأنهما استوليا على حصن قارشي. وحينما

---

(1) تقع عند خط العرض 30 . 37 درجة وخط الطول 85 شرقاً.

بلغني تبجحهما اعتبرت ذلك مساً بشرفي، واعتزمت أن أقفل عائداً إلى قارشي وأمسك بهما. لذلك أذعت روايات عن توجهي إلى خراسان، وبعدما أرسلت عائلات رجالي كافة ليستظلوا بحماية قبيلة سنجوري انتقيت بعضاً من خيرة جنودي، ثم سرت إلى بئر إسحق في الصحراء، حيث توقفت بضعة أيام لإتاحة الوقت لجميع مشايعي للانضمام إلي، ثم يمّمت وجهي شطر الجنوب، وسلكت الطريق إلى ماخان. بعد أن وصلت إلى نهر جيحون أقمت معسكراً على ضفته، وعبرته في أثناء الليل. عندما وصلت أنباء عبوري نهر جيحون إلى الأمير موسى وسواه من القادة شعروا بالغبطة، وأخذوا ينعمون بالهدوء.

توقفت يومين عند الضفة الجنوبية للنهر، إلى أن أتم رجالي جميعاً العبور، ثم أرسلت رسالة إلى أمير هرات، وأخرى إلى محمد خان غرباني. كما أنني أوفدت إلى خراسان رجالاً من ذوي الفطنة والذكاء ليتحققوا من ميل الناس إلي وتعلقهم بي.

وبما أنني لم أكن أعول على أهل خراسان فقد رحلت عن ضفاف النهر، وتوغلت في الصحراء، وأقمت معسكراً بالقرب من بئر مياه مالحة، وبقيت مدة شهرين في تلك الصحراء، لكن لما كانت تعج بالحيوانات البرية فقد لبّت حاجتنا إلى الطعام. وفي نهاية هذه المدة كانت الجمال العربية التي أرسلتها إلى أمير هرات ومحمد خان غرباني قد عادت حاملة إليّ رسائلهما المفعمة بالمجاهرة بالمودة والصداقة، وقد أرسل لي كل منهما الهدايا وعدداً من الأسلحة كذلك، وكانت عبارة عن أقواس، وسيوف، وسهام وكنانات، فاحتفظت منها بقوس وسيف، وأعطيت البقية إلى قادة الجند والجنود.

بلغتني معلومات في ذلك الحين تفيد بأن قافلة من خراسان محملة بالبضائع إلى قارشي تقترب منّا[1]، ولذلك سرت نحوها سالكاً طريق هرات، وعندما رأى أهل القافلة جيشي داخلهم الخوف، ومع ذلك فقد تقدم بعضهم للقائي، وقدموا لي هداياهم بينما كنت أمتطي صهوة جوادي، فوجهت لهم عدة أسئلة بشأن الأنباء عن هرات، وما هي الشائعات الجاري تداولها عني في خراسان، فأجابوني: «سمعنا أن سموكم كان في طريقه إلى خراسان تلبية لدعوة من أمير هرات، وأنكم قد عبرتم نهر أمو، ولم يصدق الناس هذا النبأ، لكننا الآن على قناعة بصدقه، وقد رأينا ذلك بأم أعيننا». فأجبتهم: «لما كان الأمير حسين قد بالغ في طغيانه وأفرط في جوره وقاد جيشاً لمواجهتي فقد أصبح لزاماً علي أن أرحل عن بلادي، وأتقدم نحو خراسان».

ولقد تضرع أفراد القافلة إلى الله تعالى أن يسبغ نعمته عليّ، والتمسوا مني أن أزودهم بحارس لحمايتهم من تعرض أنصاري لهم، ومرافقتهم في أثناء اجتيازهم الأماكن الخطيرة. ثم

(1) انظر الشرعة، ص 95.

سرت مسافة مرحلتين في الطريق المؤدية إلى خراسان، وحين وصلت القافلة إلى قارشي أرسل الأمير موسى حاكم الحصن في طلب قادة تلك القافلة، وسألهم عني، فأجابوه: «لقد شاهدنا الأمير تيمور في الصحراء على رأس جيشه بأكمله، وكان متوجهاً إلى هرات بناء على دعوة من أمير تلك البلاد، وكان يقطع مسافات طويلة من أجل أن يصل إلى هناك بسرعة». لما سمع الحاكم هذا الخبر خرج من فوره من الحصن ومعه سبعة آلاف فارس ونصب خيامه في سهل بمراغ، وشرع في إقامة الولائم والاحتفالات الصاخبة التي تخللها الإسراف في شرب الخمر. وقبل أن يغادر الحصن عين الأمير موسى ولده محمد بك ليتولى إمرتها، وعزّز التحصينات، كما أرسل رسالة عاجلة إلى الأمير حسين حملها رسول خاص تضمنت هذه الأخبار الجيدة. كان الأمير قد أرسل في وقت سابق تعزيزات قوامها خمسة آلاف فارس إلى قارشي، لكن آمر تلك القوات تخلى عن حذره، وتوقف في قرية غشون.

الفصل الحادي والعشرون

ما إن حصلت على معلومات عن حالة قارشي حتى حثني شرفي أن أستل سيف الانتقام من غمده، وأمضي لأخضع ذلك الحصن. وقد أبلغني عيوني في ذلك الحين أن الحامية المرابطة فيه قوامها ألفا رجل فحسب، لكن العشرة آلاف رجل الآخرين كانوا يعسكرون في فرقتين عسكريتين في المنطقة المجاورة للحصن. وبناء عليه استدعيت القادة لدي، وطلبت منهم المشورة، وما إذا كان يتعين علينا أن نتقدم باتجاه خراسان، أو نعود ونعمل على الاستيلاء على قارشي، فأجابوني: «إن توجهنا إلى خراسان فلسوف نقع في الأسر جميعاً، وسيتشتت شمل رجالنا، فلنتضرع إلى الله تعالى أن يعيننا ويعيدنا إلى قارشي، اللهم انصرنا على من عادانا». وبما أن هذه النصيحة بدت لي جيدة فقد عقدت العزم على تحقيق هذه المحاولة.

لكن عندما بلغ جنودي خبر أن أحد عشر ألفاً من جند الأمير حسين يرابطون في الحصن أو على مقربة منه داخلهم الخوف، لذلك استقر رأيي على انتقاء ثلاثمئة وأربعين محارباً كنت قد اختبرت شجاعتهم في كثير من الأحيان[1]، وأن أقتحم الحصن على رأسهم، سواء تكلل ذلك بالنجاح أم لا. وفي هذا الصدد بحثت في القرآن الكريم عن بشير، فطالعتني الآيتان التاليتان: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:56] و﴿هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران:18]، فبعثتا في نفسي الأمل بالنجاح. لذلك نظّمت صفوف جنودي بحسب ما يتطلبه الحال، وبدأت مسيرتي ليلاً على رأس ثلاثمئة وأربعين محارباً متكلاً على العناية الإلهية.

---

(1) تأتي الشرعة على ذكر أربعين رجلاً فقط.

جاءني في ذلك الحين الأمير مؤاوي آرلات الذي كان متزوجا من إحدى شقيقاتي، وتوكل بهادر، وجاكو برلاس، وسرغتمش أغلان، ودلاور بهادر الذي كان متزوجاً من شقيقة أخرى لي، وسواهم من أمراء الجند، وقدموا لي التحية: ولما كان مؤاوي آرلات أول من جثا على ركبتيه فقد عددت اسمه الذي يعني (القوي) بمثابة يمن وخير وبركة، وبما أن توكل ويعني (الأمل) كان ثانيهم فقد اعتبرت اسمه أيضاً فألاً حسناً. ومع ذلك فقدد رجعت إلى القرآن الكريم، فطالعتني الآية التالية: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق 3]؛ وقد ملأتني هذه الآية الكريمة ثقة، وواصلت مسيرتي.

ولقد عبرت نهر جيحون في تلك الليلة وتوقفت في قرية أخشب. وقبل طلوع النهار أرسلت مجموعة أمامية لتغلق الطريق المؤدية إلى قارشي، وذلك بإيقاف جميع المسافرين والركاب واحتجازهم. وفي ذلك اليوم توقفت في بقعة نائية عن أي مكان آهل بالسكان، وحينما أرخى الليل سدوله امتطينا صهوات خيولنا من جديد، ووصلنا إلى برداليغ، فاستولينا عليها فوراً، وأسرنا رجال الأمير حسين جميعاً الذين كانوا في ذلك المكان، بعد ذلك خلدنا للراحة. وفي وقت مبكر من الصباح امتطينا خيولنا من جديد، وعندما توقفنا للراحة، أرسلت قوات خفيفة لاحتجاز جميع المسافرين. وعندما أرخى الليل سدوله، امتطينا صهوات خيولنا من جديد، وبعد أن بلغنا شيرقند تمنيت لو أنني تقدمت أبعد من ذلك، لكن الأمير جاكو جاء وثنى ركبته وبيّن لي أنه نتيجة لطول مسيرتنا وسرعتها فإن كثيراً من محاربينا تخلفوا عن الركب: «ومن الأفضل لسموكم أن تتوقفوا قليلاً لإتاحة الوقت لهم للحاق بنا، فالعمل الذي ننهض به ينطوي على قدر كبير من الأهمية، ودعونا نتجنب مخاطر أي إخفاق بسبب من نفاد الصبر[1]»، ونتيجة لهذه النصيحة كبحت جماح تقدمي. لاح لي بعدئذ أننا نستطيع أن نستغل وقت الانتظار ريثما يلحق بنا الرجال بصنع السلالم وحزم من العيدان الطويلة من الأشجار التي كانت تنمو على جانب الطريق، ولذلك ابتعنا بعض الأوتاد والحبال، وبدأنا نصنع السلالم.

خطر لي في غضون ذلك أن أذهب بنفسي وأتفحص حالة الحصن، فتقدمت على رأس أربعين رجلاً. وفي أثناء الليل وصلت قرب قارشي، واتفق أن تلك الليلة كانت حالكة السواد، لكن ما إن استطعنا أن نتبين الأسوار حتى أمرت الرجال بالتوقف، واصطحبت عبد الله وحده الذي ولد في بيتي، وبلغنا ضفة الخندق المحيط بالحصن فوجدت أن الخندق كان ممتلئاً بالمياه، وبعد أن استطلعنا عدة أماكن منه، اكتشفنا بعد حين لوحاً خشبياً ثقيلاً ملقى في الماء، لذلك ترجلت عن صهوة جوادي وعهدت به إلى عبد الله، ثم ثبّت سيفي وسرت فوق اللوح

---

(1) انظر الشرعة، ص 97.

الخشبي الثقيل حتى بلغت أسفل جدار الحصن، ثم واصلت السير حول الأسوار إلى أن وصلت إلى البوابة، فضربت مقرعة الباب لكن ما من مجيب، لذلك بتّ على قناعة بأن الحراس كانوا نائمين. واصلت سيري بعد ذلك حول السور، وتفحصته بعناية. بعد برهة من الزمن لاحظت وجود ثغرة في السور مواتية جداً لاستعمال الحبال أو السلالم، لذلك قفلت عائداً في منتهى الهدوء سالكاً الطريق التي جئت منها. وبعد أن تسلمت جوادي من عبد الله امتطيت صهوته. ما لبث رجالي الذين كانوا مسلحين على نحو جيد ويحملون السلالم أن وصلوا، فأخبرتهم بجميع الأحداث التي سبقت الإشارة إليها، وعندما سمعوا أنني قد تفحصت الحصن وحيداً تضاعفت شجاعتهم عشرة أمثال، واعترتهم الدهشة والذهول من شجاعتي وبأسي، وعضّوا أصابعهم من فرط ذهولهم، وبينما وجد بعضهم أنني ارتكبت خطأً في مجازفتي نذر بعضهم الآخر نفسه من أجل سلامتي، بعدئذ كررت دعاء النصر، وأكملت مسيرتي.

خلفت ورائي أربعين شخصاً عهدت إليهم بمهمة رعاية الخيول، بينما رحت أتقدم على رأس ثلاثمئة وثلاثة عشر راجلاً مستلين سيوفهم، في حين أنني كنت أمتطي صهوة جوادي، إلى أن بلغنا الخندق. وهنا ترجلت عن صهوة جوادي أيضاً، وعبرنا فوق لوح الخشب الثقيل واحداً بعد آخر، وبلغنا أسفل جدار الحصن سالمين. بعدئذ قدت محاربيّ إلى الجزء المنخفض من ذلك الجدار، حيث ثبّتوا السلالم بعناية. ومن ثم أمرتهم بارتقائها، ولما صعد أربعون منهم ارتقيت السلم أيضاً، واستوليت على أحد المعاقل. بعد ذلك تسلق رجالي جميعاً السور، ومن حسن طالعنا أنه لم يستيقظ أي من الحراس طوال ذلك الوقت.

بعدئذ أمرت مفرزة بالتوجه إلى المدخل والاستيلاء عليه، وحينما وصلوا إلى البوابة وجدوا أن الحراس كانوا يغطّون في نوم عميق، فقيدوا معظمهم، وقتلوا أولئك الذين حاولوا المقاومة، ثم خلعوا البوابة. وعندما بلغ الضجيج مسامع السكان أخذت فرائصهم ترتعد، وفقدوا القدرة على استخدام أيديهم وأرجلهم.

أمرت آنذاك بأن تنفخ الأبواق، وعندما سمع السكان أصوت الأبواق صعدوا إلى الأسطح المستوية لمنازلهم في بلبلة شديدة. وصعد محمد بك نجل الأمير موسى الذي كان قد تُرك حاكماً على الحصن إلى سطح بيته ومعه فريق من أتباعه. بدأ القتال، ولكن عندما طلع النهار ورأى قواتي، تقهقر إلى بيت من طبقتين، وسد الأبواب والنوافذ، فطوق جنودي المنزل، وألقوا بالنار داخل البيت، وفي إثر ذلك صرخت عائلة الأمير موسى تطلب الرحمة والرأفة، والتمسوا مني حمايتهم.

وعندما مثل محمد بك الذي كان آنذاك في مقتبل العمر بين يدي، أثنيت على شجاعته،

ودعوته ولدي. بعدئذ جاءني الجنود والمواطنون على حد سواء والتمسوا مني الرحمة والرأفة، فصفحت عنهم، وأمرتهم أن ينظموا كل شيء في الحصن، ويؤمنوا المؤن، ويجمعوا كافة الأسلحة، سواء كانت السهام، أو الأقواس، أو السيوف، أو الكنانات التي وزعتها كلها على جنودي.

واتخذت بعدئذ الترتيبات من أجل الدفاع عن الحصن، وعهدت بإمرة إحدى البوابتين إلى الأمير ساربُغا، وسيف الدين، ومؤاوي آرلات؛ وأنطت حماية البوابة الأخرى إلى سرغتمش أغلان، والأمير عباس، وحسين بهادر؛ وفوضت أمراء الجند الأخرين بمهمة الاعتناء بمختلف المعاقل؛ وبعد ذلك أمرت مؤاوي آرلات بأن يتخذ موقعه ومعه أربعون جندياً خارج الأسوار. وبعدما اتخذت تلك الترتيبات أحسنت إلى عائلة الأمير موسى، وأرسلتها إليه.

وحينما أُبلغ الأمير موسى بالمعلومات التي تفيد باستيلائي على قارشي على حين غرة امتطى جواده فوراً واشترك مع ملك بهادر ومعهما اثنا عشر ألف فارس بتطويق الحصن، وأحكما حصاره، وما إن تناهى الخبر إلى مسامع رجالي الذين كانوا مشتتين حتى تجمعوا معاً، لكنهم خافوا من الاقتراب من الحصن.

وبعدما اتخذت موقعي على رأس رجالي البالغ عددهم ثلاثمئة وثلاثين رجلاً داخل الأسوار أصدرت أوامري بأن تفتح البوابات على مصراعيها، وعلى رأس هذه القوة قليلة العدد قاتلت أعدائي البالغ عددهم اثني عشر ألفاً، لكن إبان الهزيع الأخير من الليل أرسلت مفرزتين قوام كل منهما أربعون جندياً بإمرة مؤاوي آرلات وبلخي بُغا، لضرب معسكر العدو، وبعد أن اندفع أولئك الرفاق الشجعان بلغوا خيام الأمير موسى قبيل فجر ذلك اليوم، فقتلوا عدداً من رجاله، وأخذوا الآخرين أسرى، كما قتل وجرح بعض جنودي.

كان شادروان بهادر أبرز أمراء الجند الذين أسرناهم، ولما مثل بين يدي عاملته بعطف وتبجيل شديدين، وخيّرته بين أحد أمرين إما أن يبقى معي وإمّا أن يعود أدراجه؛ وبما أنه تأثر أيّما تأثر بتلطفي به فقد وافق على الانخراط بجيشي.

بعدما استدعيت قواتي في اليوم التالي أرسلت آق بُغا وشادروان بهادر في الليلة التالية على رأس مئتي فارس، فعادوا ومعهم ستون جواداً غنموها من العدو. اقتربت في ذلك اليوم مفرزة قوامها مئتان من فرسان العدو من أسوار الحصن، وسدوا بوابتيه، فلم أتحرش بهم طوال يومين، لكنني في اليوم الثالث أمرت بإنزال الجسر المتحرك، وأرسلت بلخي بُغا وآق تيمور بهادر ومعهما ستون محارباً، وبعدما أخذ هؤلاء العدو على حين غرة مزقوا الجزء الأكبر منهم شرّ ممزق؛ لكنْ هبت لنجدتهم في ذلك الحين مفرزة ضخمة من قوات الأمير حسين، وإذ بنيران

القتل والتناحر تستعر من جديد ويتصاعد لهيبها. بعدئذ أرسلت تعزيزات مؤلفة من عشرين محارباً آخر، فنشبت معركة حامية الوطيس بين قائد جيش العدو وآق تيمور بهادر، أطيح فيها بالقائد أرضاً. وإبان هذا المشهد الذي اعترته الفوضى تقدم شاب أوزبكي يعمل تحت إمرة الأمير موسى وقد حمل بيده فأساً يُستعمل في القتال، فتصدى له أحد أشجع أمراء الجنود لدي، ويدعى غوزان بغا، وعندما رفع الأوزبكي ذراعه ليطيح بمقاتلي البطل أرضاً أمسك به الأخير بكلتا ذراعيه وجره إلى الحصن حيث لقي مصرعه. وعندما شهد جنود العدو هذه الواقعة هتفوا: «هذا تحقيق لحكايات رستم وأسفنديار[1]»، ولما استبد بهم الخوف حموا رؤوسهم بتروسهم، ثم ولّوا هاربين يجرون أذيال الخيبة، واحتموا بالخندق.

أرسلت في ذلك الحين تعزيزات أخرى إلى رجالي، الذين حملو جند العدو على الخروج من الخندق بعدما أوسعوهم ضرباً، كما أجبروهم على اللجوء إلى أزقة الضواحي طلباً للحماية.

عندما شهد الأمير موسى وحلفاؤه تلك الأحداث امتطوا صهوات جيادهم، وزحفوا نحو الحصن بعدما حشدوا قواتهم كافة، ثم أرسلوا قوات لدعم أولئك الذين كانوا يتمركزون في الضواحي. وبعد مقاومة طويلة وشاقة، أرغموا رجالي على التقهقر، فاندفعت خارج الحصن، وأمرت بأن ينفخ بالأبواق. وحين أبصر جنودي الذين تشتت جمعهم وتفرق شملهم لوائي امتلأت قلوبهم بالقوة، وجددوا هجماتهم على العدو.

استدعيت في تلك الفترة بلخي بُغا وبهرام بهادر، ودللتهما على قائد جيش العدو توكل، فتقدما نحوه فوراً، لكنه احتمى تحت السور، فما كان من بلخي إلا أن ارتقى أعلى السور الواقي، لكنه عجز عن الوصول إليه فأقحم سيفه في فتحة في السور مما اضطر توكل إلى الهرب، فتعقبه بهرام بهادر. لكن أحد قادة جنودي من خراسان حسب أن بهرام ينتمي إلى العدو، فضربه بسيفه فأرداه قتيلاً.

وعندما شاهد الأمير موسى حسن بلاء قواتي، ورآني أخرج من الحصن وبرفقتي حاشيتي، أرسل حليفه ملك بهادر في مسعى منه لاقتحام البوابة الأخرى عنوة، التي تؤدي إلى وادي خضر. ولدى إدراكي ذلك أصدرت أوامري إلى كل من ساربُغا وسيف الدين بإغلاق تلك البوابة. بعدما صان قائدا الجند الشجاعان البوابة خرجا وصدا بجرأة فرسان العدو البالغ عددهم خمسة آلاف فارس. وبالتزامن مع إرسال موسى حليفه إلى الجانب الآخر من الحصن، زحف بنفسه على رأس أربعة آلاف فارس نحوي، كما أنني أرسلت مئة محارب لمواجهته. وعندما خلص رجالي أنفسهم من أزقة الضواحي وظهروا أمام ناظري موسى نظر إليهم بازدراء يفوق الوصف،

---

(1) اثنان من أبطال الشاهنامه.

وما إن استحث جواده حتى ظن أن في استطاعته أن يجندلهم بسيفه المعقوف، بيد أنني كنت قد خرجت من المدينة أيضاً في تلك اللحظة، فحثثت جوادي، وبما أنني كنت أحظى بشرف الدعم من حارسي فقد اندلع صراع شديد في السهل. وبعد حين - بأمر من الله - أصاب سهمٌ الأميرَ موسى في جبهته، وما لبث أن ولّى هارباً إلى معسكره يجر أذيال الخزي وبرفقته سبعة آلاف فارس، فأراد قادة جنودي الخروج في إثره، لكنني لم أسمح لهم بذلك. ووصل في ذلك الحين رسول أوفده قادة جنودي المرابطون في الجانب الآخر من الحصن، وصرحوا بأنهم قد صدوا أيضاً ملك بهادر وفرسانه البالغ تعدادهم خمسة آلاف رجل، وأنني إذا ما أنجدتهم فإنهم على يقين تامّ بأن النصر المبين حليفنا.

بعد أن أنزلت هذه الهزيمة النكراء بالأمير موسى، ولما كنت راضياً تماماً عما حققته من نجاح، فقد قفلت عائداً إلى الحصن، وبعدما أقمت حراساً في مختلف أنحاء الجزء الداخلي من الحصن تقدمت نحو بوابة خضر فوجدت أن ملك بهادر كان قد دفع قواتي نحو الضاحية، وأرغمهم على الاحتماء تحت أسوار الحصن، حيث اشتبكوا معه في قتال حامي الوطيس. وما إن رأيت ذلك حتى تقدمت على رأس جميع من كان برفقتي من الفرسان والجنود الراجلين خارج الحصن، وحين دنوت من العدو ناديت بصوت عال: «إن الله معنا».. وعندما شاهد ملك بهادر حاشيتي أدرك أنني موجود هنا، ولما كان على قناعة بأنني أتيت سعياً وراء الثأر فقد تقدم لمجابهتي، مما أزكى فيّ روح الشجاعة والتنافس، فهاجمته على رأس أربعين مقاتلاً، لكنه تصدى لي على رأس ستين خيالاً، وحاول أن يفرق ميمنتي، لكنه بعدما أخفق استدار وولى الأدبار هارباً حين رأى أن لوائي يتقدم، وعزم على الالتحاق بقائده الذي يتبع إليه. لكن بعدما نمي إليه خبر تعرضه للهزيمة أيضاً واصل مسيرته نحو معسكره الذي كان مقاماً في قنبودلولي. ولقد أرسلت كلاً من الأمير جاكو وسيف الدين فوراً على رأس مفرزة للحاق به، بينما تبعتهم عن كثب. كما أنني أرسلت مفرزة أخرى لإظهار أنفسهم بجوار مخيم موسى.

عندما رأى قائد جيش العدو العجاج الذي أثارته مفرزتي انتابه الرعب، فامتطى جواده وجرى به مسرعاً، فأمرت الأمير داود بالخروج في إثره والاستيلاء على أكبر عدد ممكن من جياده، واغتنام كلّ ما تستطيع يداه أن تصل إليه. وما كاد أمير الجند الشجاع هذا يبرز أمام العدو حتى توجه الحرس الخلفي إلى الأمير داود، وشنوا هجوماً عليه، فاندلع قتال حامي الوطيس. وما إن وصلت حتى اشتبكت معهم أيضاً، لكن حين أطبقنا عليهم لم يستطيعوا قتالنا، فأدبروا هاربين. ونتيجة لذلك استولى رجالي على عدد من خيولهم التي كانت في المقدمة، وبفضل طالعي الميمون تنكست رايات العدو.

في غضون ذلك كان قادة جند العدو قد ولوا الأدبار وهم يجرون أذيال الخيبة والهزيمة عائدين إلى خضر، واتفق أن أرزو ملك آغا، كريمة الأمير جلائر، وقرينة الأمير موسى- التي خلفها العدو وراءه إثر الفوضى التي أحدثتها الهزيمة- بعدما انضمت إلى الهاربين، جرى إدراكها، وعندما رأيتها أرسلت إليها فوراً مظلتي من أجل حجبها عن الناس، وعهدت بأمرها إلى دولت شاه الذي كان خصياً، أو حاجاً، وهو المسؤول عن دفع الرواتب والأجور، وما كان أمراً استثنائياً جداً أنها كانت في أواخر حملها، فوضعت مولودة بسلام في تلك الصحراء [1]. وقد لاحقت العدو مسافة طويلة إلى أن بلغت قرية فرلتاي، فأمضيت الليلة فيها.

وما إن بزغ الفجر حتى طُرد العدو من جوار قارشي. وبعدما طارد الأميران جاكو وسيف الدين فلول الهاربين مسافة طويلة حتى بلغا قرية جوغرليك، قفلا عائدين، وهنآني على الظفر الذي حققته.

ومع اقتراب فصل الشتاء ارتأيت أنّ من المستحسن أن أتخذ قارشي مقراً لإقامتي إبان هذا الموسم العاصف. لكن بعض أمراء الجند نصحوني بأن أجعل مقر إقامتي الشتوي في بخارى، فقلت لهم: «على الرغم من أن جيش الأمير حسين مُني بالهزيمة، فلسوف تثور غيرته حينما يبلغه خبر استيلائي على بخارى بنفسي، ويسعى إلى إزعاجي. علاوة على ذلك فإن هذا المكان متهدّم، والمؤن فيه شديدة الندرة، ومن الأفضل أن نهيّئ مقر إقامتنا الشتوي في قارشي ونرتّبه، ولسوف أوفد محمود شاه إلى بخارى لعله يستطيع إصلاحها وترميمها، ويجعلها عامرة بالسكان، ويحول المبالغ التي جبيت إلى خزينتي. كما أنني سأوجه الدعوة إلى بك شاه، الذي هو مهاجر الآن في خراسان، وأعهد إليه بتولي حكم تلك البلاد، ولسوف أوجه رسالة أيضاً إلى علي بك يوسوري، الذي هو الآن هائم على وجهه بالصحراء، لينضم إلى صهره محمود شاه في بخارى. لكننا في غضون ذلك سنبقى في قارشي، ونعوض ما تحملناه من خسائر، إبان الحملة الأخيرة، وسيتولى رجالي لم شمل عائلاتهم، وإطعام حيواناتهم والعناية بها لكي تستعيد نشاطها وحيويتها». وبعد انتهاء الاجتماع قفلت عائداً إلى قارشي، وأقمت معسكراً في سهل النصر، ورفهت عن نفسي هناك.

الفصل الثاني والعشرون

لقد اتخذت الترتيب التالي لخوض غمار الحرب مع الأمير حسين من جديد:

حين مثل قادة جيش الأمير حسين المهزومون بين يديه في سالي سراي ألقوا بقلنسواتهم على الأرض، وقدموا بعض الأعذار، فقرعهم على ما بدر منهم من تقصير لسماحهم لي في

---

(1) أضحت هذه الأخيرة لاحقاً زوجته.

المقام الأول بأن أستولي على قارشي على حين غرة، وثانياً للسماح لأنفسهم ومعهم اثنا عشر ألف فارس بأن يُمنَوا بالهزيمة على يد ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً.

بعد أن صب الأمير حسين جام غضبه عزم أن يشن علي هجوماً قوياً قبل أن أستقر في مقر إقامتي، وبناء عليه رحل عن سالي سراي وأصدر أوامره إلى جميع قواته بالالتحاق به. وأقام الأمير موسى المهزوم قائداً أعلى لجيشه المؤلف من عشرة آلاف من صفوة الفرسان، وإلى جانبهم عدد من خيرة قادة الجند لديه.

بعد أن عض الأمير موسى على سيف الانتقام بنواجذه، زحف على رأس جيشه نحو قارشي. وحين بلغني خبر ما يبيّته الأمير حسين من أعمال، وأن الأمير موسى وبرفقته عشرة آلاف فارس كان قد قطع مسافة طويلة حتى بلغ حصن خولكه، وأقام معسكراً قرب جكجك، فعقدت العزم على أن أشن عليهم هجوماً ليلاً، لذلك سرت سالكاً طريق بلغون باغ التي تقع إلى الجهة اليسرى من معسكر العدو. بعد أن وصلت إلى هناك قضيت الليلة في ذلك البستان. بعدئذ أرسلت أحد كشافتي- ويدعى تينوناي- ليراقب وضع معسكرهم، ويتفحص طرق الدخول إليه والخروج منه، ويوافيني بالأخبار حالما يجتازون ممر جكجك، فتوجه إلى هناك. وبعد أن أمسك بأحد جنود العدو استجوبه، وأرسل إليّ معلومات مفادها أن الأمير موسى وبرفقته فرسانه البالغ تعدادهم عشرة آلاف رجل قد اجتاز ممر جكجك، وهو يعتزم قضاء تلك الليلة في جكدالك.

وبناء على ذلك فقد أمضيت ذلك اليوم في الصحراء، وعندما حل الليل امتطيت صهوة جوادي. إلاّ أنني لما وصلت إلى قرب معسكر العدو وجدت أن ثلاثمئة فارس يرافقونني فحسب، ومع ذلك فقد أطلقت صيحات التكبير، وبعد أن دخلت معسكرهم من الجهة اليسرى خرجت من جهته اليمنى. وقد أوقع هذا الهجوم الليلي المفاجئ البلبلة في صفوفهم، لكن بعدما تبدد خوفهم امتطوا جيادهم. بدأ فجر ذلك اليوم بالبزوغ، وبعد أن نظم الأمير موسى صفوف جيشه راح ينظر إلى مفرزتي، لكن من دون أن يتحرش بنا، لذلك ترجلت في سهل جكدالك. بعدما أديت صلاة الفجر امتطيت صهوة جوادي من جديد، وتراجعت سالكاً طريق كوردنك.

ولقد عزمت الآن على العودة إلى قارشي وتحصينها، وأن أكمل طريقي إلى بخارى. وبعد التحاق قواتي الأخرى في تلك المدينة بي أعود وأواجه جيش الأمير حسين. وحينما وصلت قارشي بعد اتخاذي جميع الترتيبات اللازمة تقدمت نحو بخارى، وعندما دنوت من المدينة خرج محمد شاه الذي كنت قد نصّبته حاكماً عليها، وقطع بعض المسافة لمقابلتي وبرفقته علي يوسوري، وكلاهما أعلنا ولاءهما لي.

ولما توقفت في بخارى فإن الأمير جاكو الذي لم يكن على علاقة ودّية بالحاكم، وليس لديه

الثقة بما يجاهر به، التمس مني على نحو سرّي منحه إذناً بالغياب ليتوجّه إلى خراسان؛ فقلت له: «سأنظر في الأمر، وأقوم بما هو مستحسن»، ومن ثم استدعيت الحاكم وكبار قادة الجنود جميعاً، وتداولت معهم الوضع القائم، فقلت لهم: «على الرغم من أننا دون جيش الأمير حسين عدداً إلى حد بعيد، وهو يقترب منا، ومع ذلك فإن رصصتم الصفوف واتّحدتم معي فلسوف نتّجه لمواجهته والتصدي له، وسنخوض الحرب معهم، ولتكن المملكة من نصيب المنتصر». وقد أقرّ قادة جنودي الشجعان رأيي هذا، لكن الحاكم وعلي يوسوري لما كانا جبانين فقد نصحا بأنه يتعين علينا أن نحصن بخارى، وأن أتحرش بالعدو على رأس قوات خفيفة جرياً على أسلوب القوزاق، وأنه لا ريب في أننا سنثبت نجاحنا.

ولما وجدت أن محمود شاه وعلي يوسوري كانا وجلين، ويساور الأمير جاكو الشك والريبة، فقد منحته إذناً بالغياب ليتوجه إلى خراسان، وأرسلت أيضاً كلاً من عباس بهادر وسيف الدين إلى ماخان لتجنيد القوات على طول ضفاف نهر أمو[1]، وعينت الأمير بير محمد لمرافقة الأمتعة والأتباع، وعهدت بالمسؤولية عن المدينة إلى محمود شاه وعلي يوسوري، ونصحتهما إن وجدا أنّه لا قِبلَ لهما بمقاومة الحصار أن يتخليا عن المكان.

وبعد أن اتخذت هذا الترتيب رحلت عن بخارى على رأس ثلاثمئة من الفرسان القوزاق لدي، وتقدمت باتجاه العدو. عندما اقتربنا من معسكرهم استولينا على عدد من خيولهم وإبلهم التي كانت ترعى، وأعطيتها لرجالي، وأكملت بعدئذ مسيرتي نحو خراسان. وفي أثناء الليل عبرت نهر آمو، ومن ثم اجتزت الصحراء. وبعدما بلغت ماخان التحقت بي بقية قواتي المظفرة فضلاً عن الأمتعة الثقيلة.

ولقد رفهت عن نفسي بعض الوقت بممارسة الصيد في سهول ماخان في انتظار التزود بالمعلومات من محمود شاه، وبالأخبار من بخارى. وبعد حين تلقيت رسالة منه تتضمن تحصينه تلك المدينة، وأن الأمير حسيناً كان قد وصل على رأس جيش جرار، وفرض حصاراً عليها، فقاومه محمود شاه لعدة أيام، لكن السكان أثبتوا غدرهم وخيانتهم وشاركوا عدوي، وأن الأمير حسيناً توجّه إلى ضريح الشيخ سيف الدين، وهناك أقسم اليمين بأنه ليس ثمة ما يدعو سكان بخارى إلى الخوف منه، ونتيجة لذلك تمرّد المواطنون على الحاكم الذي ولّيته، واستولوا على عدد من المعاقل وحصّنوها، وأنه على الرغم من تجشم محمود شاه العناء لتسوية خلافه معهم إلاّ أنّهم قلبوا له ظهر المجن. وحين أعيته الوسيلة للخروج من هذا المأزق سلّح فرسانه، ونزل ميدان المعركة على غرار القوزاق.

---

(1) يقع بجوار مدينة آمو، ويطلق على نهر سيحون اسم أمو [كذا في الأصل والصواب جيحون، لأن نهر سيحون يطلق عليه سيرداريا].

بعثت هذه الأنباء في نفسي الحزن والأسى، فأرسلت العيون والأرصاد ليعلموا ما إذا كان الأمير حسين ما يزال في بخارى، أم أنه قفل راجعاً إلى سالي سراي. وفي ذلك الوقت تقريباً، وقد وصل محمود شاه وعلي يوسوري بعد رحلة طويلة عبرا فيها الصحراء، ونالا شرف تقبيل سجادتي، وبما أنهما فقدا العديد من خيولهم، ومعظم ممتلكاتهم، فإنني عوضتهما على ذلك، وانتظرت عودة العيون الذين أرسلتهم.

بعد حين عاد هؤلاء وأبلغوني أن الأمير حسيناً كان قد غادر مخلّفاً وراءه جيشاً ضخماً، عهد بقيادته إلى الأمير خليل في بخارى، وقفل عائداً إلى سالي سراي.

وما إن تلقيت هذه المعلومات، حتى عقدت المشاورات بشأن ما إذا كان يتعين علي أن أقصد الملك حسيناً أمير هرات، والدخول معه في حلف لمناهضة أعدائي. وسبق لي إنقاذ هذا الأمير من أيدي قادة جنود الأمير كوركين، وحملته إلى هرات، ونصّبته ملكاً عليها، وبسبب ذلك كان يدين لي بالفضل العميم. لكن بما أنني لم أكن أعول كثيراً على عرفانه بالجميل خشية أن يكون الأمير حسين قد استماله إلى جانبه، ولربما يثبت عداءه فقد تردّدت في رأيي هذا.

وما لبثت أن تلقيت معلومات مفادها أن الملك حسيناً كان قد بلغ سرخوش، بقصد زيارتي؛ ولذلك أوفدت الأمير جاكو بوصفه رسولاً لي، للقائه، ووجّهته بأنه يتحتم عليه أن يسبر غور الملك حسين، ويتبين ما إذا كان مخلصاً، أم يضمر العداوة، فإن كان مخلصاً فعليه أن يوطد معه أواصر الصداقة ويعود من فوره.

عاد الأمير جاكو في غضون وقت قصير وقد جلب لي من ملك حسين رسالةً مفعمة بالمودّة والصداقة. ولما ترك عطفه وإخلاصه انطباعاً قوياً لدي فقد صارحته وكتبت له قائلاً: «لما كان زعماء بخارى وبلاد ما وراء النهر قاطبة قد التمسوا مني العودة إليهم، وتلبية لطلبهم هذا، فإنني أعتزم القيام بذلك، لكنّني بموافقتكم سأخلف ورائي ولدي محمد جهانكير، وأفراد عائلتي كافة بجوار ماخان، بحماية عطفكم ومودتكم».

الفصل الثالث والعشرون

كانت الخطة التي أعددتها للانطلاق من معسكري في ماخان نحو بلاد ما وراء النهر وخراسان هي التالية:

بعدما أتاني العيون مرة ثانية بمعلومات مفادها أن جميع زعماء بلاد ما وراء النهر غير متنبهين وغافلون عما كنت قد شرعت فيه من أعمال، لكنهم ما زالوا يحتفظون بالعديد من الأتباع،

لذلك استعرضت قواتي، ووجدت أن تعدادها لا يتجاوز ألف فارس. في غضون ساعة مباركة استخرت القرآن الكريم، فطالعتني الآية الكريمة التالية: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ ﴾ (الطلاق:4) ولما كنت على الدوام أتكل على المولى عزّ وجل فقد استودعت ولدي جهانكير في رعاية الله وحفظه، وبعد أن عينت مبارك سنجوري مؤدّباً له، خلفتهم ورائي في ماخان، وسرت باتجاه ضفاف نهر جيحون، وما إن انضم إلي جميع أتباعي وأشياعي حتى عبرت النهر ليلاً. بعد أن تركت الطريق العام الواقع إلى اليسار توقفت في حقول القصب الواقعة بجوار النهر، حيث بقيت مختبئاً طوال ذلك اليوم، وتداولت في ما إذا كان ينبغي لي شن هجوم مباغت على مدينة بخارى ومواصلة تقدمي نحو سمرقند، أو أن أهاجم أولاً مختلف زعماء بلاد ما وراء النهر وأخضعهم، قبل أن تأتلف قلوبهم وتتوثق روابطهم، وبعد أن أخلص البلاد منهم أتخذ إحدى تلك المدن مقراً لحكمي.

في ذلك الحين، نمي إلي أن الأمير موسى كان يعسكر بجوار قارشي، وبناء على ذلك رجعت إلى القرآن الكريم لأتبين ما إذا كان ينبغي لي شنّ هجوم عليه، أم على هندو شاه أولاً، فطالعتني هذه الآية الكريمة: ﴿ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴾ (النمل:7)، فعددت ذلك بمثابة فأل حسن، فنصبت كميناً في الممرات الكائنة بجانب النهر ومكثت فيه طوال اليوم.. وعندما أرخى الليل سدوله شنيت هجوماً مباغتاً على جيش الأمير موسى، وأسرت اثنين من كبار قادته، وشتت جمع جنوده وبددت شملهم.

واتفق أن ألقى رجالي في مدينة قارشي القبض على بضعة تجار من بخارى، فجلبوهم لي ومعهم جمالهم وبضائعهم كافة، لكنني أمرت الشيخ علي بهادر بمرافقتهم إلى مكان آمن ومعهم سلعهم جميعها، وهذا ما أذاع صيتي في كافة أرجاء البلاد.

وعندما بلغ خبر إنزالي الهزيمة بجيش الأمير موسى الزعماء الآخرين تجمعوا فوراً. وإلى جانب القوات التي كنت قد شتت جمعها وبددت شملها بلغ مجموعهم خمسة آلاف فارس، واستولوا على موقع قوي يدعى كوزي. لذلك ارتأيت أنّ من المستحسن لي أن أشن هجوماً مباغتاً عليهم قبل أن يتبين لهم أن عدد قواتي محدود، أو يدركوا ما أبيته من نوايا. ونتيجة لهذا القرار وزّعت جيشي الصغير إلى سبعة فرق، وعهدت بإمرة ستة منها إلى بضعة قادة، بينما توليت قيادة الفرقة السابعة بنفسي. وصلت في ذلك الحين أنباء بأن العدو يزحف نحونا بعدما نظم صفوف قواته ورتبها. فامتطيت صهوة جوادي فوراً، وحركت جيشي، ودعوت الزعماء وصحت بهم قائلاً: «سنسحق خصومنا قبل أن نشنّ هجماتنا السبع».. واتضح أن ما ذهبت إليه كان صحيحاً تماماً.

تراءى لنا جيش العدو في غضون فترة وجيزة في سهل كوزي، وسرعان ما علمت أن هندو شاه كان يقود الخط الأمامي، فتقدمت فوراً وبرفقتي أركان الحرب لدي كافة، وتوليت قيادة الفرقة الأمامية. بعدئذ تفحّصت بعين الخبير العارف أسلوب الكرّ والفرّ، ولاحظت أن المسافات بين فرق العدو متباعدة، لكن في هذه اللحظة بعث ظهور العدو الرهبة في قلب علي خان بهادر الذي كان يتولى قيادة ميمنة خطي الأول، فولى الأدبار هارباً، فأمرت فوراً أمير جاكو الذي كان يتولى قيادة ميسرة الخط الأول أن يهاجم، وأن تتقدم ميمنة الخط الثاني لتستحوذ على الأرض في الخط الأمامي.. إبان هذه المناورة، وبعدما أنزل أمير جاكو الهزيمة بخصومه سقط عن فرسه، فأصابه الذهول برهة من الزمان، لكنه امتطى جواده من جديد وتوقف، وما إن بلغني خبر وقوع هذا الحادث حتى أرسلت له بعض الدواء المتوافر لدي، فتماثل للشفاء.

في ذلك الحين شنت ميمنة العدو هجوماً عنيفاً، فما كان مني إلاّ أن صحت بميسرتي ليحذوا حذوهم، وحثثت جوادي، وقدت الهجوم بنفسي، واشتبكنا معاً في قتال حامي الوطيس من الصباح حتى موعد صلاة الظهر. لكن عندما أصبحت الشمس عمودية انهار العدو، وتشتت شمله وتفرق جمعه.. في تلك اللحظة ترجلت في ميدان المعركة ورحت أؤدّي صلواتي وأحمد ربي وأشكره على هذا النصر.

خرج مقاتليّ في إثر العدو قاطعين بذلك مسافة طويلة إلى أن بلغوا جكدالك، وبعد أن أمسكوا بعدد من قادتهم وأمراء جنودهم جلبوهم إليّ بوصفهم أسرى، وكان من بين الأسرى الجايتو سلطان حاكم طلخان، ولما مثل بين يدي لم أتيقن مما إذا كان يتعين علي إصدار أمر بقتله أم لا، ولكن ما إن وقع نظره علي حتى خاطبني قائلاً: «أيها القائد! إنني مقرّ بالجميل والكرم الذي طالما طوّقني به سيدي، ولقد حاربت بشجاعة أعداءه، وباستطاعتك إما أن تذبحني أو تحررني».

[فيما يلي قصيدة بالتركية]

ولقد خاطبت الأعيان قائلاً: «إنه يقول الحقيقة، لقد كان أحد الرعايا الملكيين الذين يدينون بالولاء لدولته، ذلك أنني كثيراً ما سعيت لإغرائه بالانضمام إلي، وكان رده المتواصل: «طالما كان الأمير حسين يغدق عليّ من فضله وكرمه فلن أميل إلى أي رجل سواه»، بعدئذ قال لي هذا الأسير: «إن أغدقت علي من فضلك وكرمك في أي وقت من الأوقات فلسوف أنذر حياتي مقابل ذلك». ولما شعرت بميل إلى أن أحسن إليه قال لي بعض الحاضرين: «لا يمكنك أن تمحض هذا الرجل ثقتك»، فأجبتهم قائلاً: «رجولته لا يرقى إليها الشك، وإنه قد يفقد رأسه، ولكن الوعد الذي قطعه سيدوم، وإذا ما أغدقت عليه من فضلي وكرمي ذات مرة فإنني على ثقة

بأنه سيثبت إخلاصه لي، كما أظهر وفاءه للأمير حسين؛ إذ إن الاحتفاظ به في جيشي ينطوي على العديد من المزايا، أما قتله فسيؤدي إلى أضرار جمة، ولستم من يحكم على قيمته في الوقت الحاضر أو المستقبل، وإنني - في جميع الأحوال- سأستميل إلى جانبي والده الذي أكنّ له الاحترام طوال ثلاثين عاماً، ولسوف أحصل على الخدمات الحالية لهذ الشاب».. وبناء عليه فقد شجعته وأطلقت سراحه. وبعد ذلك الوقت أصبح يسير على الدوام في ركابي، وخاض غمار العديد من المعارك إلى جانبي، وحينما هاجمني شاه منصور دافع عني وأنقذني. عقب ذلك الحدث قلت للأعيان: «يتعين على المرء أن يسعى لمعرفة قيمة الإنسان وأهميته، سواء أكان صديقاً أم عدواً»، فوافقوني القول، وجثوا على ركبهم، وابتهلوا إلى الله العلي القدير أن يكتب لي الفلاح.

وما إن ولى جيش الأمير حسين الأدبار هارباً وتجاوزوا ممر جكجك من جديد حتى دعوت مجلس قادة جنودي كافة إلى الانعقاد، واقترحت عليهم أنه ينبغي علينا أن نطارد فلول العدو الذين كانوا بإمرة خضر بهادر ونسحقهم، لكنه كان يقيم في مدينة سمرقند التي أغلق جميع أبوابها. ونتيجة لهذا القرار سرنا باتجاه كش التي نصبت طوغي شاه حاكماً عليها، وعينت ترماجوك جابياً لذلك الإقليم، وذلك لضبط الإيرادات الحكومية. وبعد ذلك واصلت الزحف على رأس جيشي المظفر نحو سمرقند.

عندما وصلنا بالقرب من سمرقند عسكرت على مقربة من المدينة، وأرسلت في طلب الحاكم خضر بهادر، وخيّرته بين أمرين؛ إما أن ينال الحظوة عندي أو أنتقم منه، فكتب لي رسالة تضمنت هذا الجواب: «إن ناصرت سموكم فلسوف يكبلني ما اختصني به الأمير حسين من فضل وكرم، ويدعوني العالم بائساً ناكراً للجميل ووغداً؛ نظراً لارتكابي جرم الغدر والخيانة بالتخلي عن مكانٍ فوضني أمره أحد المسلمين وجعله قصراً علي [1]. إن مثل هذا السلوك لا يتفق مع واجبات رجل يعتنق دين محمد الحنيف، وإن كنت منحطّاً إلى حد يجعلني أرتكب هذا الفعل الذي ينطوي على الخسة فلن يمحضني سموكم أو أي من قادة جنودكم ثقته أو يعول علي، فإن قتلت بشجاعة أثناء تأدية واجب فلسوف يكون ذلك أفضل من كل النواحي من أن أكون مذنباً بارتكاب جرم الخداع والتضليل». ولقد أثنيت على إخلاصه، لكنني حركت جيشي وتقدمت إلى أن أصبحت على مشارف المدينة. كان محاربيّ على وشك الهجوم عليها، عندما حاول الحاكم أن يلوذ بالفرار، فواجهه آق تيمور بهادر بالقرب من البوابة، وأمسك به من

(1) لا يطلق أتباع النبي العربي محمد على أنفسهم تسمية «المحمديين»، وإنما «المسلمين» أو «المؤمنين»، ويعدون ذلك استخفافاً بدينهم الحنيف ونبيهم الكريم، ولسبب مماثل فإنهم لا يطلقون علينا تسمية «المسيحيين»، بل «النصارى».

حمالات جعبة سهامه، لكنها تمزقت، وعاد الحاكم ليدخل البوابة بصعوبة، وبذلك أنقذ نفسه. وقد جلب آق بهادر الجعبة إلي بوصفها برهاناً على حماسته، ومكافأة له على ذلك رقيته. وبعد ذلك خرجت من المدينة وعسكرت في قرية ريتين، ومن هناك سرت باتجاه قرية شاه روخ، حيث كان الماء عذباً والهواء عليلاً، وأخذت قسطاً من الراحة هناك لبعض الوقت.

وفي هذا المكان حصلت على معلومات تفيد بإرسال الأمير حسين ألجايتو بغا على رأس جيش لتحرير سمرقند، وأنهم كانوا يقتربون منها. وتلقيت أيضاً رسالة من طوغي شاه الحاكم الذي نصبته على كش، يقول فيها إن مفرزة للعدو كانت قد دخلت الإقليم على حين غرة، وألقت القبض على الجابي ترماجوك الذي كنت قد عينته.

وما إن تلقيت هذه الأخبار السيئة، حتى داخلني تشاؤم شديد، ورسمت لنفسي ثلاث خطط:

أولها- ينبغي لي أن أنتهج أسلوب القوزاق؛ وألا أقضي أربعاً وعشرين ساعة متواصلة في مكان واحد؛ وأن أنهب كل ما تصل إليه يدي.

ثانياً- أن أحث الخطى لمواجهة الأمير حسين؛ وأباغت معسكره، وأسحق جيشه.

ثالثاً- أن أغادر البلاد وأتقدم باتجاه نهر سيحون.. وبما أنني لم أكن قد حسمت أمري بعد فقد حثيت جوادي، وبعد أن عبرت نهر يام عسكرت على ضفته.

كان قوام قوتي برمتها في ذلك الحين ألف فارس، وعندما ذكرت خططي الثلاث لقادتي العسكريين أجمعوا على أن تلك التي تتضمن التراجع إلى نهر سيحون هي الأفضل. بعد ذلك رحلنا عن نهر يام، وبعد مسيرة استغرقت ثلاث مراحل أو أربعاً بلغنا ضفة نهر سيحون، حيث أقمنا معسكرنا.

وصلت إليّ في ذلك المكان رسائل من كي خسرو وبهرام جلائر اللذين كانا في ما مضى في خدمتي، لكنهما خرجا علي والتحقا بالأمير حسين، يقولان فيها إنهما لا يأمنان على حياتهما المهددة بالموت على يد الأمير حسين، لذلك خرجا عليه ليلاً، ولجآ إلى خانجين، وأردفا أن الأمير كان قد قتل أخوتهما، ونهب قبيلتيهما، وانتقاماً لذلك حشدا سبعة آلاف فارس، وهما ينتظراني في طشقند، وعلى أهبة الاستعداد للانضمام إلي حالما آمر بذلك [1].

نتيجة لهذه الأنباء عقدت العزم على الزحف نحو طشقند، وحينما وصلت إلى تلك البلاد تقدم للقائي خسرو الذي كان يشعر بسعادة غامرة، واصطحبني إلى مقر إقامته، وأقام وليمة كبيرة بهذه المناسبة. ولما كان السلطان تغلق تيمور خان قد زف كريمته إلى كي خسرو الذي رزق منها بابنة بلغت الآن سن البلوغ فقد اتفقنا على أن نخطب هذه الفتاة لولدي البكر جهانكير،

---

(1) سيحون وطشقند كلتاهما مدينتان تقعان على ضفاف نهر سيحون.

وهو إجراء وافق عليه بهرام جلائر أيضاً الذي كان أحد ذوي قرباها. أمضيت عقب هذا الحفل شهراً كاملاً في طشقند أرفل في ثوب قشيب من السعادة والرفاهية، ومما هو جدير بالذكر أن بهرام جلائر هذا كان قد تربى على يدي، ورقّيته إلى أن أصبح من أهل التيه والخيلاء. لكن بما أنه أخنى عليه الدهر فقد التمس مني الصفح والمغفرة، ونتيجة لذلك صفحت عنه وأعدت له رتبته السابقة، ثم رقّيته إلى رتبة أعلى.

الفصل الرابع والعشرون

تلقيت في ذلك الوقت معلومات تفيد بأن الأمير حسيناً قد مرّ بكش ومعه جيش عرمرم، ويعسكر الآن في ساريلاك. فعزمت عندئذ على المسير مع كيخسرو باتجاهه ومباغتة جيشه بالهجوم. أخذنا بالصلاة سائلين الله تعالى النصر، ثم انطلقنا وتركنا بهرام جلائر في المؤخرة للدعم.

بلغتنا في غضون ذلك مزيد من المعلومات تفيد بأن الأمير حسيناً وجه الأمير موسى وقادة آخرين ومعهم اثنا عشر ألف فارس من ساريلاك، وقد مرّ هؤلاء بسمرقند وهم يريدون قتالي، وأن الكتلة الرئيسة من الجيش تقيم معسكراتها على ضفاف نهر البلنغور، حتى إن الفرقة المتقدمة منها التي تتألف من ثلاثة آلاف رجل تعسكر في سرينغران بقيادة ملك بهادر، وفرقة أخرى قوامها أربعة آلاف وجهت إلى رباط ملك بقيادة جهان شاه.

كنت في ذلك الحين أنظر في خطتين؛ تعتمد الأولى على ترك الطريق الأيسر والمضي إلى الهجوم على الأمير حسين عندما يكون منفصلاً عن القادة الأساسيين في جيشه؛ بينما تعتمد الخطة الثانية على المسير والاشتباك مع عدة فرق وفصل بعضها عن بعض.

وحين استعرضت أنا وكيخسرو قواتنا وجدنا أنه ليس لدينا سوى ثلاثة آلاف فارس، لذلك قررنا الهجوم على كل فرقة بمفردها، ولما كنت قد تقدمت مع قواتي ولدي عدد من الفرسان لا يزيد على الألف، فقد عمدت إلى الهجوم على جهان شاه، وشتت جيشه، واستوليت على قدر عظيم من الأسلاب قبل أن يلحق بي حليفي، فلما وصل مع فرقته توقفنا عند قرية آزوك ليتمكن رجالنا وخيولنا من نيل قسط من الراحة. ولما حل الليل اتفقنا على المضي والهجوم على الفرقة الأخرى من قوات العدو التي كانت بقيادة ملك بهادر في سرينغران. وبناء على ذلك شكلت الجيش في ثلاث فرق، توليت قيادة الفرقة الأمامية، وتركت كيخسرو يتولى قيادة الفرقة التي في المؤخرة، لتتولى الدعم والمؤازرة. عندئذ امتطيت صهوة جوادي ومضيت متكلاً على الله نحو العدو، وأمرت برفع علم المغول معلناً وصول جيش المغول.

ولما لاحت طلائع الفرق الثلاث بإمرتي من ضواحي سرينغران قال الفلاحون لملك بهادر إن

جيش المغول كله يتقدم، والأمير تيمور على رأس طلائع القوات. ولما رأى بيارق المغول الخفاقة لم يعد لديه أي شك بالأنباء التي بلغته، وحين وجد نفسه قاصراً عن أن يكون نداً لنا أعطى أوامره بالتراجع، فهرب جيشه ووصلوا معسكر الأمير حسين في الليل. ولقد أخذت في مطاردتهم مسافة لا بأس بها من الطريق، ثم عدت مظفراً إلى معسكرنا. أرسلت من جهتي أزف إلى كيخسرو خبر أني تمكنت من إنزال الهزيمة بوحدات الأمير حسين، فإذا تقدم الآن مع قواته من المغول فإننا قد نأخذ حسيناً أسيراً. ولقد حمل الموفد رده: «إن المغول لا يحبون القتال، ولا يستهويهم سوى السلب والنهب، ولا يليق بنا ونحن أتباع محمد أن نسمح لهؤلاء الكفرة بقتل المسلمين الذين في معسكر حسين، وذلك لأن ذلك كفر في المقام الأول، وسيحملهم ذلك على الهرب بالمغانم إلى بلدهم ثانياً».

وقد كفاني منه هذه الإشارة، فاتجهت نحو رباط ملك، فخرج كيخسرو لاستقبالي، وقد أمضينا يومها في الولائم.

حين علمت أن بعض المغول قد جمعوا مقادير كبيرة من الأسلاب واتجهوا نحو موطنهم أرسلت جماعة لردهم على أعقابهم وإجبارهم على العودة، وقد توقفت عندئذ بانتظار ورود معلومات تتصل بالأمير حسين بعدما بلغه خبر هزيمة وحداته. وما هو إلا وقت قصير حتى عاد بعض الأرصاد والعيون الذين أرسلتهم ليخبروني أن الأمير حسيناً قد أساء معاملة قادته بعدما بلغه خبر هزيمة مقاتليه. فاشتعلت نار غضبه، واشتد تعنيفه لهم، وأقسم على الانتقام مني، وهو الآن يتقدم باتجاهي بعدما جمع محاربيه.

ولما بلغتنا هذه الأخبار جمعت مع كيخسرو قواتنا، وتقدمنا نحو العدو. لما بلغنا قرية بارسين وصلت إلينا معلومات تفيد بأن الأمير حسيناً قد وصل على رأس فرقة منتخبة من جيشه إلى آق كوتل، ومازال يتقدم. فأمرت فوراً بإطلاق النفير وبأن تتأهّب قواتي. وبينما كانت الأمور تجري على هذا النحو أخذت الثلوج تتساقط، ولما كان جيش الأمير حسين لا يملك ما يأكله أو يغطيه سوى الثلج، فقد كان جنوده في حرج شديد، فوقعوا بين جيشٍ متأهّب لقتالهم وثلوجٍ لا يمكنهم الاستراحة معها، فازداد ضيقهم، فلا هم يستطيعون أن يتقدموا ولا أن يتراجعوا.. وبعد بعض الوقت على هذا النحو، وهم لا يجدون مأوى يلجؤون إليه، ويخشون أن يُدفَنوا تحت الثلوج المتساقطة، أخذوا يتشتّتون، ومضوا مولّين الأدبار باتجاه بلدهم.

ولقد أمضيت مع كيخسرو وقواتنا ذلك اليوم في منازل بارسين، وفي صباح اليوم التالي امتطينا خيولنا وتابعنا الزحف نحو طشقند [1]. وفي هذا الوقت بلغني أن بهرام جلائر الذي كنت قد كلفته بتغطية تراجعنا -عند الضرورة- قد تراجع إلى طشقند مع أتباعه المغول.

---

(1) طشقند: تقع شمال شرق نهر جيحون.

وما هو إلا وقت قصير حتى وجدنا في استقبالنا أسرتي والأهل والأتباع الذين كنت قد خلفتهم ورائي، فلما دخلت المدينة جعلتها مقرّي في الشتاء. وقد حل الشتاء شديداً قاسياً جعل حتى طيور الغابة تلجأ إلى المدينة وتدخل البيوت. بيد أني وجدت في الأمر متعة بالغة، إذ دأب تيمور بك (كتخدا) القائم على أحد أقسام المدينة على أن يأتيني يومياً بأربعين بيضة وسلطانية حساء كبيرة، وما زلت أذكر هذا منذ ذلك الحين، كما يذكر المرء دَيناً يُوجب الامتنان.

بعد أن اتخذت طشقند عاصمة شتوية مضيت أبعث برسائل التهنئة إلى ولدي جهانكير الذي تركته في ماخان، ولأهلي الآخرين الذين خلفتهم في مرو بخراسان، وقدمت لهم كل ما يرضيهم.

كان عداء الأمير حسين لي شديداً جداً، وبغية تفادي آثاره السيئة عزمت على إيفاد سفارة إلى خان المغول لطلب المساعدة، ولما عرضت الأمر على أعواني قابلوا اقتراحي بالترحيب. وعلى ذلك أوفدت شمس الدين مع ثلاثة من القادة الآخرين ليحملوا إلى الخان عدداً من الهدايا ويطلبوا منه العون.

وردت في هذه الفترة تقريباً أخبار تفيد بأن الأمير حسيناً قد حصن مدينة سمرقند، وعين بولاد بغا حاكماً، ثم مضى إلى أرهنغ سراي. فخلدت عندئذ إلى الهدوء في طشقند بانتظار ورود معلومات من سفرائي. وبعد طول انتظار ورد آق بغا ومعه معلومات تفيد بأن خان المغول قد أرسل عشرة آلاف فارس مع السفراء وسيصلون قريباً.

لما بلغت هذه المعلومات الأمير حسيناً أثارت في نفسه ضيقاً شديداً، فأرسل مع قائد قواته الأمير موسى نسخة من القرآن الكريم بخط يده إلى كبار رجال الدين والعلماء في طشقند وسيحون واندجان، راجياً منهم زيارتي وبذل كل ما في طاقتهم لتهدئة مشاعري، قائلاً إن الأمير موسى ومولانا علوان شاهدان على قسمه بالقرآن الكريم بأنه سيكون من الآن فصاعداً صديقاً لي. وعلى هذا الأساس جاءني كبار الشيوخ وعلماء الدين في المدن الثلاث، وبناء على اجتماع مجلسهم لتدارس هذا الأمر العظيم زاروني، ووضعوا أمامي كتاب الله تعالى الذي أقسم عليه الأمير حسين بأنه يطلب المصالحة ويرجو العفو، فأجبت بأن الأمير لطالما أرسل إليّ القرآن الكريم وأقسم أغلظ الأيمان على أن يلتزم معي بحدود الصداقة والوئام، ثم نراه ينقض عهود الله تعالى ووعوده، ولذلك فقدت كل ثقة بأيماناته وعهوده. وبعد رجاء وفد العلماء اقترح مولانا علوان أن نستخير القرآن الكريم، فظهرت له الآية: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات: 9] وقال العلماء «عليكم بالسلم بأمر الله»[1]. وبناء على هذا

---

(1) كان المغول العشرة آلاف الذين هرعوا لمساعدته من الوثنيين، والضرر الذي سيحدثونه بالمسلمين كبيراً.

المطلب وافقت على الصلح، لكن قلت لهم إني «سأبعث أولاً إلى الأمير حسين بعض من أأتمنهم، لأنال منه تأكيداً على التزامه بعهوده، ثم ألتقي به بعدئذ في أي مكان نتفق عليه». وقد أجاب الأمير موسى وكبار رجال الدين بأنهم «سيصطحبونني إلى سمرقند ليتأكدوا من تنفيذ المعاهدة». فاعتليت عندئذ صهوة حصاني وفي صحبتي كافة رجال الدين والعلم، وقطعت نهر سيحون وبلغت مشارف سمرقند.

عمد الأمير حسين في ذلك الوقت إلى اختبار حقيقة نواياي بأن أشاع بأنه لقي حتفه، إلاّ أن هذه لم تكن سوى إحدى خدعه التي نصبها لي، فلو أني بت متلهفاً لدخول سمرقند لوضعت نفسي عندئذ في مواضع الشك، ولألحقت بذاتي ثلماً. لذلك لم أعر الرواية عن موته أي اهتمام، بل عزمت وأنا على صهوة الحصان على المضي إلى قلعة شدمان؛ وبناء على هذا القرار اتجهت نحو سهل شدمان من دون أن أترجل عن ظهر جوادي، ورافقني في مسيرتي كبار رجال الدين. ثم أرسلت كتاباً حمله بخته بهادر، وتوجهت به إلى الأمير حسين في سالي سراي لأتأكد إن كان حياً أم ميتاً، ثم تابعت طريقي حينذاك، ولم أنزل عن صهوة جوادي حتى دخلت شدمان، ومكثت هناك أنتظر عودة موفدي، لكن الأمير موسى لم يرافقنا بل توقف في سمرقند.

تقدمت في هذه الفترة فرقة من جيش الأمير حسين، وأخذ جنودها بكل جرأة يعملون قتلاً في قومنا. عندئذ اعتليت بقعة مرتفعة في السهل الأوسط ومعي جمع من قواتي لمواجهة تلك الفرقة، وأرسلت فرقتين أخريين لاعتراضها، حيث تصدتا لجناحي هذه القوات، أمّا أنا فتقدمت إلى الأمام، وهذا ما أجبر تلك القوات على التراجع سريعاً، إلاّ أننا أسرنا قسماً منهم، فاشتديت في توبيخهم وتعنيفهم، ثم أطلقت سراحهم، وعزمت عندئذ على عبور نهر كومك ومعي رجال الدين، وتوقفت عند حصن في تلك المنطقة لأتمكن من الحصول على مزيد من المعلومات الميدانية.

وبعد ذلك بقليل عاد بخته بهادر من سالي سراي، وأعلمني بأن الأمير حسيناً ما زال حياً وفي صحة جيدة، وقد سُرَّ سروراً عظيماً حين علم باقترابي من مكانه، وهو يتطلع متلهفاً إلى وصولي لكي ينهي كل أشكال العداء، ويكرر عهود الصداقة، وأضاف موفدي: «حين كان عند الأمير حسين جاء قائد قواته الأمير موسى ليخبر مولاه بأنه قد رافقني حتى سمرقند، وهناك بلغني الخبر المروّع بوفاته، وعندئذ مضيت إلى قلعة شدمان، بينما دخل هو سمرقند ليستقصي أساس الخبر». أما الأمير حسين فقد ذعر عند تلقيه من موسى نبأ تقدّمي نحو قلعة شدمان، وأرسل إليّ أحد المؤتمنين، واسمه طوران شاه، الذي تمكن من الوصول إليّ في وقت قصير ليؤكّد لي التزامه بالعهود والمواثيق التي قطعها لي.

وحين مثل طوران شاه أمامي وكرر على مسامعي ما سبق أن سمعته، وطمأنني إلى ثبات تلك العهود، خلعت عليه ثوب تشريفات، إلا أنه رغب إلي أن أوجه أحد المؤتمنين من طرفي بصحبته ليكرر الأمير حسين أمامه العهود والمواثيق، فأرسلت معه عباس بهادر ومعه تعليمات بأن نلتقي عند ضريح عطا علي «قدس الله ثراه» إن وجد الأمير حسيناً صادقاً في مخاوفه، وهناك نكرر عهود الصداقة التي قطعناها فيما بيننا.

ولما أبلغ عباس بهادر الأمير حسيناً هذه الرسالة أرسل لمقابلتي اثنين من أقرب القادة المؤتمنين، هما الأمير موسى وألجايتو، وبينما كان هذان القائدان على وشك الدخول إلى حضرتي أخبرني بعض كبار القادة أن هذين الشخصين هما عماد سلطة حسين، فيجدر بنا أن نكبلهما بالقيود ونباغت ذلك الأمير بالهجوم. فأجبتهم: «لا يليق بكرامتي أن أنكث عهداً أو أكفر بالله أو أنكر كتابه الكريم»، ممّا جعلهم يلزمون الصمت.

وبعدما قدّم موسى وألجايتو عرضاً لموقف سيدهما قفلا عائدين، وأقنعا الأمير حسيناً بالمسير مع ألف فارس إلى ضريح عطا علي، فلما التقيته جلسنا للتباحث، فقال: «إننا لن نخوض في ما كان»، وأجبت بأن «تكرار أحزان الماضي لن يؤدي إلا إلى ضيقنا»، فقال عندئذ إن «اتحدنا معاً فلن نخشى قوة أي غريب»، وكان يقصد بقوله هذا طرفاً معيناً (لعله المغول)، فأجبت: «إن كان الغريب صديقاً فأهلاً ومرحباً، أما إذا كان عدواً فإنه قد يظل عدواً». ثم وضع يده على القرآن وكرر قسم الصداقة، ووضعت يدي على كتاب الله تعالى، وأعلنت «إن لم يحنث الأمير حسين بقسمه فإني سأظل على عهدي، أما إذا حاول قتلي أو أسري أو إلحاق الأذى بي فإني لن أقتصر عندئذ على الحفاظ على حياتي وملكي وشرفي». فلما تصالحنا امتطينا جيادنا وتبادلنا كلمات الوداع [1]، وقد قفل بعد ذلك الأمير حسين عائداً إلى سالي سراي، بينما مضيت أنا إلى كش.

الفصل الخامس والعشرون

عند وصولي إلى كش أصدرت الأوامر إلى ابني محمد جهانكير بالتوجه إلى ماخان ليحضر أسرتي إلى كش، ثم سرعان ما تلقيت رسالة من الأمير حسين يخبرني بأن أمراء بدخشان قد أعلنوا العصيان وعليه أن يمضي لقمع التمرد، فأرسلت إليه فوراً جوابي بالتمنيات له بالفلاح في ما ذهب إليه، ومضيت عندئذ للراحة والاستجمام بعض الوقت في كش. وبعد لأي تلقيت معلومات تفيد بأن الملك حسيناً والي هرات قد غزا ناحية بلخ ونهب أهل المنطقة. وبناء على

---

(1) يختلف هذا المقطع عما ورد في تاريخ شرف الدين الذي يقول إن هذه المراسم تولاها من ناب عنهما. انظر: التاريخ، بتي دي لاكروا Petisde la croi, History P.159

هذه المعلومات امتطيت جوادي، وبعد عبور النهر في ترمذ بدأنا الزحف، ثم التقينا بقُطاع الطرق وجردناهم مما نهبوه وأعدناها إلى أصحابها، وكتبت إلى الأمير حسين بتفاصيل الموقعة، وطلب مني أن أتابع طريقي لمعونته في بدخشان.

وبعد أن أعدت المنهوبات كلها إلى أهالي بلخ تابعت طريقي إلى بدخشان. لكن حين بلغنا قندوز، وقدم الأمراء اعتذارهم للأمير حسين، وكان في طريق عودته إلى بلده، تبادلنا العناق ونحن على ظهر جوادينا، ثم مضينا إلى سهل اسكموش حيث نصبنا معسكراتنا، ودخلت خيمته، وزالت عندئذ كل مشاعر الغيرة والعداء التي سادت عقولنا في أثناء الفرقة بيننا وتلاشت.

بُعيد ذلك أبلغ الأمير حسين بأن آق بغا وبولاد بغا قد دعما قلعة كابل وأعلنا عصيانهما، فلما بلغته هذه المعلومات جاء إلى خيمتي ورجاني أن أرافقه إلى كابل، وقال إنه سيقتسم وإياي ذلك البلد كما تقضي الأخوة، وكتب بيده الاتفاق على النحو التالي: «إننا إن شاء الله سنُخضع أرض كابل، ونقتسمها في ما بيننا مع أصدقاء تيمور، قسمة أخوة».. وبعد أن طوى هذا الكتاب وضعه أمامي، وبناء على ثقتي بعهده المدون وضعت الترتيبات اللازمة لإخضاع كابلستان التي نالت رضا الأمير حسين.

وكان بولاد بغا وأخوه آق بغا من أقرب أعوان الأمير حسين؛ وقد عينهما في قيادة ولاية كابل، فعصفت هذه الترقية برأسيهما، فرفعا رايات العصيان في تلك المنطقة. ولإخضاعهما توليت قيادة الخط المتقدم من جيشنا، بينما قاد الأمير حسين الكتلة الرئيسة منه، وتحوّلنا فجأة من أرهنغ سراي ثم عبرنا جبال الهندوكوش [1]. وبزحف سريع دخلنا منطقة كابل، فلما بلغ النبأ آق بغا دفعه التيه للزحف بجيش للقائي، فشكّلت جيشي في ثلاث فرق؛ تولى جغطاي بهادر قيادة حرس المقدمة، وترأس الثانية الشيخ علي بهادر، أما أنا فقد كنت على رأس المؤخرة، وقد أصدرت الأوامر للفرقة الأمامية بالهجوم بقوة على المتمردين. لما تقابل جغطاي وآق بغا تبارزا وتبادلا الضربات ثلاث مرات، وفي المرة الرابعة أصيب جغطاي بجراح، وفي المرة الخامسة انضم علي بهادر وفرقته. لقد دار القتال ضارياً بين الجيشين، وأخذت قواتي تخسر، فما كان مني إلاّ أن ظهرت لهم، فلما شاهدني محاربيّ عاودوا القتال، مع أن كثيرين منهم أصيبوا بالجروح. وناديت عندئذ أحد القادة وكان يقف قريباً مني وأمرته أن يقود مجموعة ويقطع الطريق إلى القلعة بحيث يحول دون تراجع العصاة. وعند ضربة الحسام السابعة أصيب رأس آق بغا، فاضطرب عقله من هول الضربة، فأُخذ أسيراً، أما أخوه بولاد بغا فقد أفلح في التراجع إلى

---

(1) الهندوكوش (قاتل الهندوس) اسم أُطلق على هذه الجبال بعد هزيمة نكراء نزلت بجيش من الهندوس Hindu بسبب البرد القارس في تلك المناطق؛ وكلمة Hindu تعني أسود.

القلعة، لكني أخذت بتشجيع الرجال لتحطيم البوابة بالمطارق والمزربات، فتحطمت، ودخلنا القلعة، ووقع بولاد أسيراً في أيدينا، وتركت مكاناً للحامية.

وصل الأمير حسين بعد يومين، فخرجت من القلعة للقائه فنزل عن جواده واحتضنني وهنأني على النجاح الذي تحقق لي. كنت يومئذ شديد الغلّ وأكن أشد الحقد على هذين المتمردين، ولعلي كدت ألقى حتفي من شدة السخط لو لم أفلح في الإيقاع بهما. لذلك أمرت بإحضارهما إلي حالما استقريت في القلعة، فجيء بهما مقيّدين، وحين وقعت عيناي عليهما كنت مقتنعاً بما تعلمته بالتجربة أن على الأمير أن يكون حريصاً فلا يرقّي خادماً إلى منصب كبير، إذ إن ذلك يطيح بصوابه، ولذلك عليه أن يبقيه دائماً بين الخوف والأمل، ويعين له خليفة ليرصده ويحميه. كما خطر ببالي أنه ما من ابن شرعي يحيد عن الصراط المستقيم كما فعل هذان الوغدان، وعليه وجهت حديثي إلى بغا، قائلاً: «سوّد الله وجهك، فلو أن أمك كانت فاضلة لما قابلت ولي نعمتك الأمير حسيناً بنكران الجميل، الذي رفعك من الحضيض إلى قيادة هامة، وصدق القول «أبت النفس الخبيثة أن تخرج من الدنيا قبل أن تسيء إلى من أحسن إليها». وإنك- كما تشهد أفعالك- لابن عاهرة».

ما إن وصل الأمير حسين إلى كابل حتى عيّن الأعوان في الدوائر العامة كافة، ناسياً خدماتي، ولم يكلف نفسه حتى توجيه الشكر لي. ولقد خجلت فلم أبرز الاتفاق الذي أعطانيه. ولما رأيت قصوره التام عن الإتيان بحسنة أودعت الله إرادة الرد عليه، لكنني تركت القلعة، وامتطيت حصاني، وأقمت معسكري في السهل.

بعدما اتخذ الأمير حسين كافة الترتيبات اللازمة لكابل استعد للمغادرة، وفيما كنا على ظهر الجواد سألني المشورة في ما ينبغي أن يفعله بشأن مدينة بلخ [1]، وهي مقر حكمه؛ فقلت له: «ليس عليه أن يشغل فكره بأمرها، لكن لمّا كان نجم الشؤم الذي يحكم مصيره هو الطاغي حينذاك فإنه لم يكن ليصغي لنصيحة، بل مضى إلى بلخ. فلما وصل أخذ يرمّم حصن هندوستان ويدعمه، وأكره أهل المدينة على الانتقال إلى هناك، بينما قفلتُ عائداً إلى كش، حيث تابعت حياتي هناك.

الفصل السادس والعشرون

1367م، 769هـ بلغت السنة الثالثة والثلاثين من عمري، وأنا في قلق، وبي ميل شديد لغزو بعض البلدان المجاورة، لكنّ عيوني والأرصاد عادوا إليّ في ذلك الحين ليخبروني أن جيش المغول آخذ بالاقتراب، فاعتبرت ذلك أمراً مواتياً، وانشغلت عندئذ بإعداد جيشي، وقد جاء

(1) انظر: Pactria of the Greek وتقع على خط العرض 28,36 شمالاً وخط الطول 16,65 شرقاً. انظر: Edinburgh Gazzeyyeer Bulkh

إليّ موفدٌ من الأمير حسين بُعيد تلقي هذه المعلومات وقال إن «جيشاً من المغول يتقدم، وهو أشبه بغمامة سوداء داكنة، ونحتاج إلى تيمور الأشبه بالشمس لتبديد هذه الظلمة»، وتوسل في حديثه بعبارات إطراء أخرى كثيرة. ورداً على عبارات الإطراء الثقيلة هذه عرضت على الموفد الاتفاقية التي وضعها الأمير حسين بخطه لتقسيم منطقة كابل، وقلت له: «حين تغلبت على ذلك البلد لم يكلّف سيدك نفسه حتى شكري للمعونة التي قدمتها له، ناهيك عن الوفاء بالوعد الذي قطعه لي».

ولما تلقى الأمير حسين رسالتي أوفد إليّ فوراً القائد موسى ليقول لي إن «بلاد كابل كلها رهن أمري». لكني لم آخذ هذا الخطاب على محمل الجد، وأجبت «لسوف استعيد البلد من المغول- إن شاء الله- من دون أن أكون خاضعاً لأي التزام حيال مولاك». وعزمت عندئذ على أن أدع جيش المغول يدخل المنطقة.

حينها وجه الأمير حسين أمره إلى موسى بعبور نهر سيحون مع كل قواته، وقد استجاب موسى للأمر وعبر النهر، وصار على مرأى من المغول الذين خرجوا من أماكنهم قرب طشقند وهاجموا جيش موسى سريعاً، ولما تعرض للهزيمة عبر النهر من جديد مع قواته. ولما بلغت هذه الأخبار الأمير حسيناً زحف من بلخ، ثم توقف في سهول كش. وتابع المغول مسيرتهم في غضون ذلك وقد أنعش النجاح آمالهم، وكان ذلك مدعاة لقلق عظيم عند الأمير حسين جعله يأتي إلى حيث كانت معسكرات قواتي، فلما دخل علي في مقري خاطبني قائلاً: «ما الذي تنوي القيام به حين يتمكن أعداؤنا المغول من القضاء علي؟» فأجبته: «سأفعل ما يشاء الله». وقد كان لكلمتي أشد الوقع في نفس الأمير، فقال: «عززك الله بقلب قوي، وأيدك بجيش قوي تكون على رأسه، ولتمض إلى الأعداء، وأنا أحمي المؤخرة، فقد رأيت العناية الإلهية تخط لك علامات النصر والفلاح على جبينك»؛ ولما سمع قادة جيشي تلك العبارات غضبوا وثاروا وهم يقولون: «كم معركة علينا أن نخوض فنجرح ونَقتل في خدمة الآخرين، ونرتدي ثياب الغريب ونتناول فتات طعام الآخرين!».

وفي مجلس الجماعة وضع الأمير حسين اتفاقاً عرضه عليّ ينص على أن تكون سمرقند في ملكي، كما في الماضي، فرددت بقولي: «إني لن أقبل بسمرقند منك، ولكني سآخذها بحدّ سيفي».

ولما رأى الأمير حسين مبلغ إبائي، ووجد أني لن أقبل بسمرقند هبة منه، اتخذ وجهه مظهر التجهم، ومضى يخبرني بهزيمة جيشه وقوة المغول، ولئن كان صادقاً على ما يبدو في رغبته في عقد الصداقة فيما بيننا فإن الحقيقة هي أنه كان يتمنى لي الهزيمة، كما كان حال الأمير موسى، الذي اضطر إلى التراجع.

ولكني إذ وضعت ثقتي بأن يمن علي الرسول وصحبه الميامين بالمساعدة فقد عزمت على قتال المغول، ولما حشدت ألفين من الفرسان انطلقت بهم من سهل كش نحو ضفة نهر سيحون، وبينما كنا نجد في المسير خطر ببالي أنه في جو الغيرة الشديدة السائدة بين قمر الدين وحاجي بك - وهما من كبار قادة العدو - لو استطعت تأليب هذا على ذاك، فقد أتمكن عندئذ من حسم مشكلة المغول في وقت قريب. وصادف أن جرى ما كنت أتمناه واندلع الخلاف بين هذين القائدين علناً، وبذلك انقسم الجيش؛ فغدا نصفه مع قمر الدين والنصف الآخر مع حاجي بك، ودارت بين الاثنين معركة متكافئة. وحين تلقيت هذا النبأ زحفت بقواتي للهجوم على المغول، فلما قاربتهم اضطربوا وفروا ناحية معسكراتهم، وهكذا عدت بعون القادر القدير فائزاً مظفراً. فلما بلغت أخبار الواقعة الأمير حسيناً خرج للقائي واحتضنني بين ذراعيه، وأمر بمد سجادة المتعة، وأقام الأفراح احتفالاً بهذه المناسبة.

وردت في تلك الأثناء الأخبار بأن أمراء بدخشان قد وضعوا أقدامهم على طريق العدوان ونهبوا قندوز، فأحدثت هذه الأنباء اضطراباً عظيماً في نفس الأمير حسين، وأدار لي ظهر المجن، وهذا شأنٌ دأب عليه ذلك الأمير، فكان إذا وقعت واقعة راح يندب كامرأة، أما إذا وُفق في أمر فإنه يتبجح كما لو كان بطلاً. ومن صفاته السيئة أيضاً الحسد الشديد، حتى إنه كان يحسد خدمه حين كان ينال أحدهم ترقية، فكان سوء معاملته لهم وحمقه يدفعانهم للثورة والتمرد. وهكذا كان كلما عين حاكماً جديداً على منطقة يتمنى لو استطاع أن ينتزع من سلفه كل ما جناه، ولم يكن يسمح للحاكم أن تزيد خدمته في موقع واحد عن سنة في أي ولاية، لئلا تتاح له فرصة تحقيق مكاسب يتطلع إليها.

وعلى هذا النهج درج الأمير حسين على معاملة أمراء بدخشان الذين كانوا موالين له أشد الولاء، ويدفعون له خراجاً كبيراً، وقد طالبهم هذا العام بزيادة تتجاوز قدرتهم، بل إنه انتزع منهم قندوز على عكس ما نصّ عليه الاتفاق. فدفع القمع والاضطهاد هؤلاء الأمراء إلى الثورة عليه، فنهبوا جزءاً من المنطقة التي يسيطر عليها، فوجه الأمير جيشاً لقمعهم، لكنّ هذا الجيش مُني بالهزيمة واندحر بسبب ضيق العديد من قادة قواته لضعف جيشه وسوء أدائه، مما حملهم على الاتحاد مع أمراء بدخشان للإطاحة بحسين، بل إنهم مضوا لكتابة رسائل الشكوى إلي يعترضون فيها على مسلكه. ولما بلغت الأمير أخبار هذه الثورة جاءني ليلاً وهو يتضرع إليّ أن أحافظ عليه وحكومته، فعرضت له حينئذ الرسائل التي وُجّهت إلي، فدهش لما قرأ وأصابته الحيرة، فطمأنته وقلت له: «لسوف آتي بالأمراء إليك، إما حرباً وإما سلماً، لكنّ هناك اثنين من قادة الجيش كانا دوماً من المنافقين، ونصيحتي إليك ألاّ تمحضهم ثقتك، بل الأحرى أن

تدعني أرتب لك الجيش، ولسوف أتقدم لإخضاع أمراء بدخشان، ولتبقَ على مسيرة يوم واحد في المؤخرة». لما وافق على هذه الخطة جددنا الدعاء سائلين الله تعالى أن ينصرنا، ثم تابعت المسير وقطعت مسافات طويلة، وعبرت نهر جيحون، وأقمت معسكراتنا في صحراء كشم وهي من أرض بدخشان.

تلقيت في هذا الوقت كتاباً من الأمير حسين يخبرني بأنه وجه ابنه جهان ملك لينضم إلي، كما أخبرني باستيلاء أمراء بدخشان على قمم جبال هندو كوش والممرات، وقد قطعوا السبل عندها. وبناء على ذلك أرسلت جهان ملك الذي كان قد وصل حينها ليفتح الممرات، ويطهر المنطقة بانتظار وصولي.

سار جهان ملك بجيشه واخترق الممرات في الجبال، وأخذ يعمل في المنطقة سلباً ونهباً، لكن أمراء بدخشان أغلقوا مداخل الممرات بعدما أنزلوا قواتهم، وراحوا يتصدون له بكل شجاعة وإقدام، وفي النهاية بدأ الشاب تراجعه حين وجد نفسه عاجزاً عن التعامل معهم. بيد أنه لم يخسر ما جمع من الأسلاب فحسب، بل كل ما كان لديه أيضاً، كما وقع أربعمئة من جنود والده في الأسر، وكان من نتائج هذه المحنة أن فقد جهان ملك كل ثقة بالنفس وتراجع نحوي طلباً للسلامة.

وضعت قدمي في الركاب وسرت حتى أصبحت عند قمة الجبل تقريباً، ومع أول هجوم غدوت متمكناً من الممر، وأخذت عندئذ في تطهيره من البدخشانيين، وأبقيت بعضهم أسرى لدي. أما بقيتهم فاستمروا بالتراجع إلى قمة جيرم، حيث أقاموا مركزاً لهم وعزموا على اعتراضي. عدت فامتطيت صهوة جوادي وأصدرت أمري بالنفير والتقدم للقاء العدو، ولما رأى القوم راياتي وعلموا أنني أتقدم بذاتي للقائهم ذعروا وبعثوا إليّ بسفير يحمل طلب الرحمة.

جاءني في اليوم التالي جمع من أعيان أهالي بدخشان وشيوخهم متضرعين أن أبقي على بلدهم، ورغبوا إليّ أن أمضي وأتخذ مقامي بينهم. وقد مسّت مشاعرهم مكامن العاطفة عندي، فأعدتهم إلى مدينة بدخشان، ثم لحقت بهم.

وفي هذا الموقع وجدت كبار الرجال وقادة الجيش وبعض الأمراء يقومون على خدمتي، وأتاني بعضهم يومئذ بعدد من الهدايا، وأعادوا الأسلاب والماشية التي كانوا قد نهبوها من جهان ملك.

بناء على هذا السلوك عزمت على البقاء في المدينة من أجل عقد معاهدة السلام بين أمراء بدخشان والأمير حسين. لكن راودت الأمير الشكوك لتأخّري هناك، فذهبت به الظنون إلى أنّي متآمر عليه مع الأمراء، لذلك أرسل إلّي ضابطاً يخبرني بأن الشيخ محمد بن بايان سلدوز،

وكيخسرو قد جمعا عشائرهما جميعاً ورفعا راية العصيان، وحسبه ما ناله من بدخشان وهو في سبيل العودة إلى سالي سراي. وما إن تلقيت هذه المعلومات حتى امتطيت جوادي ولحقت بالأمير.

عند وصولي إلى عاصمته سالي سراي اكتشفت سبب عداء الشيخ محمد وكيخسرو؛ فحين بلغت معسكري تلقيت منهما رسائل يقولان فيها: «إننا نخشى صلف الأمير حسين ومؤامراته» ونحن على اقتناع بأن سموكم - وأنتم أصحاب نوايا حسنة - ستسقطون ضحية خداعه وتضليله، ونحن نحدّثكم بصدق الترك وصراحتهم، وقد كرّرنا بألسنتنا ما هو في قلوبنا».

ولقد علمت في ذلك الوقت أن هذين القائدين كانا قد وجها رسائل إلى الأمير حسين، لذلك عرضت أمامه الرسائل التي تلقيتها آملاً أن يطلعني بالقدر ذاته من الصراحة والصداقة على الرسائل الموجهة إليه، إلا أنه حرص على كتمان ما يجول في ذهنه، وإن كنت قد خمّنت أن ما في الرسالتين مطابق تقريباً لما تلقيته، وذلك لإثارة الشقاق بيننا، غير أن الأمير حسيناً ظل على اعتقاده بأني أكنّ له سوء النية، وأعتزم خداعه. علمت بعد ذلك أن الأمير قال في مجلس ضم أهل الثقة من حاشيته: «إن استقلالي وملكي سيظلان يحيط بهما الخطر طالما ظل تيمور حياً، وأنا أعلم أنه قد حزم أمره على القضاء علي». فقلت لمحدثي: «هذا مستحيل! فقد أقسم حسين على القرآن الكريم، وقطع العهد بألا يأتي بما فيه ضرر لي، فإذا ارتد ولم يعد من المسلمين فيجب أن يجرد من الكتاب المقدس».

كما ورد إليّ في ذلك الوقت تقريباً كتاب من السلطان العادل، وكان الأمير حسين يحسبه من سلالة جنكيز، فرفعه إلى مرتبة الخان، يقول فيه: إن حسيناً قد دبر لي بلا ريب مؤامرة ضدي، وبت مقتنعاً بعد أن قرأت هذه الرسالة أن حسيناً قد نسي خشية الله، وهو يضمر لي نوايا شريرة. إلا أنني ثابرت على هدوئي وتابعت إظهار صداقتي له حتى نشب الشجار بينه وبين القائدين وبلغ درجة عالية.

ولما أصبح حسين مقتنعاً بأن محمداً بن سلدوز وكيخسرو قد باتا في حالة تمرد فعلاً اشتد خوفه، فامتطى حصانه وزحفنا معاً إلى ضفة نهر جيحون، وأقمنا معسكرنا هناك. في اليوم التالي وجه قائد جيشه الأمير موسى إلى عبور النهر مع قواته ومهاجمة المتمردين، إلاّ أن القائد رفض ذلك قائلاً: «إنني لا أستطيع النهوض بالمهمة». لذلك جاء الأمير إلى خيمتي وهو في حال من اليأس، وقال لي: «إني مقتنع بأنه ليس في وسعنا أن ننجز أمراً من دون معونتك، لذلك أرجو منك اتخاذ الإجراءات الكافية لقمع هؤلاء العصاة». ولقد استجبت لندائه فوراً، وتلوت دعاء النصر، وقطعت النهر. لما علم زعيما العصيان بذلك وزعا قواتهما في ترتيب قتالي، فلم

أتوانَ لحظة، بل تقدمت من دون أن أتيح لهما وقتاً للراحة والاستعداد للاشتباك. لما اقتربت من قواتهما قال كيخسرو: «إننا لسعداء الحظ إذ وجدنا تيمور في مواجهتنا، فلا جدوى من رفع السيف في وجهه، والأجدر بنا أن نفترق، أنت إلى سيحون وأنا إلى آلاي».. وهكذا مضيا وفق هذا المخطط.

ولما بلغتني المعلومات عن تحركاتهما مضيت لمطاردتهما، لكنّي لم أتمكن من اللحاق بأي منهما، فتوجهت نحو طشقند، وأرسلت كتاباً يحيط بهذه الظروف كلها إلى الأمير حسين. لما تلقى حسين كتابي إليه شعر بالرضا والسرور، وتوجّه إلى سالي سراي. وقد أمضيت بعض الوقت في الصيد، وقفلت عائداً بعدئذ إلى مقري في كش.

تلقيت بُعيد ذلك كتاباً من الأمير حسين يخبرني بأنه اعتزم مغادرة أرهنغ سراي والإقامة في بلخ، وسألني اصطحابه إلى هناك، قائلاً: «إننا بعد جلوسنا معاً على العرش سنستولي على خراسان، ثم نقتسم طوران وخراسان فيما بيننا قسمة الإخوة». وفي الوقت ذاته كتب إلي صديق كان من بين مستشاريه ينصحني بقوله: «قد كنت راضياً بمسكني في كش، ولم أشأ استبداله»، ثم حذرني ونصحني أن ألتزم الحرص مما يحيكه حسين من خدع وكمائن. ولقد كنت على اقتناع بفضل هذه الإيماءة بأن لدى الأمير مكائد يدبرها؛ إما لقتلي وإما لزجيّ في السجن، وهكذا رفضت الذهاب إلى بلخ. وقد زادت هذه الحالة من العداء بيننا، فوضع عندئذ عدداً من الخطط لتدميري، ونصب عدة مكائد للإيقاع بي. لكن حين لم تفلح مساعيه بذل أقصى جهوده ليشتّت شمل أتباعي، ويدفع أعواني والبدو المناصرين لي إلى الصحراء. ولما كان حقده وما يعتمل في نفسه من الحسد يتجاوز كل الحدود فقد وجدته ينسى الوعود والعهود التي قطعها لي على نفسه، وأرسل بولاد بغا والأمير خليلاً الذي كان يرتبط به تقريباً ليتوليا طرد قبيلتي من البلد، وترحيل أبنائها إلى ناحية بلخ.

لما كان العداء الذي يُكنه الأمير حسين لي جلياً على هذا النحو فقد تركت أمر عقابه لكتاب الله الكريم. ولكن جاء قادة جيشي الاثنا عشر، وبعد أن حيوني قالوا لي: «إن شئتم سموكم أن تظلوا على رأس أهلكم والعشيرة فلتحاربوه، وإلا فأخلوا سبيلنا، لنسعى إلى ما فيه خير لنا، فلقد حملنا حتى هذا اليوم سيف الرجولة، وغالباً ما كنا نضعه في خدمتكم، والآن جاء بولاد بغا وخليل يسعيان ليجعلا منا فلاحين، ويَغلاّ أيدينا ورقابنا، ويفرضا علينا الانتقال إلى بلخ». وعلى الرغم من أنني قد بذلت ما استطعت لتهدئة خواطر هؤلاء القادة إلاّ أنهم لم يشعروا بالرضا حتى أقسمت ألاّ آتي بأي عمل من دون مشورتهم وموافقتهم. ولما تمكّنت من تهدئتهم على هذا النحو خاطبتهم قائلاً: «لقد أقسم الأمير حسين بالقرآن الكريم على ألاّ يُنزل بي أيَّ أذى، فإذا حنث فثقوا عندئذ بأن الكتاب الكريم سيُلقي به بين يدي».. وذلك ما حدث فعلاً.

وحين اشتد إيذاء الأمير حسين وبلغ أقصاه تغير سلوكه كلياً، فأصبح شديد التيه والغطرسة والعجرفة، ونهض بكل ما يمكن أن يؤدّي إلى القضاء علي. شرعت بترتيب جيشي، ووضعت الشجعان في مراكز القرار، واتخذت كل الإجراءات التي تبعد الخطر وتكفل العيش بأمان، وأوعزت بجلب بولاد بغا والأمير خليل، ولو أنهما عميلان للأمير حسين ومؤيدان له، فلما مثلا أمامي قلت لهما: «ما الذي جعل الأمير حسيناً يرتد عن الإسلام، حتى إنه نسي العهد والقسم بالقرآن الكريم ورفع سيف الانتقام عليّ وعلى أهلي وعشيرتي؟ إنه لن يفلت من العقاب على هذا. لقد كرر قسمه بالقرآن الكريم ثلاث مرات، وقطع العهود لي، وها هو الآن يحنث بالقسم وينكث بالوعد والعهد، وبات يقرع طبول العداء ويريد القضاء علي، لذلك فإني أعددت العدة ولسوف أزوره عما قريب».

جمعت العلماء كلهم، وعرضت أمامهم الظروف، وطالبتهم بإعلان فتاواهم، فأجابوا: «لما كان هو السابق في نقض العهود وتجرأ على نقض اليمين، فلا ريب في أن لسموكم الأمر في تقويمه».. فلما سمع بولاد بغا وخليل تلك العبارات ارتعدت فرائصهما، فأمرت بإبعادهما لعلهما يخبرا مولاهما بما شاهدا وسمعا. ولما بلغت هذه الأخبار الأمير حسيناً ضرب طبل الشقاق، وراح يتحيّن الفرصة للقبض علي بالتآمر. لكنني آثرت الإخلاص والصدق، وأعلنت بجرأة وشجاعة ما كان يجول في رأسي، وقلت: «لسوف أظل صديقاً لحسين طالما كان صديقاً لي. لكن بما أنه اختار أن يكون عدوي فإنه سيجدني عدواً له أيضاً، وكلي ثقة بعون الله. وأعلن بصوت مرتفع أني كنت حتى اللحظة أؤثر صداقته، لكنه حنث بالأيمان ونقض الوعود، وهو يسعى إلى تدميري، لذلك فإني سأبذل ما في وسعي لإحباط مخططاته العدوانية».. لما سمع قادة جيشي خطابي سُرّوا جميعاً، فتعاهدوا على سيف الإجماع، وهيؤوا عشائرهم للحرب.

الفصل السابع والعشرون

كانت الخطة التي عرضتها لمواجهة الأمير حسين، التالية:

عندما وجدت القادة مجمعين لدي على التصدي للأمير حسين والالتزام الوثيق معي، فقد أخذت أبحث في ساعة سعد عن إشارة في القرآن الكريم، فطالعتني الآية الكريمة: [1]

وقد فسر كبير العلماء هذه الآية بقوله: «إنها تحضّ المؤمن على اعتبار آل النبي كأنهم من قومك وأصحابك، وواجب على سموكم وفق هذه الآية أن تستعدّوا؛ لأنه من هذه الحملة سيأتي فوز عظيم لذرية رسول الله». ولقد تحققت النبوءة حين استوليت على ترمذ نتيجة الحرب بيننا.

---

(1) (٠) نقل المترجم الفارسي هنا نصاً زعم أنه آية من القرآن الكريم، لكننا لم نقع عليها، هـ. م.

وقد خرج لاستقبالي العلامة أبو البركات ذو المكانة العالية، وهو كبير أشراف تلك المدينة، وقدّم لي طبل الأمير حسين واللواء، وخاطبني قائلاً: «أحضرت لك الطبل واللواء بأمر الرسول الذي رأيته في الحلم».. ولقد سررت بوصول السيد أبي البركات أشد السرور، واعتبرت قدومه حدثاً مباركاً، وقدمت الهدايا وآيات التشريف لكل ذرية الرسول في المدينة. ثم أجلسته إلى جانبي ومضيت أستشيره في كل مناسبة، ولم أحِدْ ابداً عن تعليماته طوال الوقت، بل اعتبرت أنه إحدى نِعم المولى عليّ، فأودعته كل ثقتي، روحياً وزمانياً، وجعلته يلازمني في حلي وترحالي، وكنت أعود إليه بالسؤال كلما واجهتني مشكلة فأحيل الأمر إليه، فكان يجد الحل.

حين أحضر لي طبل الأمير حسين واللواء - وهما رمز مكانته الأميرية - سرعان ما انتشر النبأ في طول البلاد وعرضها، وهو ما جعل عدداً من أعداء حسين ينضمون إليّ، وأولهم الشيخ محمد سلدوز الذي تخلى عن الأمير حسين ومضى يجول في الصحراء، فلما بلغه نبأ مناهضتي لذلك الأمير هرع إليّ ومعه عشيرته، ولكن الغرور طغى على عقله، فتهيأ له أنه من أكبر النبلاء لديّ، ولما انضمّت إليه عشيرته وأتباعه تملكه الغرور وعصف بعقله وأصبح مهذاراً.. ولقد طلب إليّ يوم التحق بي أن أوليه ختلان، فمنحته الولاية. لكن حدث في ذلك الحين أن الأمير كيخسرو الختلاني راح يطوف بالبلاد ثم دخل ختلان واستولى عليها، وكان الأمير حسين قد حكم على أخيه بالإعدام بسبب تخلّيه عنه، فما كان منه إلا أن جمع عدداً كبيراً من الأتباع وكتب إليّ يقول: «إن كنت ثابتاً على معارضة حسين فإني أنضم إليك في مناهضته». فأرسلت إليه ردي[1]، واستعرضت فيه كلّ ما صدر عن حسين من سلوك مجافٍ للمبادئ والقيم، واختتمته بقولي: «قد نزلت إلى الساحة بعزم راسخ على إفشال مخططاته، متكلاً على القرآن الكريم الذي أقسم عليه، وإني لسوف أجعله يسدد غالباً ثمن خيانته».

وقد سُرّ كيخسرو حين تلقى كتابي، وانضم إلي ومعه قواته جميعها. ولما مثل أمامي استقبلته واحتضنته بين ذراعي، وأكدت له دعمي ومؤازرتي له. وأمرت عندئذ بقرع طبول المسير. لما غادرت ترمذ التزمت المسير على ضفة النهر حتى بلغت هاريس آباد حيث توقّفت. جاءني في هذا الموقع ألجايتو الذي كان والياً لحسين على قندوز، فانضم إليّ مع جنوده، وقال عندئذ: «إني لعلى ثقة بأني بفضل سعد سموكم سأتحرّر من قبضة هذا الطاغية».

تلقيت في هذه الأثناء من والي بدخشان محمد شاه رسالة حفلت بالشكوى من الأمير حسين، فأرسلت إليه رداً قلت فيه: «إن الجراح التي نلتها من الأمير حسين تتجاوز كثيراً الجراح التي أصابته، مما يجعلني أعد ذلك الطاغية كافراً، وهكذا صممت على تدميره، فإن انضم إلي -

---

(1) يرد الكتاب في النص، لكنه مجرد تكرار لما سبق عرضه.

سألت الله أن يفعل - فإن شكواه ستتحول إلى شكر». حالما تلقى محمد شاه رسالتي خرج من بدخشان وزحف على رأس قوة كبيرة وقدم لي احتراماته.

كان أهل بدخشان وعشائر ما وراء النهر قد أرسلوا إليّ عرائض حافلة بالشكاوى من حسين، يرجون أن أبعث إليهم من يتولى قيادتهم. ولقد أجبت مطلبهم بأن أوفدت إليهم الأمير جاكو، فاجتمع كل من كان ناقماً على حسين حول هذا القائد.

حين اجتمع هؤلاء القادة الأشاوس تحت لوائي اعتبرت ذلك غوثاً أرسله سيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، وزادني سروراً حضور الشيخ السيد أبي البركات، فلجأت إلى القرآن الكريم أنشد إشارة مباركة، فطالعتني الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33].

وكان تفسير الآية كما أوردها أهل العلم أنها تتعلق بآل البيت الذين يبرؤون من رجس أهل الأوثان والكفار حالما تغادر أرواحهم الجسد. وقد صدق هذا على حالي؛ لأني سأبرأ من رجس أعدائي والخصوم. وزاد من حبي لآل محمد صلى الله عليه وسلم، واعتبرت وصول الشيخ السيد أبي البركات من أعظم البركات المنزلة، وعزمت أن يكون المصحف الكريم والشريف أبو البركات رفيقيّ الدائمين؛ لألجأ إليهما في كل أمر خطير، وأُحكِم سلوكي وفق أوامر الله تعالى ونَهيِه. وحين وجدت نفسي محاطاً بجيش عرمرم من مواطني أقطار متنوعة وعشائر مختلفة استدعيت كبار القادة إلى اجتماع، وعرضت عليهم خشيتي من أن يسعى الأمير حسين للهرب بحيل وخدع لا عد لها ولا حصر من المصاعب في هذه الصحراء الشاسعة، فضلاً عن أني كنت لا أثق بأهل العشائر؛ إذ يسهل أن ينال منهم التطير أو الوقوع في الخديعة، وضربت لهم مثلاً بالأمير موسى الذي فرّ تحت وطأة خشية راودته وعاد إلى سمرقند، وعرضت لهم أن الأفضل في هذه الحال أن نعقد اجتماعاً عاماً نعلن عهد العداء للأمير حسين، ونؤكد ذلك بالقسم بالقرآن الكريم. فاتفقنا مجدّداً على ذلك بين قادة الفصائل والعشائر والقبائل، وأشهروا في ذلك المجلس القسم المطلوب.

وهذا كان أول ما فعلته، فجمعت شيوخ العشائر والقبائل الذين تزنروا بالولاء لي. ثم أرسلت الشيخ بهادر علي ومعه ثلة من المحاربين في الطليعة بعدما تلقيت أخباراً تفيد بأن الأمير حسيناً قد وجه جيشاً بقيادة جوبان سربدال لاعتراض مسيرة قواتي.

سرعان ما اصطدمت طليعة حرسي بالعدو الذي انهار عند أول هجوم، وهربت فلوله، وعلى ذلك قُرعت الطبول مع المسير، وحين تجاوزنا أطراف جبل شدمان صرنا نلتزم بضفة النهر، ودخلنا وادي غوز، وأقمنا معسكرنا قرب حصن أزبرغ.

وصل إلى علمي وأنا في هذا الموقع أن الأمير قد وجّه رسائل إلى مختلف قادة جيشي، يحضهم على العصيان والتمرد، قائلاً إنهم «قد حادوا عن عادات الترك وأخلاقهم وشيوخ العشائر والقبائل الأقدمين، بإطاعتهم أي إنسان عدا مولاهم الشرعي- وبحسب شرائع الترك فإن مولانا الشرعي (الخان) لا بد من أن يكون من المتحدرين من قبلاي وجنكيز خان- ومسلككم يلحق الظلم بسلالة هؤلاء الأمراء». ولما بلغني هذا استدعيت القادة فوراً وقلت لهم إن «غرضي الوحيد من خوض الحرب ضد الأمير حسين هو الرغبة في توفير الهدوء والراحة للمسلمين والرعايا الآخرين الذين يضيقون به. أما فيما يتصل بالقوانين وشرائع الترك فأقول أفليس لدينا الأمير سيورغتمش (خاناً) علينا، وإذاً فكيف لأي امرئ أن يجازف بالقول إننا قد حدنا عن شرائع أسلافنا وتقاليدهم».. وقد أصدرت الأمر بالمسير فوراً لقتال الأمير حسين، لوضع حد لأضاليله.

وفي ذلك الوقت تقريباً جاءني الشيخ بهادر علي الذي كنت قد جعلته على رأس حرسي الأمامي، بجوبان سربدال وهو قائد حرس حسين الأمامي مغلول العنق واليد، بعدما وقع أسيراً لديه. كما انضم إلي محمد خواجا وجنده. وعزمت عندئذ على التحرك سريعاً والهجوم على مدينة بلخ، فإذا خرج الأمير حسين وقابلني في السهل فلن أرغب في وضع أفضل، أما إذا دعّم موقعه وصمد في الحصار فإن الله تعالى سرعان ما سيقيم العدل جزاء نكثه باليمين على القرآن الكريم.

ولقد تلقيت بُعيد هذا معلومات تفيد بأن الأمير حسيناً قد خرج من القلعة إلى السهل، وبناء على ذلك وجهت الأمر لقادة القوات بالتقدم سريعاً ومهاجمة جيشه. كما وجهت ابني عمر شيخ (وهو يومئذ في السادسة عشرة من العمر) بدكّ أسوار المدينة، فتقدم قريباً من الموقع، حتى إن سهماً اخترق قدمه ووصل إلى جانب حصانه، وعلى الرغم من هذه الإصابة البالغة فقد استمر في الهجوم. أصيب حسين بالذعر جراء هذا الهجوم فلجأ إلى القلعة، وأمر بسدّ الأبواب، أما ولدي الشجاع فقد راح يهاجم باب القلعة بفأس وهو يمتطي حصانه. وقد عاد من هناك منتشياً، وكان المحاربون جميعهم مسرورين لهذا البرهان على شجاعته، وصاروا يبذلون له حياتهم.

امتطيت في اليوم التالي صهوة الجواد، وحركت جيشي، ومضيت إلى شن هجوم على أسوار البلدة. وأما الأمير حسين فإنه خرج إلى أعلى القلعة ورفع لواءه عازماً على التحدي، ثم وجه ثلة من جنده لقتالي، فنشبت معركة حامية الوطيس، وسقط كثير من الشجعان على الجانبين. أما حسين فأحاط نفسه بحلقة من الحراس لضمان سلامته، و قد شاهد عن بعد هزيمته وعاره. لكنه استمر مع ذلك يخوض المعركة، وحالما خيم الظلام أرسل إليّ الرسالة التالية: «لم يقدّر

لي أن أتمتع بطعم السعادة لحظة منذ أن تحزمت بحزام الكراهية لك، وإني لعلى اقتناع بأن كل معارضة لن يكون من شأنها إلا أن تزيد أسباب شقائي؛ فقد برهنت الخبرة أنك تحظى بعناية ربانية، وأن حسن الطالع والرفاه ينتظرانك، بينما تمسّكت بي المصائب والحظ العاثر، فاعذرني ودعني أترك هذا البلد وأمضي في دربي لأؤدي الحج في مكة».

ولقد أجبته إلى طلبه، وكتبت إليه أسأله أن يبعث إليّ بأحد أبنائه لتطمئنّ نفوس رؤساء العشائر والقبائل الذين لطالما أنزل بهم الأذى والإهانة، ولعلي أحملهم على الوعد بأنهم لن يُلحقوا به أذىً أو إزعاجاً. وأرسل إليَّ أكبر أولاده، فوعدت الشاب في حضور كبار الجمع بأن أزوّد الأمير حسيناً بكل ما تحتاج إليه الرحلة، وبتوفير حرس الحماية وكل ما يلزم إن خرج من القلعة وترك البلاد إلى الديار المقدسة.

ولكن لم يصغ حسين لنصيحتي أو الوعد الذي قطعته له، بل عزم على الهرب من القلعة خلسة في زي حاجّ قلندري بعد ما وضع أثمن ما لديه من الجواهر. وعلى ذلك فقد غيّر هندامه من دون أن يعلم أهله بمخططه، ثم خرج والخدم يجهلون تحركاته. وفي تلك الساعة من الصباح قصد الرجل مسجداً وهو مطمئن إلى سرية حركته، وأخفى نفسه عن العيون في قبة المئذنة، وما أن صعد المؤذن ليرفع أذان الفجر حتى وقعت عيناه على الأمير هناك فعرفه، فعرض على المؤذن خيطاً انتظمت فيه اللآلئ إن كتم السر، لكن المؤذن خشي الفضيحة وكشف السر، فجاءني معلناً ما جرى، فأمرت بإدخاله والمثول أمامي، فلما دخل سرد علي ما وقع له، وعرض أمامي شريطاً من اللآلئ التي قدمت له رشوة ليحفظ السر [1]. فرغبت إلى المؤذن أن يعود إلى الأمير حسين ويطلب منه أن يتخفى على أفضل نحو حتى تلوح الفرصة لترك المنطقة إلى حيث يشاء. استولى على حسين الخوف على حياته، فنزل واختبأ في حجرة تحت المئذنة، لكن أعداءه كانوا قد سمعوا الجلبة التي أحدثها أثناء نزوله فطوّقوا المسجد وعثروا عليه وأتوا به إلى ديوان المجلس. وقد أصدرت عندئذ الأمر بإحالته إلى عادل تواجي [2] حتى يجتمع شيوخ القبائل والعشائر للنظر عندئذ في كل ادعاء يوجه له.

محاكمة الأمير حسين على صوت النفير

عندما أودعت أمر الأمير حسين لعناية السجان أرسلت إليه رسالة أقول فيها: «لما كان بيننا عهد راسخ، وأقسمنا معاً على القرآن الكريم ألاّ يحاول أحدنا الاعتداء على حياة الآخر، فإني لن أحنث بيميني، وهذه المصيبة التي نزلت برأسك ليس مصدرها عدائي لك، بل هي انتقام القرآن

(1) تختلف الرواية عما ورد في تاريخ شرف الدين.

(2) أشك في أن هذا هو الاسم المناسب، أو أنه الدائرة العدلية.

الكريم، وليس لي أي علاقة بالأمر، إلا أني لا أملك أن أخلّصك من بين أيدي من يتعطّشون لدمك لما نالهم منك».

ولما تلقى رسالتي إليه أخذ يرجوني ويتضرع طالباً الرحمة، فسعيت إلى تهدئته. وعليه فقد استدعيت القادة والرؤساء، ولما حضروا شكلنا مجلساً، فأرسلت في طلب الأمير حسين، فلما وصل خاطبته قائلاً: «يا حسين! إن ما زجَّ بك في هذا الوضع الكريه افتقارك للصدق والثقة، وإعراضك عن كلمة الحق، وذلك عاقبة الحنث بالعهد والضلال». وقد ذكر السيد أبو البركات عندئذ القول المأثور «لا يَضرّ الصدق امرءاً، والبقاء على العهد أفضل الإيمان».

وعندئذ قلت بصوت عالٍ في حضور الكبار المجتمعين: «إني قد أوليت الأمير حسيناً عهد الأمان».. لكنه قال بما عُهد فيه من تيه وتعال: «لو كنت في مكانك لما فعلت»؛ فأجبت: «الحمد لله أني لست على شاكلتك.. أنت الذي لا قدرة لك على الصفح، وتجرؤ على الحنث باليمين، والنكث بالوعد، والإتيان بما ينكره الله تعالى والنبي الكريم».

وفي تلك اللحظة جثا كيخسرو على ركبتيه، وطالب بالانتقام لدم أخيه الذي كان حسين قد قتله. وقد حاولت حمله على كظم غيظه، وأرسلت في طلب الشيخ محمد والقضاة والحكام، وقبل دخول هؤلاء قال والي بدخشان بصوت مدوٍّ: «قد كنت يا أمير حسين سبب دمار أُسرتي، وجعلت أيامي مرة بقتلك عدداً من أمراء بدخشان الأتقياء». كما صاح محمد بن بايان سلدوز: «هناك آلاف الأسر من قبيلتي الذين تشرّدوا في الصحاري بسبب ظلم حسين، كما أنه نهب القسم الأعظم من قطعان ماشيتنا وأملاكنا».. وهناك شيوخ كثر آخرون يطالبون ويلحّون بالمطالبة بقتله. إلا أنه بسبب من شبه الصلة التي تجمعنا وجدت دمائي قد أخذت تثور وتغلي، والغمة تسكن قلبي، لكني عاجز لأن المصاب كان عاماً، وقلوب الناس قد تحولت عنه. وسألت القضاة عندئذ ما قولهم في شأن الأمير حسين؟، فأجابوا «لا بأس عليه إن صفح عنه ورثة من اغتالهم حسين، وإلا حق عليه قانون المعاملة بالمثل، فقتله عندئذ عدل». وعندما وصلت كلمات القضاة قال أحدهم ممن كان في خدمة حسين: «يا أمير! لطالما نالت البشرية على يدي حسين هذا الضير والظلم، وعلى يديه أيضاً ارتكبت قسوة عظيمة، وبفعل الجشع الذي يتملكه زج في السجن بألف وسبعمئة من الرجال والنساء الذين تحرروا يوم قدمتم إلينا». فقلت: «ربما لا يشاؤون الادعاء عليه». فقال أحد العلماء: «قرأت في الكتب المنزلة أن القضاء على من يضطهد أو يؤذي إنساناً أوجب من قتل أفعى أو عقرب، لأن ذاك قد تآمر ودبر الخراب لآخر، بينما لسعة الأفعى لا تصيب إلا حين تخاف أن تنزل بها أذية وتريد إنقاذ نفسها». فلما بلغت هذه الكلمات مسامع الحضور كانت العظة أنّ من الحكمة قتل الطاغية أو رجل السوء،

ولما رأى سبهسلار أو قائد عام جيش حسين الأمير ألجايتو الكآبة تستولي وإنّي لن أوافق على إعدام الأمير، أبدى لي احتجاجه على هذا الأمر، فأجبت: «إن الأمير حسيناً سجين عندي، ولن يُعدم»، ثم نهضت لأغادر المجلس. ولقد صاح القادة إنّ القرار قد اتخذ بإدانة الأمير حسين بحكم القانون، والموت حق عليه، وبالتالي يجب على تيمور ألاّ يرجئ العقوبة. لكني رديت بأن يسمح لي بإرجاء الحكم، آملاً أن أتمكن من العثور على وسيلة ما لإنقاذ حياته.

ولكن لما لم يكن يرضي العناية الإلهية أن يستمر حسين على قيد الحياة فقد أقدم الأمير كيخسرو الذي كان يريد الانتقام لمقتل أخيه، مع ألجايتو ومحمد شاه على قتل حسين المسكين الذي راح يكيل لهم الضرب بقبضتيه كأنما يريد نفض يديه من الحياة. فخرج من المجلس ومضى حتى بلغ ضريح الخواجا عكاشة، وهناك تمكن منه هؤلاء القادة الثلاثة وقتلوه، وعندما عادوا قتلوا ولديه خان سعيد ونروز سلطان، وتمكن اثنان آخران من الهرب إلى الهند، وهما جهان ملك وخليل سلطان، ولقد كان لهذه الكارثة الفادحة أشدّ الوقع علي، فمضيت لمعاينة جثمانه، ورددت الأدعية التي تقال عند الوفاة وصلّيت عليه، ثم أمرت بدفنه بكل المراسم المرعية.

ولما استوليت على كنوز الأمير حسين التي جمعها بكل الجشع والطمع اللذين عرف بهما عملت على توزيعها بين القادة والكبار. وفي اليوم التالي دعوت إلى اجتماع عام للمجلس، وأصدرت الأمر يومئذ بالعناية بأتباعه والحاشية، ووجهت بإرسال نسائه والأطفال إلى سمرقند[1]. وقد صدف أن كان أحد الذين حضروا الجلسة قد تجلل بالسواد. فسألته عن سرّ ارتدائه الأسود، فأجاب: «فقدت صديقاً وكنت أنا قاتله، وقد حملني الحزن على الحداد عليه». وقال أحد العلماء «كيف لك أن تقتله لو لم يكن هذا قدره، فكيف تحزن».

وقد توجهت بعدئذ إلى العلماء فسألتهم: «ما هو أسوأ أمر في هذا العالم؟» فذهب بعضهم مذهباً، وذهب آخرون مذهباً آخر.. فتابعت قائلاً: «أفضل ما في هذا العالم إنسان طيب، أي إنسان يتمتع بخصال ممتازة، ولذلك فلا بد من أن يكون أسوأ ما في هذا العالم إنساناً سيئاً ينطوي على كل سيئة مثل الأمير حسين: طاغية، بخيل، شحيح، جشع، جاهل، لا يخاف الله». وقد أطرى المجلس كله على هذا التعريف الذي عرضته، وأقام أعضاؤه الصلاة ورفعوا الدعاء بدوام العز لي.

---

(1) يذكر تاريخ شرف الدين أنه أخذ أربعاً من نسائه ووزع الأخريات بين قادة جيشه.

السفر السادس

الفصل الأول

حكاية ارتقائي كرسي العرش في بلخ

حين طهرت منطقة طوران من المؤامرات الشريرة التي كان يحيكها الأمير حسين كان هناك ثلاثة مطالبين بحقهم في العرش، وكل واحد منهم انتفخت أوداجه زهواً وكبرياء لكونه زعيم قبيلة كبرى ومن خلفه حشد عظيم من الأتباع، ويريد أن يرتقي العرش. كان أول هؤلاء الثلاثة شاه محمد من بدخشان، الذي يعدّ نفسه أحد كبار أمراء ذلك البلد، والثاني الأمير كيخسرو، وكان يدّعي أنه صهر خان إقليم قبجاق وحاكم ختلان، والثالث محمد بن بايان سلدوز الذي كان يرأس عدة آلاف من أسر قبيلة سلدوز، فلما سمعت دعاواهم على اختلافها تجملت بالصبر.

ولما بلغ النبأ السيد أبا البركات دعا عدداً من السادة الأشراف الشباب من ترمذ، مثل أبي المعالي وعلي أكبر للمداولة، ثم استدعى بعد ذلك المطالبين بالعرش جميعاً، ولما انتظم المجلس قال لهم: «قد جرى الآن بحمد الله تطهير طوران كلها من كل من يفسد هدوءها، فإن اتّحدت كلمتكم واخترتم أخاً كبيراً فإن اتحادكم سيكفل لكم الرخاء، أما إذا تفرّقت كلمتكم وأقمتم ممالك مختلفة فإن المغول الكفار سيتغلبون عليكم قريباً؛ فليقل كل منكم رأيه مهما يكن هذا الرأي».. فقال محمد شاه الذي كان كبير أمراء بدخشان: «دعونا نقسم البلاد أربعة أقسام كما الإخوة، وليحكم كل منا إقليمه، ولنتحد جميعاً في وجه أي عدوّ يجرؤ على غزونا أو يتصدى لنا». فرد أبو البركات بقوله «إن كثرة الحكام مجلبة للصراع والشقاق، ولو شاء الله أن يكون لمملكة ملكان لوجب أن يكون هناك إلهان؛ رب يحكم في السموات وآخر على الأرض، ولكن لا يوجد إلاّ إله واحد هو رب العالمين، وملك واحد يحكم البلد ذاتها، والدليل على ذلك موجود ومؤكد».. قال محمد سلدوز: «إنّ من المغاير لشريعتنا أن يُعهد إلى أحد المجتمعين بعرش الخان، أو أن يكون الشعب خاضعاً لنا، وبما أن الأمير سيورغتمش أوغلان من عقب جنكيز خان فلننصبه على العرش، وليكن الأمير تيمور نائباً له وقائداً للجيش، وسنعلن طاعتنا له».

رد أبو البركات قائلاً: «إنه لمخالف لدين محمد أن يخضع أتباعه للكفرة من بينكم؛ وقد كان جنكيز يسكن الصحراء، واستطاع بالعنف وحدّ السيف أن يتغلب على المسلمين.. وسيف الأمير تيمور حالياً ليس أقل مضاء من سيف جنكيز خان، ولقد فررتم جميعكم من حسين واختبأتم في الصحراء، ولم يجرؤ أحد منكم على الخروج من مخبئه حتى خرج إليه تيمور وحده، ولم يكن تيمور يحتاج عوناً منكم ليخضعه، وهو لا يريد هذا الآن».. وبعد حديث طويل خلص إلى القول: «قد حدثتكم حتى الآن بوصفكم أتراكاً، إنما أعلم أنكم مسلمون تعتنقون دين محمد، وواضح الآن لكل أتباع النبي أن الله قد أنعم عليه بأن دان له العالم وخلصه من الكافرين والمشركين ومن اليهود والمسيحيين بقوة سيفه المنصور، ولذلك أصبح محمد مالك الأرض، وصار الأمر من بعده إلى الخلفاء الراشدين الصالحين الذين نشروا مع أتباعهم الإسلام في الأرض، ومن بعدهم إلى سلالة النبي الذين حقّت لهم الخلافة، وصار لهم أن يُنيبوا من شاؤوا من بعدهم.. والرأي عندي، وأنا من نسل الحسين حفيد محمد صلى الله عليه وسلم ومعي أشراف مكة والمدينة جميعهم أعدّ الأمير تيمور ممثلاً للخلفاء الراشدين، وعلى ذلك نصبناه حاكماً على المسلمين كافة في بلاد طوران كلها.

ولما سمع أعضاء المجلس أن المسلمين مجمعون في الرأي والخيار، وأن الناس يميلون إلى اختياري، قال الأمير كيخسرو: «فلنقترع ونقطع العهد على طاعة من يقع عليه الخيار». وبناء على هذا الاقتراح كتب أبو البركات اسمي وأسماء المرشحين الثلاثة الآخرين على أوراق صغيرة ووضعها تحت سجادة الصلاة، ثم قال لهم: «مدوا أيديكم تحت السجادة وأخرجوا الأوراق». وقد كرروا ذلك ثلاث مرات، وفي كل مرة كانت تخرج الورقة المكتوب عليها اسمي، وبدا الحرج ظاهراً على وجوههم جميعاً، لكنهم لا يستطيعون إنكار ما جرى الاتفاق عليه.

جاء في اليوم التالي وفد من رؤساء القبائل والعشائر إلى خيمتي، كما أن المنافسين الثلاثة دخلوا خيمتي وانحنوا أمامي احتراماً وإجلالاً، ثم حضر الأمراء ألجايتو وساربغا وداود وركعوا على ركبهم أمامي، وبعد أن قدم هؤلاء الزعماء الكبار احترامهم هنأني المجلس، وتولى أبو البركات ومعه أشراف ترمذ الدعاء لي ولذريتي أحسن دعاء، ثم وقف الزعماء المذكورون ومعهم شيوخ القبائل الاثني عشر واصطفوا على شكل نصف حلقة إلى اليمين واليسار من مقعدي. عندئذ خاطب أبو البركات الجمع قائلاً: «يا جمع المسلمين! قال رسول الله «أيها الناس أنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، وأهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي»،

وكلاهما الآن في يد الأمير تيمور، فمن أطاعه نال الخير في هذه الدنيا والسعادة في الآخرة؛ أما من عصى أمره فسوف تسوء حياته في الدنيا وينال سوء العاقبة في الآخرة». ثم حمل القرآن وكان أمامه ووضعه فوق رأس كلّ من حضر المجلس، قائلاً: «من شاء الدخول في هذا العهد فليتقدم، ومن شاء السقوط فليسقط»؛ فردّ كلّ من حضر المجلس: «قد سمعنا ونحن مطيعون»، وعلى ذلك أقروا بالطاعة وسلّموا لي بالحكم.

الفصل الثاني

1369 م: بلغت في سنة 771هـ الخامسة والثلاثين من العمر، وقد زارني أربعة من كبار السادة الأشراف؛ وهم أبو بركات وأبو المعالي وزين الدين وعلي أكبر، الذين اختاروا لذلك ساعة ميمونة، فأمسكوني من ذراعي وأجلسوني على كرسيّ العرش. بعد جلوسي فتحت القرآن الذي كان رفيقي الدائم باحثاً عن إشارة تفيد إن كان حكمي سيدوم، فطالعتني الآية: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: 26] وكان العلماء يقفون عند أسفل كرسيّ العرش، ويدوّنون تفسير هذه الآية ويبتهلون لدوام ملكي، والناس جميعاً كبيرهم وصغيرهم يرفعون أيديهم بالدعاء لي بدوام العز. بعدئذ انحنى لي الأشراف جميعاً مهنئين، وقدم زعماء القبائل والشيوخ واجبات الاحترام، ثم صاح الناس جميعاً، جنوداً وعامة: «دام عزكم».

وفي اليوم السابق لتتويجي أصدرت التعليمات المتعلقة بالبلاط، فخصصت السادة الأشراف ورجال الدين والعلماء بأن يكونوا إلى يميني، وأتباعي والأقارب والأعيان بالجلوس متحلّقين في نصف دائرة حول كرسي العرش، وحراسي خلف العرش، و قادة الفرق في المقدمة في مواجهتي، والأعوان المرافقين الاثني عشر مصطفين ثلاثةً في المقدمة وثلاثةً على كل جانب وثلاثةً في الكور[1]. وأمرت بأن يجلس الضباط والجنود كلّ بحسب مرتبته. وبعد ترتيب أمور البلاط على هذا النحو طلبت ما كان لديّ من كنوز وأشياء ثمينة ووزّعتها على الأعيان والقادة والجنود، كل بحسب رتبته ومرتبته، ثم وزّعت ما لديّ من أموال وخيول وسيوف وأغطية رأس وقلنسوات، حتى لم يعد لديّ سوى ما على بدني من ثياب وحصانين في إصطبلاتي، حتى إنّ الأمير جاكو طلب حصاناً منهما فأعطيته إياه، واستطعت بذلك أن أحتفظ لنفسي بحصان وسيف وترس ورمح وجعبة وسهام. لما رأى زعماء القبائل والعشائر مقدار سخائي وسعة يدي، تقدموا وركعوا أمامي على ركبهم، وقالوا لي: إنك جدير بالعرش والملك.

---

(1) الكور: الحاجز الذي يحيط بكرسيّ العرش.

قال أحد أتباعي المؤتمنين في هذا الوقت: «لم تبق حتى قطعة واحدة في خزانتك». فرددت قائلاً: «إن كنت ملكاً فكل ثروات العالم ملكي، كما أنّ ما يملكه رعيتي هو ملك لي .. وإن لم أكن ملكاً فربما لن يدوم كل ما كنت أملكه».

ولقد طلبت عندئذ الإعلان أن «الناس جميعهم كبروا أم صغروا، ترك أم فرس، نبلاء أم وضيعون، ضباط أم جنود، يظلون جميعاً في أمان مني»، وعليه فقد أصدرت المراسيم وعممتها في كل بقاع مملكتي معلناً أني «قد عفوت عن كل من أُدين بتهمة، وكل من أشهروا سيوفهم في وجهي، أو آذوني، أو أذكوا العداء لي، وأنني أعدّهم اليوم أصدقاء لي؛ فقد طرحت عني كل عداء أو رغبة في الانتقام وأزلتها من صدري، آملاً أن يأنسوا في أنفسهم الثقة ويشعروا بالسعادة، وأنني أعلن تنازلي عن كل ما سرق من أملاكي أو نُهب في أثناء الاضطرابات لمن وضع يده عليها؛ وعفوي عن أتباع الأمير حسين، ولعلهم يظلون آمنين حيثما تشتّتوا واختفوا، ولهم أن يحتفظوا بما وقع تحت أيديهم».

وأصدرت بعد ذلك الأوامر إلى زعماء القبائل في مناطق الحدود وحكام القلاع في شدمان وقندوز وبدخشان، وتركستان وكابلستان وكاشغر وطشقند وسيحون وحول إقليم قبجاق وخوارزم، وأعلمتهم بتثبيتهم في ولاياتهم وقيادتهم، وطمأنتهم حتى لا يخطر ببالهم أنه سيقع لهم تغيير.

ولما حلّ عيد الفطر حضرت الاحتفال في المسجد الجامع في بلخ، وأديت الصلاة هناك. ولقد دعاني المسلمون لبدء مراسم صلاة العيد قائلين: «إننا نعدّ جلالتكم متمماً للخلفاء، والقائم على دين محمد، وحارس الأرض المقدسة، وحامي خدم الله سبحانه وتعالى، وراعي الأولياء الصالحين، فحريّ بك، إذاً، أن تكون إمامنا في الصلاة».

صعد الخطيب المنبر، واستهلّ كلامه بالابتهالات والأدعية والشكر لله سبحانه وتعالى والنبي وذكر مآثر الخلفاء الراشدين [1] والدعاء لهم بأن ينزلهم الله فسيح جناته، ثم بدأ الخطبة[2] باسمي بهذه العبارات: «أعان اللهم جيوش المسلمين ومعسكراتهم أينما حلوا، وأينما سارت مطاياهم، شرقاً أم غرباً، وأن يحيط بهم السعد الذي يصاحب مولانا السلطان العادل، الخاقان الإمبراطور العظيم، والأمير المجيد والخاقان ابن الخاقان الأمير تيمور كوركان، أعز الله ملكه وعمّ إحسانه وعدله المسلمين». وبعد انتهاء هذه الخطبة تقدّم الأشراف وكبار قبيلة الجغتاي وزعماء العشائر والقبائل مني بالتهنئة بمناسبة العيد الفضيل.

---

(1) الخلفاء الأربعة الأوائل.

(2) تشبه الصلوات التي تقرأ في الكاتدرائية قبل العظة.

ولما خرجت من الجامع وضعت قدمي في الركاب وامتطيت جوادي ومضيت يرافقني القادة والضباط إلى قصر كيتول. ثم سألتهم السماح بالالتفات إلى شؤوني كما تقضي الأصول، وأرسلت إلى كل واحد منهم على سبيل التكريم بمناسبة العيد مأكولات وتركتهم يمضون إلى بيوتهم.

وبعد أيام عيّنت مراد بهادر بن شوغان برلاس والياً على بلخ، وزودته بتوجيهاتي ليسترشد بها وتوجهه إلى السبيل الذي ينبغي عليه أن يمضي فيه مع الجند والرعية، والنهج الذي ينبغي أن يتبعه في حياته في كل المناسبات.

وفي الثاني من شوال سنة 771 هـ كنت في الخامسة والثلاثين من العمر خرجت من بلخ في لحظة ميمونة، وقصدت العاصمة سمرقند. وفي اليوم الأول أقمت معسكري على ضفاف نهر جيحون، على مسافة سبعة فراسخ، ومضيت أروّح عن نفسي إلى أن تصل أسرتي وتلحق بنا أمتعة الجيش الثقيلة.

وفي إحدى الاجتماعات التحق بي الشيخ حسين الصوفي[1] [صفي الدين الأردبيلي] الذي ورد من خراسان، فسألته «كيف يكون عقاب العلي القدير للطغاة يوم الحساب؟» فأجاب: «قد أعلمهم الله عن طريق أنبيائه أن يفكروا في آلاء الله وألا يفكروا في ذات الله فيهلكوا، أفليست هذه إشارة كافية تنبئ بمآل الطغاة؟ لسوف ينزل بهم تعالى عدالته في هذه الدنيا وفي الآخرة». ثم أضاف: «وعقاب الملك الكافر إن كان عادلاً أقل من العقاب الذي سينزله تعالى بملك مسلم لكنه ظالم؛ كذلك عذاب الكافر الكريم دون ما سينزل بالمؤمن الجشع».. فلما سمعت هذه الكلمات عزمت على أن يكون ديدني إحقاق الحق والبذل.

ولما التأم شمل قومي والتحقوا بمعسكرنا اجتزت نهر جيحون، وأقمت معسكراتنا في سهول كش، وتوقفت هناك لبعض الوقت؛ لأن الأعيان وكبار أهل المدينة وشيوخ القبائل والعشائر ومعهم كبار رجال الدين والعلماء كانوا في انتظاري لتهنئتي بالعيد وتقديم الهدايا.

وفي ذلك اليوم - وكان الجمعة - مضيت إلى المسجد الجامع، وأديت الصلاة وسط حشد عظيم من المصلين، ثم أُلقيت الخطبة من منبر المسجد الجامع في سمرقند التي غدت عاصمة ملكي، وكانت حافلة بالدعاء لي بالتوفيق. لكنّ الخواجا عبد الله الذي كان مشهوداً له بسعة المعرفة رفض أن يشارك في الدعاء. وفيما يلي حكاية رويت في الصفحة 12 من كتاب البشائر والأخبار.

---

(1) صاحب الكرامات الشهير الذي ورد ذكره في الملحق7. انظر أيضاً ماده صوفي SUFY في قاموس ريتشارد سون للغة الفارسية.

وبناء على هذا التوضيح المتعلق بالنبي أمرت ببناء مسجد كبير آخر في سمرقند، وخانقاه، وبيوت للدراويش وعباد الله الصالحين من المسلمين.

الفصل الثالث

بعد اعتلائي العرش في عاصمتي سمرقند أسست مجلساً، ووضعت أنظمة الإدارة لحكومتي، ثم أمرت بوضع إعلان عام يقضي بأن يبين كل من له مطلب دعواه. وقد أغدقت العطايا على كل من عرفته منذ طفولتي حتى الآن، وكذلك كان أمري مع كل من عرفت صديقاً أم عدواً حتى طوقت أعناقهم بالجمائل.

كنت قد أصدرت إلى كل العاملين لدي الأمر بألا يتصرفوا بأي حال بعكس الأوامر التي أصدرها، وأنه سيقع العقاب على كل وزير أو مسؤول إن انحرف عن هذه القاعدة، لأن أحد حقوق الأمراء أن تكون كلماتهم قانون البلاد.

وأصدرت الأمر بوضع قانون يحدد ما يُدفع للقادة والجنود من بدلات إطعام، وهناك قوانين أخرى تحكم الألقاب ورتب كبار القادة العسكريين والوزراء لتكون بمثابة الأوامر والتوجيه لسلوكهم. وبناء على ذلك وجهت إلى تدوين الأنظمة[1] التي تحكم عقد المجالس العامة في أيام السلم، ومناورة الجيوش في الميدان في أثناء الحرب، وتلك التي تحكم سلوك جنودي حيال الرعايا أمثالهم.

وحددت في أول اجتماع للمجلس هبات الأراضي الممنوحة لأغراض الخير، وجعلت الشريف عبد الله المشرفَ على هذه المؤسسة، وكبير هيئة الأشراف، وأسميت شيخ الإسلام الشريف عبد الرحمن رئيساً لدائرة القضايا الدينية، والشريف ضياء الدين كبيراً للقضاة؛ وأمرت بأن يجلس السادة الأشراف والمشايخ والعلماء إلى يميني في كل المناسبات.

لكن قامت بين هؤلاء مشكلة، إذ اختلف الأشراف والمشايخ في أمر التسلسل، أو في موضوع من يكون الأقرب إلى كرسي العرش، وفي هذا الأمر احتدم الخلاف بين الطرفين، وطال وامتد، وثار صخب عظيم، فعجبت لهذا الخلاف عجباً شديداً.. لكنني حرصت- على أي حال- على ألاّ يُعامَل الأشراف معاملة سيئة أو ينال من مقامهم أمر، ومنعت ملاحقتهم، وحظرت إنزال عقوبة الإعدام بهم، وبات قانوناً أن يُعاقب أشد العقاب كل من يتعرض لهم بسوء [2].. وأذكر أن أحد كبار الأشراف والعلماء ويدعى أبا المعالي قد دأب على معارضة طموحاتي، ولم يأل

---

(1) انظر شرعة ديفي ص 231 والتتمة، وكذلك ص 305.

(2) يضعنا الملك صاحب المذكرات هنا - كما في أمثلة سابقة- في حالة شك من النتيجة.

جهداً للإضرار بمسيرتي، فقابلته بأشد الاحترام والتوقير، مما جعله يخجل لسلوكه في الماضي ويطمح إلى عفوي؛ فضربت صفحاً عن مسلكه مرضاة للرسول صلى الله عليه وسلم .

ولما اتخذت مكاني في المجلس تقدم موفد السيد علي والي مزندران، وسلمني كتاباً من مولاه. وبعد جلوسه لبعض الوقت سأله السيد أبو البركات عمن هو مولاه وإلى أي أسرة ينتمي؛ فمضى الموفد فوراً في عرض سلالة الوالي ونسبه إلى علي صهر النبي، وأعلن أنه إنما أوفد ليتعرف إلي؟ فقلت له: «أما وقد علمت من خبري ما علمت، فما هو رأيك؟» فرد قائلاً: «قد وجدتكم تؤثرون العدل على العنف، والحق على الباطل، والفضيلة على الرذيلة، وتجلون آل بيت محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك برهان جلي على أن النصر والمجد لا ريب يرافقان نجمكم وأنتم تؤازرون دين الإسلام». ولقد أثنيت على السفير ومواهبه وذكائه، كما أطنب السيد أبو البركات في مدحه، وأعلن أني لابد منتصر والفلاح حليفي طالما ثابرت على نهجي، فالجهل والابتعاد عن طريق الدين، والانغماس في الرذيلة والطغيان، إنما هي الأسباب المؤدية إلى خراب الحكم.

وفي هذا المجلس منحت الأمير داود حكم سمرقند، وسلمت الأمير جاكو وعدد من القادة الراية، وجعلت حسين برلاس رئيساً للمجلس، كما جعلت آيك تيمور حامل الختم الكبير، ثم وزعت المناصب الأخرى جميعها بين أصدقائي. وقد أصدرت الأوامر بألا يجبي الخراج والضرائب من سكان سمرقند وبخارى أو توابعهما، وأعلنت مرسوماً عاماً بإسقاط كل ادّعاء على هذه المناطق.

الفصل الرابع

كان أول سوء طالع صادفنا في بداية عهدي ثورة الشيخ زنده خشم التي اقتضت مني بذل كل طاقتي لقمعها. وكنت قد ذكرت أني ثبت كل الولاة الذين اختارهم الأمير حسين قبل مصرعه، وكان أحد المناصب المهمة ولاية شيرغان التي يتولاها زنده خشم، إلاّ أن وزرائي لم يكونوا يجدونه جديراً بالثقة، وقد أشاروا علي بإزاحته عن منصبه، فقلت لهم يومئذ: «إني وعدت بمنح كل شخص، صديقاً كان أم عدواً الأمن والسلامة، طالما التزم حسن السلوك».. لكن سرعان ما شق زنده خشم عصا الطاعة، وأظهر العصيان بأن أعلن حمايته للأمير موسى الذي كان قائد جيش حسين وانتقل إلي. ولما خرجت إلى بلخ رافقني في أول يوم في المسيرة، لكنه فرّ واتجه إلى تركستان. بيد أنه حين سمع بموت الأمير حسين أرسل إليّ يعتذر لمسلكه هذا سائلاً المغفرة، فأجبته مطمئناً بضمان سلامته؛ لكن الرجل كان مخادعاً شاكاً بالآخرين، ومع ذلك فقد

عانى كثيراً وهو يتجوّل في الصحراء، وقد طاردته قواتي مراراً، وكان له من الوقاحة والصفاقة ما جعله يُشيح بوجهه عن المرسوم الذي أرسلته إليه مقروناً بوعد بملجأ. ولما كان قلبه ممتلئاً حقداً فإنه سعى مرة أخرى إلى الحرب، فكسرته وهزمته من جديد، فالتجأ مع عائلته إلى زنده خشم الذي رفع راية العصيان الآن وبدأ يتصرف على نحو سيئ.

لما علمت بهذه الوقائع لم آبه بالأمر، وتظاهرت بالجهل بما يجري، حتى إنني لم أكن أذكر أسماءهم أو أتناول الأمر بخير أو بشر. بعد حين قال لي الأعيان: «لقد بات من اللازم أن تخرج لتطويع هذين المتمردين».. فأجبت؛ «إن خرجت إليهما فسأكسبهما أهمية في أعين الرعايا، وهما دوننا بكثير؛ فإن تهيأ لهما أن يتحدياني فلسوف أنتصر عليهما، ولكن أي مجد في هذا، إذ سيقال عندئذ أني أنزلت عقاباً باثنين من رجال الأمير حسين، ولكني سأستدعيهما إلى قصري، فإن جاءا انتهى الأمر، وإلا عُدّا من العصاة، وبرهنا على عدائهما، وعندئذ لن يشق علي أن أنزل بهما العقاب».

وبناء على هذا القرار بعثت أدعو زنده خشم، وقد حمل الدعوة الأمير ألجايتو. ولدى تلقيه أوامري استقبل موفدي بمنتهى الاحترام، واستعان بكثير من عبارات الإطراء، وتعهد بأن يزورني فوراً. وعلى ذلك عاد ألجايتو وأخبرني بالنجاح الذي صادفه، لكني قلت له إني أخشى أن يكون قد وقع ضحية خدعة، وتبين أن ذلك ما حدث فعلاً.

صادف بعد ذلك بقليل أن بيرام شاه أرلات الذي ترك الأمير حسيناً ودخل خراسان قد بلغه نبأ وفاة مولاه، وأنني اعتليت العرش، وكان في طريقه ليقدم لي احترامه، لكن زنده خشم اعترضه واستوقفه متظاهراً يومئذ بالرغبة في استضافته، ثم قبض عليه واحتجزه [1].

لما بلغني النبأ أرسلت في طلب زنده، وكان رسولي إليه طابان بهادر، ولكن ذلك الوغد الوقح عمد إلى اعتقال موفدي، مما أشعل نار الغضب في نفسي، فأصدرت عندئذ أوامري بأن تنصب الخيام على الطريق إلى شيرغان. لما وصل النبأ إلى زنده خشم خشي وقوع الأسوأ، فلجأ إلى الحصن الأبيض في شيرغان، وكتب إلى الأمير ألجايتو راجياً العفو مني، وأرسل إليه كفناً وسيفاً بتاراً ليلقي بهما أمامي رمزين لحال مضى، ثم ما هي إلا بضعة أيام حتى بعث إلى سمرقند بأخيه الأصغر إسلام والأمير موسى (وكلاهما سلكا حيالي سلوك الغدر) مغلولي العنق واليد.

عفوت فوراً عن الأمير موسى، وأوليته زعامة قبيلته، لكن وزرائي أبدوا المعارضة على هذا القرار بحجة أنه لا يستقيم أن ينال خائن حقير مثل هذا الشرف، فأجبت «إن كثيراً من شيوخ القبائل الناقمين والعصاة سيجدون في هذا السلوك ما يحملهم على الانضمام إلينا».. والواقع

---

(1) يبدو من مطالعة تاريخ شرف الدين أنه قتله.

أن توجيه الأمير موسى على النحو المذكور كان خدعة من زنده خشم ليتعرف إلى حقيقة موقفي إن كنت مسامحاً أم حقوداً.. ولذلك وثقت بصدق تأكيداته، ولبثت في عاصمتي هادئاً لا أبدي حركة.

أما الاضطراب الثاني الذي رافق بداية عهدي فكان حين وضع زنده خشم قدمه على طريق العصيان ولم يهتم بأنني قابلت جرائمه بالعفو، حيث أشهرت قلم العفو وصفحت له عن تصرّفاته الشريرة، إلاّ أنه بناء على حثٍّ من طلاب الشيخ أبي المعالي الترمذي وأتباعه من العلماء عاود سيرته الأولى ووضع قدمه من جديد على درب العصيان، ومضى يسعى في إثارة القلاقل في وجه حكمي؛ فجمع جيشاً وراح يعمل نهباً وسلباً في القبائل والعشائر التي تسكن ضواحي بلخ وترمذ.

حين بلغني خبر هذه الواقعة أصدرت أوامري للقادة الذين كانوا في الحاشية بالمسير فوراً مع قواتهم وألا يتوقفوا لأي سبب، والهجوم على زنده خشم وإكراهه على إعادة كل المنهوبات والأسلاب. كما أرسلت مجموعتين أخريين؛ إحداهما ناحية الميمنة والأخرى ناحية الميسرة لتطويقه، أما جيشي المظفر الذي زحف بسرعة كبيرة فقد داهم مؤخرة قوات زنده خشم وهم يعبرون نهر جيحون على جسر من القوارب، مما أدى إلى غرق عدد منهم في النهر، أما أولئك الذين عبروا إلى الضفة الأخرى فإنهم إما لقوا مصرعهم وإمّا أصيبوا بالجروح، واستولينا على قطعان الماشية.

بعد هذه الواقعة فرّ زنده خشم هارباً، ومضى أرغون شاه في أعقابه حتى شيرغان تقريباً. لكن ما إن وصل المتمرد واستقرّ في القلعة حتى أخذ بتحصينها، فكتب إليّ قائد الحملة يخبرني بأنه يطوق القلعة، وطالب بإرسال تعزيزات، وطمأنني بأنه سيأتي إليّ بالمتمرد مغلول اليدين والرجلين. ولما بلغتني هذه المعلومات أهديت الأمير جاكو سيفاً بتاراً وبزّة تشريفات، وقدمت له حصاناً، وأرسلته على رأس قوة كبيرة لدعم القوات التي تطوق القلعة.

ولقد سار الأمير جاكو بقواته بسرعة عظيمة، ثم ضرب حصاراً على شيرغان، لكن ما إن حل الشتاء حتى لم يبق أمامه سوى ثلاثة أشهر لحصار المكان، ومع انتهاء هذه المدة كانت الحامية تعاني من شحّ المؤن، فطلب زنده خشم إلى الأمير جاكو أن يسعى عندي لأمنحه العفو، وحين اطمأن إلى نيله الرحمة خرج من القلعة وتابع طريقه إلى سمرقند. وحين اقترب من المدينة أمرت كبار رجال الدولة وقادة الجند بالخروج للقائه وإبداء آيات الاحترام والتكريم.

ولما أُحضر إلي والسيف معلق برقبته كانت حاله مزرية، وهو يتوقع مني أن آمر بإعدامه؛ إلاّ أنّني قلت له عندئذ: «يا زنده خشم! في مقدوري أن أقتلك أو أرمي بك في غياهب السجن

مدى الحياة، لولا أني أراك شاباً شجاعاً، لذلك فإني أسامحك على ما كان منك، شرط أن تبعتد عن هذا المنحى في مسلكك، وألاّ تأثم في المستقبل، وألاّ تدع نفسك يسيّرها أهل الضلال، وحسبك أن تمضي الآن إلى عشيرتك وتأتيني منهم بالطاعة والخضوع». فأجابني بكثير من الحماس: «عهداً عليّ أن أكرس لسموكم حياتي». عندئذ خلعت عليه حلة التشريفات، وضممته إلى أعواني، فمضى فوراً وعبر نهر سيحون.. وما هو إلا وقت قصير حتى أقنع قبيلة تيمور بقبول سلطتي، وجاء بكبارهم إلى قصري، وكافأته على ذلك فجعلته والي شيرغان[1]، ووليت كبك تيمور زعامة قبيلة تيمور [2].

كان الاضطراب الثالث الذي وقع عند بداية عهدي تمردَ كبك تيمور، فقد رفعت هذا الشخص من مرتبة منخفضة جداً، لكن ما إن وجد نفسه صاحب سلطة حتى كشف عن وضاعة أصله ونكرانه الجميل، بل شق عصا الطاعة وأعلن العصيان، ثم حشد جيشاً كبيراً. لذلك رفعت رتبة بهرام جلائر (وكان هذا قد قضى فترة مجللاً بالعار لسوء سلوكه في طشقند، إلا أنه تطوّع لجلب كبك تيمور مغلولاً مكبلاً ليمثل أمامي) فأرسلته مع الشيخ علي وخطاي بهادر وقادة آخرين لإنزال العقاب بكبك تيمور.

ولقد صادف أن كانت هناك جماعة تضيق به من قبيلة جلائر التي ينتمي إليها، وراحت تتربص به تريد قتله، فاضطر حين اكتشف أهداف هذه الجماعة إلى اللجوء للشيخ علي. وفي هذه الأثناء ظهر في الأُفق الجيشان، إلاّ أنه كان يفصل بينهما نهر عائشة خاتون. لما بلغ الجيش الملكي ضفة النهر سمع خطاي بهادر ملاحظة من قائده عرّض فيها بشجاعته فأغضبته، فامتشق سيفه واندفع دون مرافق يخوض بحصانه في التيار يريد انتزاع راية كبك تيمور، لكن سرعان ما وجد نفسه مطوقاً بجنود الثائر. كان الشيخ علي وقواته قد اجتازوا النهر في تلك الأثناء، فاشتبكوا مع قوات العدو الذين ضايقتهم شدة الهجوم، لكن حدة القتال انحسرت ليلاً، فهربوا في الليل وتبعثروا في كل اتجاه. عندئذ التفت الشيخ علي لعقد صلح مع كبك، ثم قفل عائداً إليّ بعد أن أنزل العقاب بالمتمردين في فرقة بهرام جلائر.

كان الاضطراب الرابع الذي وقع هو غزو المغول، وتفصيل ذلك أن زنده خشم والأمير موسى- على ما يبدو- كاتبا في أثناء عصيانهما خان المغول، وعرضا عليه أنه إذا ما تقدم على رأس جيش ودخل إلى بلاد ما وراء النهر فإنهما سيعتقلانني ويسلّمان له البلاد. ونتيجة لذلك عبّأ الخان الغبي جيشاً، ومضى يتقدم باتجاه ما وراء النهر. فلما تلقيت المعلومات بشأن هذه

---

(1) تقع في خط العرض 45 . 36 شمالاً.

(2) تختلف هذه الرواية عما ورد في التاريخ، انظر بيتي دي لاكروا ص 219.

الواقعة استقرّ الرأي عندي على أن أسبقهم إلى اللقاء، فزحفت من سمرقند وتقدمت مسرعاً حتى نيكاه لملاقاة المغول، لكن عندما بلغهم نبأ زحفي رأوا أن التراجع أقرب إلى الحكمة.

اجتمع في هذا الوقت أربعة من القادة وهم زنده خشم والأمير موسى وأبو ليث وأبو المعالي الترمذي، وكل واحد منهم مدين لي بفضل عظيم، واتفقوا على اغتيالي في أثناء رحلة للصيد بوساطة الصقور، أو حين أفتش عن الطرائد. وهكذا فقد باغت هؤلاء الفرسان الأربعة مرافقيّ وأنا أمتع نفسي بالصيد، وعلى ذراعي صقر، فوضعت الطبل الصغير الذي كنت أحمله بيدي على رأسي فوراً متخذاً إياه خوذة، وأطلقت الطائر، وجرّدت سيفي، وصحت بهم بأعلى صوت.. فلما سمعوا صوتي هلعوا وحاولوا الفرار، لكنّ مرافقيّ أدركوهم واعتقلوهم.. وعندئذ أصدرت الأمر بسجنهم، ثم تابعت الصيد.

وعند عودتي إلى العاصمة سمرقند دعوت إلى اجتماع المجلس العام لشيوخ القبائل والعشائر والعلماء والأشراف، ثم أمرت بأن يمثل السجناء الأربعة أمام المجلس، وقلت لهم: «ما هو العقاب الذي يجب أن ينزل بجماعة من المتآمرين يريدون قتل مسلم»؛ فأجابوا «العقاب الذي نصّ عليه القانون، إنما العفو أفضل إن كان ذلك للمرة الأولى». فالتفت عندئذ إلى أبي المعالي وقلت له: «قد علمت أني مسلم وأني على شرع النبي، فكيف تدّعي إذاً أنك من سلالته وتجرؤ على التآمر على حياتي؟ لكن كرمى لمكانة النبي سأعفو عنك».

والتفت بعد ذلك إلى أبي ليث قائلاً: «قد عفوت عنك أيضاً لأنك شيخ (يقصد بذلك أنه من سلالة العرب)» ثم صرفته من المجلس وتحولت إلى الأمير موسى قائلاً: «أنا وأنت قريبان بفضل المصاهرة [1]، وقد قطعت على نفسي عهداً بألاّ أقطع صلة لي بقريب، ولذلك لك مني العفو».. أما بما يخص زنده خشم فقد وليت ميان تيمور حكومة شيرغان وسلمته السجين ليقضي فيه ما يريد.

كان مدار الاضطراب الخامس الذي وقع في عهدي النزاع مع حاكم خوارزم حسين الصوفي [2]، وكما سبق العرض في مجلسي فقد أظهر حسين الصوفي علامات العداء بارساله قوات لتتولى السلب والنهب في منطقتي، وتلقيت في ذلك الحين وفوداً من كبار رجال الدين وكبار أهل خوارزم حاملين شكاوى على حاكمهم، معلنين أن بلدهم ومنطقتي خيوك وكات كانت في ملك أسرة جغطاي منذ أقدم العصور، لكن حسين الصوفي استولى على المملكة حين وجدهم بلا زعيم، ومارس الطغيان الشديد والاضطهاد تجاه السكان، وبالتالي فمن واجبي أن أخلصهم من ربقة الظالم.

---

(1) كان تيمور قد تزوج بأخته سراي الملك خانم، وهي أرملة الأمير حسين، وابنة قازان خان.

(2) مملكة واسعة على الساحل الشرقي لبحر قزوين.

وعلى أساس هذه المعلومات، أخذت أقلّب الأمر على وجوهه إن كان يجدر بي أن أمضي مباشرة لأخلّص خوارزم بنفسي من قبضة حسين الصوفي، أم أن أوجه جيشاً بإمرة شخص آخر.. لكن العزم الذي صدر من صميم قلبي أملى عليّ أن أوجه قيادة جوادي نحو خوارزم، لكن عقلي لم يكن مطمئناً إلى بدخشان، فجعلت الأمير جاكو على رأس حكومة قندوز وبوكلان وحدود كابل، وأرسلت معه جيشاً ضخماً لحماية هذه المناطق.

الفصل الخامس

1371 م: بعد أن اتخذت الاحتياطات اللازمة للدفاع عن المناطق التي تحت حكمي عينت الأمير سيف الدين والياً على سمرقند. وفي سنة 773 هـ التي هي السنة الثانية من عهدي، وكنت يومئذ في السابعة والثلاثين من عمري، خرجت وأنا عازم على إخضاع خوارزم. وحين بلغت ضفة نهر جيحون توقفت هناك، وانضم إليّ عندئذ موفد الملك غياث الدين، وهو ابن المرحوم عز الدين حاكم خراسان والغور وغرجستان وخلفُه حاملاً هدايا من مولاه. وقد قابلته بحُلّة التشريفات، وبهدايا كثيرة للسفير، وبعثت برسالة تعزية وتهنئة للملك غياث الدين.

وفي هذا الوقت بلغ إلى مسامعي أن قوات حسين صوفي دخلت بلاد ما وراء النهر وانتشرت جموعهم لنهب السكان.. وبناء على ذلك أصدرت الأوامر إلى فرقتي بالزحف فوراً لاعتراضهم، وقد نفذوا الأمر بهمة عظيمة، مما جعل العدو يولي الأدبار عند أول هجوم، وأسرنا عدداً كبيراً من الجنود. أما أولئك الذين نجوا فقد لجؤوا إلى قلعة الكات التي كان حاكمها يدعى بيرم يوسافول والقاضي الشيخ مفيد، وقد اعتصما معاً في القلعة. أما جيشي المنتصر فمضى يتابع الفارّين، ثم أحكم حصار القلعة.

ولما تلقيت هذه المعلومات وضعت قدمي في ركائبي ومضيت بسرعة، وبلغت أخيراً خندق القلعة حيث ترجلت، وحين رأى جنودي هذا نزل الفرسان جميعاً وسارعوا إلى شن الهجوم. ورمى الشيخ بهادر حبلاً بأنشوطة إلى فرجة في أعلى السور، وبوساطته كاد أن يبلغ أعلى السور، لكن الحامية ردت إلينا التحية هذه المرة بسيل من السهام قطع أحدها الحبل، فهوى بهادر إلى أسفل السور رأسياً، لكنه استعاد توازنه وعاد فرمى الحبل ثانية، ولما كان يسنده جهان بهلوان فقد أمكنهما ارتقاء السور، فأمرت عندئذ بقرع الطبول، فشنت القوات التي تخضع لي هجوماً شاملاً، واعتلى الجنود السور، وتمكنوا من أعلى الشرفات. لما رأى الحاكم هذا المشهد صاح طالباً الرحمة، فمنحته إياها، لكن صارت ثروات القلعة وما فيها مستباحة لكل الجنود.

أمضيت ثلاثة أيام في كات، ثم أرسلت في طلب غياث الدين وألجايتو وفرقتين لتطويق

جناحي جيش حسين صوفي، بينما وجهت إليه القوة الأساسية في جيشي بقيادة كيخسرو ختلاني، ثم أوعزت بضرب الطبول، وامتطيت جوادي المطهم، ومضيت في المسير بسرعة شديدة، ثم دخلت سهول خوارزم. حين رأى حسين صوفي جحافل جيشي المظفر أرسل إليّ سفيراً يسألني الصفح، وقال إنه لن يقدم في المستقبل على تجاوز حد الطاعة قط. ومع أنني لم أكن لأثق بوعوده فقد منحته العفو، لكني أردت اختبار صدقه، فقلت لكيخسرو: «من المستحيل أن تتخلص البلاد من العصيان مادام حسين مالكاً لقلعة خوارزم». فما كان من كيخسرو إلا أن بعث برسالة خادعة ينصحه فيها بألا يثق بوعودي وألا يغادر القلعة، لكن إذا كان يريد الانسحاب بجيشه والخروج على رأسه فإن كيخسرو سينضم إليه مع كل قواته.

ولقد وقع أمير خورازم في الفخ الذي نصب له، فسار ومعه جيش ضخم، وتقدم نحو ضفة نهر كاران التي تبعد فرسخين[1] عن القلعة، ثم اتخذ تشكيل المعركة. كان كيخسرو في تلك الأثناء يمكث في انتظاري، فقال: «خدعت العدوّ وجئت بالضحية إليك»، فوجهته للمسير ومعه جنده، وقطع وسائل الاتصال مع القلعة، وأمرت بقرع الطبول، وامتطيت حصاني، وتقدمت نحو العدو، وأخذت في تلك الأثناء أتحقق من خطة الهجوم. فأمرت الأمير مؤاوي بالمضي بفرقته إلى أعالي النهر وعبوره، وأرسلت خطاي بهادر في الوقت ذاته إلى أسفل النهر لينجز ممرّاً فوقه، وأمرت آق تيمور بالعبور مع فرقته أمام العدو؛ وقد خاضت الفرق الثلاث بالأحصنة في النهر، وبلغت الضفة المقابلة بسلام، إلاّ إيلشي بهادر الذي سقط عن جواده وغرق. وحين همزت جوادي أحثه على دخول الجدول أمسك محمد سلدوز بركائبي وتوسل إليّ ألا أتابع الطريق، وعمد في الوقت ذاته إلى الإمساك برايتي واندفع يخوض في النهر. فاندفعت فرقتا الميمنة والميسرة حين شاهدتا رايتي إلى الهجوم بشدة على العدو، فدار عندئذ قتال عنيف بين الجيشين، وبلغ القتال حداً جعل الرجال يشتبكون بالسكاكين والخناجر، ويمسك بعضهم بخناق بعض وهم على ظهور جيادهم. فلما رأى حسين صوفي حرج الوضع الذي كان عليه جنوده هرب إلى القلعة، فالتفت جنودي المنتصرون إلى تطويق القلعة، وما هو إلا حين حتى دفعوا بالمنجنيقات إلى مسافة قريبة جداً منها للتضييق على الحامية؛ وقد بلغ الذعر بحسين صوفي في أثناء هذا الحصار إلى درجة أنه أودى بحياته بعد حين.

بعد موت حسين خلفه أخوه يوسف صوفي الذي بعث إليّ بسيفه فوراً، معرباً عن حزنه للظروف والأحداث التي وقعت، مبدياً تأكيداته على ولائه لي والتزامه. وقد عرض عليّ فوق ذلك زواج أحد أولادي بابنة شقيقه التي كانت من سلالة خان المغول؛ لتقوية أواصر العلاقة

---

(1) ستة أميال.

العائلية التي من شأنها أن تربط بيننا. وإذ وقع هذا العرض موقعاً حسناً فقد أبديت موافقتي، شرط أن يبقى وكلاء ابني جهانكير في مناطق خوارزم لتحصيل الخراج. بعد أن أصدرت مرسوماً بهذا المعنى اتجهت بجوادي نحو سمرقند، ولما بلغت تلك المدينة وجهت إلى نشر سجاد العدل والسعادة.

اكتشفت في تلك الأثناء أن الأمير كيخسرو الختلاني قد أحكم الحصار حول خوارزم، وأجرى مراسلات سرية مع حسين صوفي وشجعه على التصدي لي، مع العهد بأن ينضم إليه. وبناء على هذه المفاوضات، ومع تجديد المراسلات، فقد جازف يوسف صوفي بإبعاد وكلاء جهانكير، ورفع مستوى العصيان. وكان هذا سادس اضطراب يحدث في عهدي، ومردّ ذلك كله ضعف ولاء كيخسرو الذي كانت مطامعه تدفع به لطلب الاستيلاء على المُلك. وبناء على ذلك أرسل عميلاً له يدعى شاه محمود ليعقد معاهدة سرية مع يوسف صوفي، وقد اتفقا بمقتضاها على التعاون للقضاء علي. والحق أني كدت ألاّ أصدق ما بلغني حين تلقيت نبأ هذه المؤامرة إلى أن أظهر لي أحد عملائهما نسخة من الاتفاقية، لكنني حرصت على أن يبقى الأمر سراً.

1372 م: وفي سنة 774 هـ وكنت في الثامنة والثلاثين من عمري غادرت سمرقند بدعوى رغبتي في الخروج للصيد، بينما كنت أعتزم الهجوم المفاجئ على منطقة خوارزم، والانتقام من يوسف صوفي والخائن كيخسرو. فلما بلغت سهل قارشي أمرت بعقد اجتماع عام يضمّ الأعيان ورجال الدين ليمثل كيخسرو أمامهم. وأخرجت عندئذ المعاهدة السرية، ودفعت بها إلى يده، وطلبت منه أن يقرأها. فلما رأى الوثيقة وخاتمه عليها بدا مُحرَجاً، وأحنى رأسه لشدة خجله. ولقد راودني شعور بالعطف على الرجل وأنا أراه في هذه الحال، لكنّه وفّر عليَّ ألم إصدار الحكم، حين قال: «قد ارتكبت ذنباً وحقَّ عليَّ كل عقاب تأمرون به يا مولاي». وبناء عليه فقد عزمت على منح (طومان) قبيلة ختلان، إلى محمد بن شير بهرام، وقدرت أنه نظراً للعداء الكبير القائم بينهما لن يكون هناك عقاب أشد من ترك أمر كيخسرو إلى محمد ليفعل به ما يشاء، وهذا ما كان [1]. وهنا غادرت المجلس، وامتطيت حصاني، وتابعت الطريق إلى خوارزم.

عندما عبرت صحراء خوارزم كان يوسف صوفي قد بلغه خبر المآل الذي انتهى إليه شريكه، وخبر وصولي كذلك، فأرسل سفيراً ليرجو القادة وابني جهانكير التوسط للعفو عنه. وأرسل كذلك ابنة شقيقه خان زاده التي خُطبت لجهانكير، ومعها حاشية عظيمة وهدايا كثيرة تنتظرني. ولقد كانت الأميرة الشابة على قدر رفيع من حسن البلاغة والحديث، فقد خاطبتني عند لقائنا الأول بقولها: «إن الإمبراطور العظيم يساوي بين الناس في رحمته، والملوك عنده والمتسولون

(1) تعمد تيمور أن يهمل هنا النتيجة؛ وهي موت السجين.

يومئذ سواء، فهو لا يشتدّ في نقد مسالكهم، وإن أخطؤوا يأخذهم بالرحمة؛ لأن العدو إن طلب العفو لم يعد يعتبر عدواً، كذلك الملك العظيم إن رفع امرأً فإنه لا يحط من مقامه، ومهما منح فإنه لا يطلب أي مقابل، كذلك لا يعتمد الملك ضمنياً على صداقة أيٍّ كان، ولا يعادي أي إنسان، بل يعتبر الأمرين كلاهما ليسا جديرين باهتمامه». ولقد سألتني عندئذ أن أمنح العم العفو بناء على هذا الخطاب، فمنحتها خوارزم بائنة لها ليقوم على إدارتها يوسف صوفي باعتباره ممثلاً لابني جهانكير ثم قفلت عائداً إلى سمرقند، وأوفدت بُعيد ذلك الأميرين يادغر برلاس وألجايتو ليأتيا بالعروس خان زاده من خوارزم. وقد استقبل يوسف صوفي هذين النبيلين بأقصى قدر من الاحترام، وأعرب عن طاعته لي وانصياعه، وقدّم لكلٍّ من السفيرين الهدايا القيمة، وأقام على شرفهما مأدبة كبرى. وما هي إلا أيام معدودة حتى سمح لهما بالمغادرة مع العروس ومعها جهاز مناسب.

وحين بلغت الأميرة أطراف سمرقند وجهت عدداً من أهم السيدات في عائلتي ومعهن عدد من كبار قومنا لاستقبالها؛ لتدخل المدينة بأعظم مواكب الشرف والتكريم. كذلك أمرت الزعماء والأشراف وكبار رجال الدين أن يكونوا في استقبالها، وفي حضور هؤلاء جرت مراسم الزواج وفق تعاليم الإسلام، حامدين الله وشاكرين له كل نعمه.

الفصل السادس

1373م: في سنة 775 هـ وكنت يومئذ في التاسعة والثلاثين من العمر بلغني أن قمر الدين المملوك والقائد العام لجيش خان المغول أشهر سيفه وقال مقسماً: «بقوة هذا السيف سأنتزع من الأمير تيمور مملكة ما وراء النهر». ولما سمعت هذا ثارت ثائرتي، ولم أعد أستطيع النوم. وعلى الرغم من أن الطقس في ذلك الوقت يغلب عليه البرد الشديد فقد نهضت وامتطيت حصاني، وخرجت بجيش عرمرم، حتى بلغنا محطة القوافل قطفان. كان البرد قارساً جداً، ولكن رجالي جمعوا لنا حطباً كثيراً، ومضينا نشعل النار، وراحوا يسخّنون مؤنهم. لكن الثلج أخذ يتساقط لسوء الحظ ويعصف بشدة، فغدت البهائم في ضيق شديد، ومات كثير منها. وهنا أتى إليّ قادة الجيش وكبار المرافقين، وبعد التحية أخبروني بأن عدداً من أتباعنا ودوابنا قد ماتوا من شدة الشتاء، ولعل الأمر يكون أفضل لو أننا عدنا إلى سمرقند.

كنت قد عزمت من قبل على تدبير أكواخ للجيش والبقاء في البرية في أثناء الشتاء، فقلت للقادة: «ما كان يجدر بنا أن نخرج بحملة في هذا الفصل من السنة، ولكن لما كنا قد خرجنا فإنه سيكون من الضار لمصلحتي أن نقفل عائدين، ومفيد جداً أن نثبت حيث نحن، وحمداً لله أن

في المكان كل ما نحن في حاجة إليه، وعندما يعزم ملك على أمر يجب عليه ألاّ يحيد عن هدفه؛ وقد عزمت ألاّ أعود إلاّ بعد أن أجعل قمر الدين يندم على تبجحه أو آخذه أسيراً». وهكذا مكثت مُعسكِراً في الرباط أربعين يوماً، فلما تلاشى البرد أصدرت الأمر بأن يتولى الأمير جهانكير قيادة الفرقة الأمامية، لكنني أرسلت معه الأميرين محمد بايان سلدوز وعادل شاه جلائر على رأس قبيلة الجلائر، وحشد من القوات الأخرى [1].

حين وصل الأمير والقادة العظام إلى جارون علموا أن قمر الدين قد عسكر بجيشه في كورك توب في انتظار وصول التعزيزات. وحين سمع الأمير هذه الأنباء توكل على الله ومضى بجيشه في هذه الأحوال الصعبة، وانقضّ على جيش المغول في أثناء الليل. ذعر قمر الدين عندئذ أشد الذعر وانسحب فاراً لاجئاً إلى ممرّ يُعرف باسم «بركة الغوريّين».

لما طلع النهار أسرت القوات عدداً من أتباع العدو، وسلبوهم الكثير، ثم مضوا بعدئذ نحو الممرّ. وقد دافع المغول عن الممر في ذلك اليوم، لكنهم عمدوا إلى الفرار من جديد مع حلول الليل. وقد جعلنا عدداً من الجنود والكفار طعاماً لسيوف المسلمين وسهامهم.

وما إن بلغتني رسائل الأمير جهانكير حتى امتطيت حصاني ومضيت بسرعة كبيرة وانضممت إلى الفرقة الأمامية، كما أن الجنود أطبقوا على أتباع قمر الدين وأخذوا يعملون فيهم سلباً ونهباً.

وأصدرت من فوري الأوامر للأمير داود وحسين بهادر وبعض القادة بمطاردة الفارين، وألاّ يَدَعو لهم فرصة للراحة، أو حتى لالتقاط الأنفاس، وقد أقمت معسكري في تلك الليلة في باياك، وفي هذا الموقع بلغني نبأ غرق الأمير حسين بهادر المفجع في أثناء عبوره النهر، واعتبرت ذلك فألاً سيّئاً، لكنني أوعزت للأمير جهانكير بمتابعة قائد المغول واعتقاله. ولقد تابع الأمير مطاردته تنفيذاً لأمري، فوق التل وفي الوادي، واستولى على جماله وأمتعته كلها، وأكرهه على التشتّت في الجبال، وليس معه سوى سبعة أفراد، واستولى على النساء جميعهن ومعهن مجوهراتهن وحليهن.

كان الأمير شديد الحرص على اعتقال الفار، لذا لم يخفّف من مطاردته، ولكن نظراً إلى أن المنطقة مليئة بالأشجار والكهوف، فقد آثر أن ينزل عن حصانه ومضى يتنقل راجلاً، وبعد وقت بلغ نبعاً حيث كان بالقرب منه قمر الدين مستلقياً وقد أسند رأسه إلى حجر، ولم ينهض إلاّ بعد أن اقترب منه بعض رجالي. وبينما كان هؤلاء الرجال على وشك اعتقاله صاح شاب، وكان من أتباعه، إنما يشبهه أشد الشبه: «أنا قمر الدين!» فتركوا السيد وأمسكوا بالخادم، كما أقسم الخدم الآخرون كذباً أيضاً أن هذا الرجل هو قمر الدين المطارَد.. وفي هذه الأثناء كان قمر الدين قد تمكّن من الهرب والاختباء في أحد الكهوف.

---

(1) هذا يختلف كثيراً عما ورد في تاريخ بيتي دي لاكروا.

لما عاد ولدي المظفر منتصراً ومعه الأسرى إلى معسكري أحضرهم إلي، وهناك أعلن عدة أفراد من الذين حولي ممن كانوا يعرفون قمر الدين أن السجين ليس قمر الدين، مع أنه شديد الشبه به. كما أقرّ الشاب بأن امتنانه لمولاه للخبز والملح حمله على تكريس حياته ليكفل لقمر الدين دوام الحياة. فأثنيت على هذا الشاب، وحمدت له وفاءه وأطنبت، وقلت له: «أما أنك قد أثبت أنك خادم وفيّ فإني أعفو عنك بسبب هذا العمل الشهم الفاضل». وعندئذ أعرب قومي عن رغبتهم بالعودة إلى وطنهم، لكني أجبتهم قائلاً: «إن كنا قد اطفأنا النار فإن هناك جذوات ما زالت متّقدة». عندئذ وضعت قدمي في الركاب ومضيت إلى جبل شماك، ومن هناك تابعنا المسير إلى أزبيباري. كانت سهول أزبيباري ذات جمال خلاب حيث ابتدأ فصل الربيع توّاً، فأمضيت في هذا المكان الرائع شهرين، وأثناء ذلك كان حاكم المنطقة مبارك شاه قد نال شرف تقديم نفسه إلينا، وأدّى حيالي واجبات المضيف كلها؛ ورداً على ضيافته ولّيته زعامة قبيلة سلار أغلان، وقفلت عائداً إلى سمرقند.

الفصل السابع

1374م: من الأحداث التي وقعت سنة 776 هـ وكنت يومئذ في الأربعين من عمري ذلك العصيان الذي أثاره ساربغا وعادل شاه، وتفصيل الأمر أن هذين القائدين حين غلب عليهما العطف لسوء الحال الذي وصل إليه قائد المغول قمر الدين ذهبا وانضمّا إليه، ثم مضى هذا بعد أن وصلت إليه التعزيزات التي أرسلها خان المغول لغزو اندجان. وعند وصولهم إلى المكان تفرقوا وأخذوا ينهبون قبيلة القوزاق التي كانت في حماية عمر الشيخ [1].

رأى ابني أن الوضع يقتضي التراجع أمام العدو إلى الجبال، ولتنفيذ ذلك سحب جيشه وأظهر نفسه، ثم انكفأ إلى الوراء. كانت مناورته تعتمد على تنفيذ حركات محسوبة لاستدراج العدوّ من معاقله وقطع خطوط التراجع عليه، وقد جعل عدداً من المغول طعاماً لسيفه البتار. ومن ثم بعث عمر الشيخ إليّ برسالة يخبرني فيها بهذه الوقائع، فأصدرت الأوامر للجيش فوراً بالتجمع، وامتطيت حصاني ومضيت للانضمام إلى ولدي. ولما بلغْنا قرية أتباشي تلقيت معلومات تفيد بأن قمر الدين انسحب من مواقعه من جديد، لكنْ ثبت أن هذا التحرك كان إحدى خدعه، إذ إنه بعدما جمع فلول جيشه راح يكمن مع نخبة من قواته. نتيجة المعلومات المضللة التي وردتني عمدت إلى توجيه الشيخ علي وآق تيمور واثنين آخرين من القادة لمطاردة المغول بكل القوات التي لديهم. لكنّ هؤلاء القادة المخلصين لي جثوا أمامي على ركبهم وبينوا لي عزمهم على

(1) ثاني أبناء تيمور.

ألاّ يدعوني معرَّضاً للخطر بلا حماية، وهو أمر أثار غضبي عليهم. ونتيجة لذلك خرجوا لقتال العدو وتركوني، فما كان مني وقد أسفت للغضب الذي انتابني إلاّ أن تبعتهم عن قرب وليس معي سوى ثلاثمئة فارس.

حين غاب جيشي عن نظري خرج قمر الدين من مكمنه واقترب مني، ولقد استفزّ أتباعي مرأى العدو، وتأهّبوا له، وأخذت أشجعهم وأحثهم على الثبات، وارتديت درعي. لما رأى الجنود أني عازم على الموت أو النصر اتّحدت قلوبهم فنظّمتهم في ست فرق وقبعت أنتظر العدو.

وقد هاجمنا قمر الدين بعدما دفع بجيشه وأخرجه من مخابئه، يحمله على ذلك رغبته بالانتقام، ثم كاد أن ينال مني في الهجوم الثاني أو الثالث حين اقترب من موقعي، فأشهرت سيفي ووجهت ضربة شديدة إلى خوذته، فاختل توازنه، وفي تلك اللحظة التقط أحد خدمه لجام حصانه وأخرجه من المعمعة، وعندئذ بدأ جيشه بالهرب. لما انضمّ إليّ جيشي مضيت لمتابعة العدو، وفي نهاية الفرسخ الثامن أدركتهم، وأصدرت الأوامر عندئذ بتطويق قمر الدين، إلاّ أنه استمر في القتال ولم يتراجع حتى لم يبقَ إلى جانبه سوى سبعة من جنوده. والواقع أن حصانه أصيب بجراح ولم يتمكن من الحصول على بديل له، فترجّل عنه ومضى يختبئ لبعض الوقت بين الناس راجلاً، ثم خلع درعه واختبأ في جحر في كهف. وفي اليوم التالي جاءني الجند بحصانه، لكننا لم نتمكن من العثور عليه. وقد صار القادة جميعهم يؤكدون أنه قد رحل إلى العالم الآخر، لكني لم أكن لأتفق معهم في الرأي، فأمرت بمتابعة البحث في كافة الجهات، لكن لما كنّا لم نقع على أثر له فقد عزمت على العودة إلى سمرقند.

كنت قد خلفت ابني البكر الأمير محمد جهانكير مريضاً جداً في سمرقند، فأصبحت قلقاً جداً بسبب مرضه، وقد حلمت ذات ليلة بأني في قارب مع الأمير، وإذ بالقارب يغرق، وعندما حاولت التقاط يد ابني عجزت عن ذلك، فغرق في الماء.. ولقد أزعجني هذا الحلم كثيراً، وزاد من قلقي أني لم أتلقَّ أي خبر عن الأمير إلاّ بعد أن عبرت نهر سيحون.

حين بلغت ضواحي سمرقند رأيت عدداً من الأشراف وأعيان المدينة الذين خرجوا لاستقبالي وهم متّشحون بالسواد، ولما وقعت عيناي على هذا المشهد تأكّد لي أن المصاب الجلل قد وقع، فاشتدّ بي الضيق والحزن، وكانت الأصول والأعراف السائدة في الأسرة الملكية تحظر عليّ إبداء الحزن، لكني انقطعت للاعتزال عدة أيام وقد اشتد بي الحزن والأسى لسببين؛ أولهما فقداني ولدي الذي كان فتى لمّا يتجاوز بعدُ العشرين من العمر، وقد انتقل مبكراً من حياته إلى العالم الآخر؛ وثانياً وهو عندي حيف أن يخترم الموت مثل هذه الشجرة، وهي دعامة

إمبراطوريتي. إلا أني التمست العزاء لنفسي بغصنين أخضرين من فرع ولدي ما زالا مزدهرين، الأول هو الأمير بير محمد الذي منحته لقب والده، جهانكير [1]؛ والآخر محمد سلطان، وقد خصصتهما بمكان الشرف الرفيع في بلاطي. ولقد تأثر الأمير سيف الدين الذي كان المشرف على تعليم ولدي أشد التأثر بالنكبة التي حلت به، حتى إنه هجر العالم وتنسك.

الفصل الثامن

1375م: في سنة 777 هـ وقد بلغت الواحد والأربعين من عمري كان قائد المغول قمر الدين الذي أفلت من دوامة الموت قد وصل إلى مرفأ الأمان، ليكتشف بالتجربة أنه عاجز عن النيل مني، فعاد إلى بلاط خان المغول، وجند جيشاً ضخماً، ومضى يتقدم إلى بلاد ما وراء النهر. وفي ذلك الحين عندما لم يجد الأميران ساربغا وعادل شاه -وكانا قد فرا وتركا صفوفنا وانضما إلى قمر الدين، وأمضيا عامين في الطواف في جبال جراهوك- علاجاً لحالهما سوى العودة إلى بلاطي، فأرسلا إليّ رسولاً حملاه إقرارهما بأخطائهما سائلين مني العفو. فأرسلت عندئذ الخواجا كوكولتاش وإيلشي بغا ليُحضراهما أمامي. لما وصل عملائي أترار عاود عادل شاه سيرته الأولى، فهرب والتجأ إلى أكسوما [2]. لكنَّ الترك الذين كانوا يسكنون تلك السهول سرقوا كل ثروته وأملاكه... أما ساربغا الذي كان عدوي الصريح والمعروف فقد تقدّم برجولة ودخل بلاطي بجرأة عظيمة وسيفه معلق في عنقه، ولما دخل إلى حضرتي وضع السيف على الأرض، وقال: «هذا سيفي، وهذه عنقي فاقطعها، لكني آمل بكرمكم ياصاحب العظمة، لأني لم أعرف منذ أن تركت خدمتكم إلاّ العار وسوء الطالع، وعلى هذا عدت أدراجي إليكم». ولقد قابلته بالتشجيع، ووليته زعامة قبيلة الجلائر، وبما أنه رجل شجاع فقد صفحت عنه، وتعهد عندئذ بأن يكون دليل قواتي في الحرب على المغول.

أرسلت جيشي بإمرة ولدي عمر الشيخ لقتال قمر الدين، لكن بأوامر دقيقة بأن يُشاور ساربغا في كل أمر. وقد أشار علينا آق بغا قبل ذهابهما باللجوء إلى المباغتة نظراً إلى أن المغول يرصدون التحركات الغريبة مثل الغربان، فنصح بأن تتولى إحدى الفرق عملية التفاف لتكون عند مؤخرة معسكرهم، بينما تتولى الكتلة الرئيسة مهاجمتهم من الأمام. وعلى هذا الأساس أوعزت إلى ولدي عمر الشيخ الذي يرافقه ساربغا بالاصطدام بجيش المغول، بينما يلتف قطاي

---

(1) قاهر العالم.

(2) أترار هو الموقع الذي مات فيه تيمور، ويقع على نهر سيحون على خط العرض 44. ويقال إن أكسوما قلعة كانت تقوم على جبل، وتطل على سهول القبجاق، انظر بيتي دي دولاكروا ص 73.

بهادر ليعمل تدميراً في الحشود. ولقد بلغ عمر الشيخ مع القسم الأساسي من الجيش سهل خوراتو حيث بعسكر المغول في اللحظة التي كان فيها قمر الدين يجلس لتناول العشاء، وقد أصابه الذهول حين رأى الجيش الظافر يتقدَّم، ولم يعد يدرك ما حصل، فركب جواده وأدار وجهه نحو الصحراء، ولم يعلم أحد أين يتجه، لكن جيشه كله صار الآن مشتتاً في كل اتجاه.

وقد استمر عمر الشيخ في البحث عن الهارب في الصحراء ردحاً من الوقت، لكنه لما لم يقع على أثر له لوى عنان الحصان وقفل عائداً باتجاه سمرقند، كذلك كان شأن قطاي بهادر الذي نهب جيش المغول، فقفل عائداً لينضمّ إلى الأمير. وكان للجيش المظفر العائد إلى سمرقند شرف تقبيل السجادة الملكية.

وها قد اطمأنيت فيما يتصل بأمر قمر الدين، وعلمت أن تيمور بك بن أوروس خان القبجاق قد تقدم على رأس جيش من خمسة آلاف فارس وتوغل في المنطقة، وكانت تحتلها قبيلة جوجي، وأخذ يعمل في أملاكها سلباً ونهباً، وفرض على أميرها سليل العائلة الإمبراطورية توقتميش[1] خان أن يفرّ نحوي طالباً ملجأ. ولما كان من معارفي فقد أرسلت إليه من يحمل دعوتي إليه،[2] فأرسلت طومان تيمور للقاء الأمير، وزودته بالأوامر بأن يصطحبه معه إلى سمرقند، ويحيطه بأسمى آيات التشريف والتكريم، كما أعددت مأدبة عظيمة، وحشدت بين المدعوين كافة القيادات والأشراف والعلماء للقائه، وحرصت على الوفرة لينال الجميع الطعام والشراب، وخلعت عليهم ملابس الشرف، وقدمت لهم الهدايا من المجوهرات والجياد بحيث ينال كل واحد ما يستحق وفق مرتبته. ولما تأكدت من أن الجمع قد نال ما يُرضيه صرفتهم: فوداعاً، وداعاً.

هنا ينتهي الكتاب المسمى «تاريخ مبارك شاهي»؛ أي (تاريخ الملك المبجل) الذي يضمّ الأنظمة العسكرية التي وضعها تيمور شاه صاحب قراني. (انظر: الملحق 9)

(1) كان يتحدر من جنكيز خان من ناحية ابنه البكر جوشي، وتولى عرش القبجاق عند وفاة أوروس خان سنة 778هـ – 1376م. انظر تاريخ التتار لأبي غازي.

(2) على الرغم من أنه تابع لتيمور إلاّ أنّه يعدّ نفسه أعلى مرتبة منه. ولم يتخذ سوى لقب أمير، وظلت العائلة المالكة في دلهي تحتفظ به حتى ظهور «النواب» في هندوستان.

خاتمة مخطوطة العقيد ديفي *

* لا ريب في أن هذه الخاتمة خطأ وقع فيه الناسخ، وقد وجدتها في مخطوطتين أخريين، تعودان إلى الكولونيل ديفي، وهما تتمة للتاريخ، لكنهما تنتهيان على نحو لافت للنظر كما يلي:

«ليكن معلوماً من هذا (المجلس) (بيتي دي لاكروا ص 284)، حتى الوقت الذي وضع فيه الإمبراطور آخر وصية في سهول (الخطا) في بلاد التتار، أنها مع الشرعة تقعان في 40 ألف بيت تقريباً، إما ناقصة وإمّا مطموسة».

«سوف تكتمل إن شاء الله تعالى أن يمنحني الصحة والقوة». (الملحق 10).

الملاحق

الملحق 1

بِسمِ اللهِ الرَّحمان الرَّحيم

حَمد بليغ سبحاني‌را كه بمقتضاي كريمه انا جعلناك خليفتاً في الارضِ عنقاي بقاي سلطنت صاحبقراني‌را ببال اقبال جهان گشاي بر قُلعه قاف گيتي ستاني اشيان فرمود سپاس بيقياس يزداني‌راكه صولت خلافت و دودمان تيموري‌را بجهت رواج دين مبين مُحمدي وتجديد شريعت غراي مُصطفي برجميع سلاسل سلاطين عالم برتر ومُعظم داشت وستايش بيشمار جهان افريني‌راكه همچنان دايره افلاك و عناصر وموالبد بمركز عالم قوام داد و دايره سُلطنت عظمي‌را بذات كثير البركات شهنشاه جم جاه بمصداق كريمه السُلطان العادل ظِل اللهِ حافظ بلادُ اللهِ ثبات و بقا داده

الملحق 2

اما بعد المحتاج الي رحمة ربه الهادي ابو طالب الحسيني بعز عرض باريافتگان پايه سرير ميرساند كه در حرمين اشرفين دركتب خانه جعفر حاكم يمن كتابي تركي ديدم از ملفظات عالي حضرت جنت مكاني فردوس اشيانه صاحب قراني غفران الله تعالي كه وقايع خود

بيت

از سن هفت سالگي

تاهفتاد ويك سالگي

كه بچه كيفيت خود بمرتبه سلطنت راسانيدم

چون عبارات و الفاظ تركي و عربي قريب الفهم نبود عبارت شكسته .يخته معني انرا از تركي بفارسي نقل نمودم

الله تعالي ذات كامل الصفات عالي حضرت خاقاني صاحب قران ثاني را از حوادث دوران محفوظ و مصون داراد وظل سلطنت وعدالت اين بخدا خلال را برمفارق عالميان گسترده داراد

الملحق 3

فرزندان ملك گير كامكار ونباير ذوي القدر جهاندار وغيره معلوم

تركي

اوسن اوله كم عالي مقام او لدانستم كم روين

مقام يلقان اولمش كم اينمش كشي برم

لوايم و قايع خودرا بنابر اين بتركي انشاء نمودم كه هريك از نباير من كه بر تخت سلطنت صعود نمايد و دولت سلطنت مرا كه برنجها و محنتها و قدا قيها وجنگها بتايد رباني و نصرت محمدي صلي الله اليه وسلم بچنگ اورده‌ام نگاهباني نموده بدين نزك عمل نمايند تا دولت وسلطنت ايشان از خلل وزوال ايمن گردد

الملحق 4

اشتهر الشيخ (صدر الدين) صفي الدين الأردبيلي بأنه من سلالة علي، صهر النبي محمد، وكان يسكن أردبيل من أعمال آزربيجان، ويشار إليه بأنه وليّ. وعُرف بسمو مكانته عند تيمورلنك، حتى إنه سلّمه كل الأسرى الذين وقعوا بين يديه في آسيا الصغرى.

وما انفك هؤلاء الأسرى يعلنون أنهم مدينون بحياتهم وحريتهم للشيخ، ويُبدون أعظم الامتنان له، وكسبوا صداقته ببذل الهدايا، وباتوا يقصدون زيارته، مما جعل شهرته تعلو وتشيع. وقد خلف عدة أبناء غدوا في مواقع القوة والبأس، وقد تحدرت العائلة الملكية الصفوية الفارسية من الشيخ صفي الدين.

الملحق 5

نال السيد محمود المعروف باسم «كيزو دراز» (أي: ذي الشعر الطويل) شهرة واسعة باعتبار أنه من الأولياء الصالحين في هندوستان. يقع ضريحه في ضواحي كلبرغا في الدكن، وما زال مقصداً لكثير من الحجاج المسلمين. وله عدة مصنفات في الصوفية، جاء ذكرها في فهرس مكتبة تيبو سلطان، من الرقم 17 حتى 20.

وأغتنم هنا الفرصة للإشارة إلى أن دين محمد وإن لم يحفل بالرهبان فقد كان أغنى من الديانات الأخرى بجماعات «الفقراء» و»الدراويش» و»المتصوفة»، وفاق في ذلك أي بلد كاثوليكي، إذ إنّ عدد الأولياء يعادل ما يوجد في التقويم الروماني من أيام. وعقائد الصوفية شبيهة بعقائد المتصوّفين والسكونيين في أوروبا، ويفترض برؤساء تلك الزوايا معرفة أحداث المستقبل، ولبعضهم القدرة على الإتيان بالمعجزات.

الملحق 6

اسم السورة «المُلْك»، ورقمها 67، لكنها تعرف بسورة «تبارك الذي»، وهي أثيرة عند المسلمين، وقد وردت فيها الآية 16: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ [الملك: 16].

وليس المقصود في هذه الآية أنه أول من حمل اسم تيمور، لأنه سبق ووردت هذه الكلمة في فترة سابقة من تاريخ المغول؛ ويقول ابن عربشاه إنها تعني «حديد» في التركية. وهو يحتاج إلى سطرين لإعطاء المعنى الدقيق للكلمة، لكنّه يقر بأن اللفظ طرأ عليه تغيير مع مرور الزمن.

الملحق 7

ليس لنا أن نفهم من هذا التعبير كثرة عوالم الفلكيين، لكن هو ما يصفه الأسيويون بالعالم اللامرئي للملائكة والأرواح والجن.... إلخ.

الملحق 8

در آن وقت مُنجمي از مُنجمانِ فارس بماوراُلنهر امده بود او در مجلسِ عُلماء زمان ميكفت كه ازگردش افلاك چنين مَعلوم ميشود كه در سنّه هفت صد و سي مولودي ازرحمِ مادر درعرصه' وجود خواهد امد كه عالم گير گردد

بيت

درهفت صد وسي درنهم ماه رجب

طالع شود آن كوكب فرخند لقب

الملحق 9

تمت تمام شد هذا الكتاب تواريخ مُبارك شاهي كه دستورالعمل محاربات تيمور صاحب قران خود تصنيف فرموده بودند

الملحق 10

معلوم باد كه ازاين مجلس تا مجلسِ وصيت كه امير در دست انداز صحراي خطا نموده اند بايرليغ تزك قريب بچهل هزار بيتِ ديكر خواهد بود از سواد بياض رفته انشاء الله اگر دل و دماغ ياري دهد باتمام خواهد رسيد

الملحق 11

وصيت ديگر الكه تزوكاتي كه در امور سلطنت خود نوشته ام انرا در ذيل وقايع من ثبت نموده احكام انرا دستور العمل خويش سازيد و سرشته انرا دردست داشته باشيد تا سلطنت و مملكت خودرا بحال خود توانيد نگاه داشت و اين وصيت كه درين وقت بشما كرده ام و به نصايح واموري كه شمارا مامور گردانيده ام تادم واپسين من هرچه از گفتار وكردار من بوقوع ايد در وقايع من از زبانِ من مُندرَج گردانيد

الملحق 12

ودر تقويت دين و مِلت مُحمدي صلي‌الله و الهُ و اصحابهُ و سلم و رواج مذهب برحقِ اهل سنّت و جماعت و محو ساختن مذاهِب باطله خواهيد كوشيد چه مُلك و دين ازيك شكم زاده اند

الملحق 13

استمرار أسرة تيمور حتى الوقت الراهن، بمقارنتهم بملوك إنكلترا في زمانهم:

أسرة تيمور		ملوك إنكلترا
تيمور		ريتشارد الثاني وهنري الرابع
ميران حسين	حكام فرغانة	هنري الرابع
محمد ميرزا		هنري الخامس
أبو سعيد		هنري السادس
عمر شيخ		ادوار الرابع
بابر	أباطرة المغول في هندوستان	هنري السابع
همايون		هنري الثامن
أكبر		اليزابيت
جهانكير		جيمس الأول
شاه جهان		تشارلز الأول
عالمكير/ اورنكزيب		تشارلز الثاني
بهادر شاه		وليم الثالث
فروخسير		آن
محمد شاه		جورج الأول
عالمكير الثاني		جورج الثاني
شاه عالم		جورج الثالث
أكبر شاه		جورج الرابع

ملحوظة: هذا ليس بياناً دقيقاً، وإنما هو مجرد مخطط عام للموضوع.

ذيل:

بعد شهور عدة من انكبابي على وضع هذه الترجمة حصلت من صديقي الميجور وليم يول من أدنبرة – الذي كان قد أمضى سنين عديدة يعمل مساعداً أول للسفير لدى بلاط لكناو – على نسخة أصلية من الطبعة الخاصة بمكتبة بلاط دلهي، التي وردت الإشارة إليها في كتاب الميجور ديفي الذي يقدّم المجلد المطبوع لشرعة تيمور الملحوظ في مقدمة هذا العمل، وقد حصل عليه الميجور يول بمكرمة خاصة من الإمبراطور عظيم المغول. كما وردتني نسخة أخرى من صديقي المقدَّم وليم فرانكلين التي حصل عليها من اللواء سير ديفيد أوتشترلوني، وكان السفير المعتمد لدى بلاط دلهي، والقائد المسؤول عن مقاطعات الهند الشمالية.

هذان المجلدان من القطع الكبير؛ الأول مدوّن بخطّ واضح حسن، والثاني يتّسم بالدقة الفائقة؛ وكلاهما يحتويان على مذكرات تيمور حتى وفاته، إلاّ أنهما يتسمان بالضخامة مما جعلني استثقل ترجمتهما. إلاّ أنني لم أعمد إلى مقارنتهما برواية بيتي دي لا كروا لتاريخ شرف الدين، وإذا احتوتا أي جديد فإني سألحظه. ولقد عمدت إلى مقارنة المذكرات على أدقّ وجه بمخطوطة الكولونيل ديفي، ووجدت أنّ ما احتوت عليه من إضافات هي شذرات من تاريخ شرف الدين. وقد أهملت المذكرات شرح بعض النقاط الخاصة، كما كانت محاولة لإثبات انتماء تيمور إلى المذهب السنّي، ولو أن ثمة شاهداً قوياً على أنه شيعيّ متزمّت شديد التعصّب كما يستدلّ من تدميره لمدينتي حلب ودمشق، ونجد الرواية في الفصل 65 من كتاب جيبون «انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية».

وتمكيناً للجمهور، وخاصة لجنة ترجمة اللغات الشرقية، ولتقدير ما إذا كان من المفيد استخدام رجل أصغر سناً لمتابعة هذه المذكرات بترجمة نسخة الطبعة الضخمة فإني أعرض في ما يلي مقدمة محرّر ذلك العمل، وذلك الجزء من التقرير الذي دونه تيمور وعرض فيه لوفاته شخصياً، وأعدّ هذا الشاهد المفتقر إلى الصحة دليلاً على أن الكتاب برمّته مزور.

مقدمة المحرر

ملفوظات تيمور

[مذكرات تيمورلنك]

بدأ المحرّر كالمعتاد بحمد الله، وتمجيد النبي محمد والخلفاء الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وكرر رواية أبي طالب الحسيني عن العثور على الكتاب في مكتبة جعفر باشا ومحتوياته.

ويمضي عندئذ فيقول إن الكتاب وقع للإمبراطور شاه جهان صاحب هندوستان، لكنه بعد أن قرأه بتمعن ولم يجده مرضياً فقد أمر محمد أفضل البخاري بمراجعته وتقويمه.

«في سنة 1047 للهجرة، وهي العاشرة في عهد جلالة شاه جهان (1637 م) صدرت الأوامر الملكية إلي، أنا أحقر خدم البلاط الإمبراطوري بقراءة هذا الكتاب ومراجعته من البداية إلى النهاية وجعله متفقاً مع «ظفر نامه»[1] وهو الكتاب الذي لا سبيل لعاقل أن يشكّك بصحته، والمقارنة بينه وبين المصنفات التاريخية الأخرى الجديرة بالثقة. وذلك لإبعاد بعض الأمور التي أقحمها المترجم، وإدخال بعض الحوادث التي كان قد أهملها، وكذلك ترجمة جمل بالتركية والعربية إلى الفارسية، وتصحيح عدد من التواريخ التي لا تتفق مع ما ورد في ظفر نامه».

«وامتثالاً للأمر السامي بذل أضعف خدم مولاي صاحب العظمة أقصى جهده، وتسلح بنطاق الطاعة، باذلاً ما استطاع في تنقيح الترجمة المشار إليها وتصويبها، فأسقط المقاطع التي لا سند لها وكان أبو طالب قد أقحمها في النص، وأدخل عدة مقاطع كان المترجم قد أغفلها، وهكذا جعل النص يتفق وظفر نامه. كذلك أمكن لهذا العمل أن يبلغ نهايته بفضل رعاية صاحب العظمة الذي يضاهي النبي سليمان في جلالته، المدافع عن الدين، حامي الأمراء، وليس ينقصه سوى أن يمهره عظمته ملك العالم بخاتمه».

ويبدو مما ورد في كتاب داو تاريخ هندوستان History of Hindostan أن المترجم محمد

---

(1) التاريخ الفارسي، تأليف شرف الدين يزدي. ترجمة بيتي دي لاكروا.

أفضل كان شيخ شاه جهان، ولعله كان قد استخدمه لينقّح هذا العمل، إلاّ أنه لم يمتثل للوعد الذي قطعه بأن يترجم كل المقاطع الموضوعة بالتركية، مع أنه من أهل بخارى حيث الناس يحيطون بتلك اللغة أحسن إحاطة.

وتعرض خاتمة العمل وصول الإمبراطور تيمور إلى أترار[1] في طريقه إلى الصين، ووصف مرضه الأخير، وجمعه أفراد أسرته ووزرائه وسواهم من الأشخاص البارزين، وفي حضورهم أملى وصيته التي تتألف من أربع فقرات؛ تتضمن أول فقرتين وصيته لسلالته بالوحدة فيما بينهم، والولاء للأعيان الذين أحلّهم هذه المرتبة؛ ويرسم في الثالثة أن يكون حفيده بير محمد جهانكير خليفته وملك سمرقند، وأنه يتعين على أبنائه وأحفاده كافة أن يُحِلّوا حفيده جهانكير في أسمى مرتبة بينهم[2]؛ وتتضمن الفقرة الرابعة رجاءه من سلالته أن تتقيد بالقوانين والأنظمة التي وضعها في عهده، وأن تضاف كملحق لمذكراته، ويبدي رغبته بأن تستمرّ مذكراته حتى آخر لحظة من حياته، وكأنه هو الذي كتبها أو نطق بها: «أرغب بأن تدون وصيتي، وكل ما يصدر عني من أقوال حتى آخر لحظة من وجودي ضمن مذكراتي، كما لو أنها صدرت من فمي». (الملحق 11).

ويكرر نصيحته التي يوجهها لأبنائه وأحفاده بأن يكونوا موحَّدين «لنصرة دين محمد، وتجديد السنة، ويجهدوا للقضاء على كل دين زائف (الملحق 12)، ثم ينتهي بمنع أيٍّ كان من الكلام أو إزعاجه، بل عليهم أن يتركوه لرحمة ربه.

وقد سلّم روحه لباريها بعد ذلك بقليل، وكان ذلك يوم الثلاثاء المصادف للسابع عشر من شعبان سنة 807 هجرية، و 19 آذار/ مارس 1405م.

انتهى الكتاب

---

(1) بلدة واسعة تبعد فرسخين شمال نهر سيحون.

(2) يتفق هذا التوزيع والقانون الإنكليزي، حيث إن جها نكير هو الابن البكر، إلاّ أن خليل سلطان وهو أحد أحفاد تيمور، وابن ولده المتوفي ميران شاه، هو الذي حكم ثم توفي بعد ثلاث سنوات، فاستولى شاه روخ الذي هو أصغر أبناء تيمور على بلاد ما وراء النهر، لكن الأمراء الآخرين استولوا أيضاً على المناطق التي كانت تحت إمرتهم، وهذا أدى إلى أن تتداعى الإمبراطورية الجبارة وتتجزأ إلى قطع صغيرة.
وقد يهتم بعضهم بأن يعرفوا أن الممالك التي كانت تخضع لتيمور زارها سنة 1812 «عزة الله» الذي هو رجل حصيف من أهل الهند، وقد نَشرت مذكراته الأبحاثُ الآسيوية، ومنها بلغنا أن الصينيين توسّعوا حتى بلغوا نهر سيحون، وأن بلدات ما وراء النهر كانت تُحكَم من مختلف زعماء الأوزبك، والبلد تحتله عشائر القرغيز البدوية.

محتويات الكتاب

يعد تيمورلنك - الذي عاش في الرابع عشر (1370 - 1405) في وسط آسيا - أول الحكام في العائلة التيمورية الحاكمة، والتي استمرت حتى عام 1506م. وتعني كلمة (تيمور) باللغة الأوزبكية: الحديد، أما كلمة (لنك) فإنها تعني: (الأعرج)؛ ولقب كذلك بسبب إصابة رجله خلال إحدى معاركه.

كان تيمورلنك قائدًا عسكريًا فذًا، خاض حروباً كثيرة، وشن حملات توسعية شرسة، أدّت إلى مقتل العديد من المدنيين، وإلى السيطرة على بلاد كثيرة.

اشتهر بصفات كثيرة؛ منها الثبات في وجه المحن، والنشاط والشجاعة حينما تعترضه المصاعب وتحدق به الأخطار، وكانت لديه قدرات ومواهب في الميدان، وفي ديوان الحكم كذلك.

السعر: 50 درهماً





هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY